توني موريسون

رواية

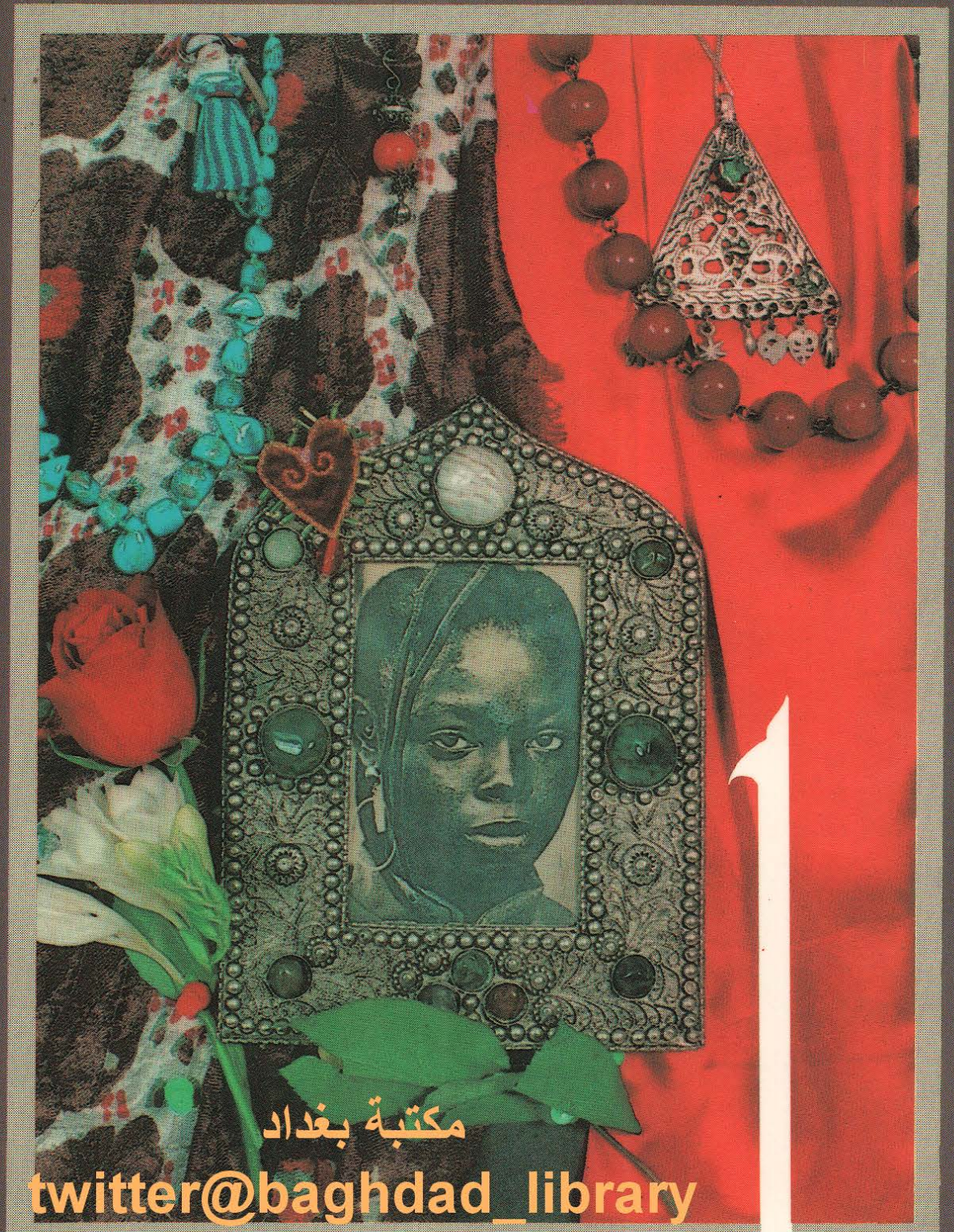

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

جاز

JAZZ

ترجمة
كامل يوسف حسين

دار الآداب

جاز

رواية : توني موريسون

ترجمة : كامل يوسف حسين

دار الآداب - بيروت

twitter @baghdad_library

الطبعة الأولى

١٩٩٤ م

مقدمة المترجم

الحقيقة الأساسيّة الّتي ينبغي للقارئ العربي تذكّرها لدى مطالعته أيّ عمل من أعمال الرّوائيّة الأمريكيّة من أصل إفريقي توني موريسون هي أنّها تستحق القراءة «لأنّها في رواياتها المتميزة بقوّة الخيال وشاعريّة المحتوى منحت الحياة لجانب مهم من الواقع الأمريكي» بأكثر ممّا تستحقها لأنّها نالت الجائزة الأكثر شهرة في عالم الأدب، جائزة نوبل.

وإذا كنت قد سمحت لنفسي هنا بأن أقتطف جوهر تقرير اللّجنة السّويديّة الملكيّة في تبرير منح الجائزة في الأدب عن عام ١٩٩٣ لموريسون، فإنّني أستميح القارئ عذراً في أن أقتطف كلمة أخرى، أراها لا تقلّ أهميّة عن المقتطف السّابق كتبها النّاقد البريطاني أنطوني كورتيس عن موريسون في «الفاينانشيال تايمز» في ٩ أكتوبر ١٩٩٣، أي بعد إعلان فوز موريسون بأيّام قلائل، حيث كتب يقول: «سيكون من المؤسف إلى حدّ كبير إذا ما نظر إلى منح جائزة نوبل للأدب للكاتبة الأمريكية السّوداء توني موريسون على أنه مجرد إيماءة أخرى لسلامة التوجّه السّياسي لأنّها تقدّم جائزة عن أعمال كاتبة شجاعة رسمت معالم أرض جديدة للرّواية الحديثة في نثر قويّ وواضح يحمل أصداء الشّعر».

وربّما كان من حقّ دار الآداب على كاتب هذه السّطور، ، بل من

twitter @baghdad_library

واجبه، أن يشير إلى أن اهتمام الدّار بموريسون هو اهتمام قديم مردّه طبيعة عالمها الرّوائي نفسه الّذي أشارت إليه اللّجنة وكورتيس معاً، فما أعرفه أنّ الدّار سعت منذ صدور رواية «محبوبة» في العام ١٩٨٧ إلى تقديمها للقارئ العربي، وكلفت أحد المترجمين العرب بالفعل بترجمتها، لكنّ ظروفاً شتّى حالت دون إتمام المشروع تتعلق أساساً بعدم تمكن المترجم المكلف بإنجاز العمل من تقديمهِ.

وقد كُتب الكثير عن موريسون في عالمنا العربي عقب فوزها بالجائزة، ربّما إلى حدّ التّساؤل عن الحكمة من تحليل ضافٍ آخر هنا لأعمالها.

رغم ذلك أرى من حق القارئ عليّ أن أقدّم بعض الإضاءات الّتي أتصوّر أنّها يمكن أن تشكّل محطّات لرحلة تستحقّ القيام بها مع عالم موريسون الرّوائي وعبره.

روايات موريسون السّت، وهي على التّوالي: العين الأكثر زرقة (١٩٧٠) سولا (١٩٧٣) أنشودة سليمان (١٩٧٧) طفل القار (١٩٨١) محبوبة (١٩٨٧) جاز (١٩٩٢) تنتمي إلى عالم الرّواية الواقعيّة، ولكن مع ملاحظة أنّ الكاتبة تحرص على شقّ أرض جديدة وآفاق جديدة لرواياتها في هذا الإطار. وقد أشار الكثيرون إلى أنّ موريسون تعتمد بشكل خاص على مؤثّرات الواقعيّة السّحريّة. ولكن ربّما كان من الأكثر دقّة القول إنّ الواقعيّة السّحريّة تشكّل نهراً واحداً من دلتا هائلة من الأنهار والنّهيرات والفروع ارتحلت عبرها الكاتبة.

قد لا يكون من المبالغة القول بأنّ الرّواية الماثلة بين يدي القارئ هنا، وهي أحدث رواياتها، حتّى كتابة هذه السّطور هي العمل الأكثر

نضجاً في مجمل إنجازها الرّوائي. وأتمنى على القارئ ملاحظة أنّ العنوان لم يأتِ من الفراغ ولم يذهب إلى المجهول، وربّما كان أجمل ما في إبداع موسيقى الجاز هو ذلك الانتقال على جناحي الارتجال عبر آفاق سحريّة تشكّل جسراً بين مشاعر الجمهور والفنّان. وهذا هو إلى حدّ كبير ما حاولته موريسون هنا، إلى حدّ إعادة كتابة صفحات طويلة لاستحضار روح ذلك الارتجال الممكن والمستحيل.

من كلّ أعمال موريسون هناك ذلك التّمييز الحادّ والصّريح والواضح بين «ما يقع» و«ما يحدث». فما يقع هو ذلك الّذي يمكنك أن تقرأه في صحيفة عبر أسطر قلائل أو تشاهده في ثوانٍ خلال تقرير تلفزيوني عبر واقعة بعينها، لكنّ ما يحدث هو ذلك الذي حدث بالفعل ولكن بعد أن يتناهى إلينا من خلال التّفاصيل الإنسانيّة الدّقيقة واللّحظات المترعة بالرّحيل عبر الدّوافع والخلفيات والآفاق الّتي يأتي منها السّلوك الإنساني، هذا السّلوك الّذي يستهدف، كما تعبّر موريسون على صفحات «جاز» أن تجعل العالم على نحو ما تريده أن يكون.

لا يمكن أن يخطئ القارئ ذلك التّمييز الّذي تحرص عليه موريسون بين «المكوث» و«الحياة»، فالكثير من النّاس يمكثون في أماكن بعينها وتنشأ علاقة عضويّة تربطهم بذلك المكان. ولكن ما الّذي فعلوه في ذلك المكان؟ إلى أي حدّ غيّروا ملامحه؟ وإلى أي حدّ غرس حضوره في وجدانهم؟ تلك كلّها أسئلة تتعلق بفهمنا للحياة.

ما من حديث مع موريسون أو حوار أو محاضرة لها أو كتابة نظريّة

twitter @baghdad_library

من أي نوع ـ وهي أصلاً أستاذة جامعيّة لم تكتب روايتها الأولى إلاَّ بعد أن بلغت سنّ الأربعين ـ إلاَّ وتحرص فيه على إضاءة مفهومها عن «نهب اللّغة» وقد بلغ من اهتمامها به أنْ خصّصت كلمتها في حفل توزيع جوائز نوبل للحديث عن هذا المفهوم، وهي تقول ببساطة شديدة إنّ جماعات هائلة من البشر في عالمنا المعاصر، ومن بينهم الجماعات ذات الأصل الإفريقي في أمريكا تتعرّض لمحاولات تحطيم ثقافتها الخاصة ووجدانها الدّاخلي، وأنّ هذا كلّه يصل إلى قمّته في تحطيم لغتها كنمط للتواصل وكنظام إشاري، وبمعنى ما كتفسير للعالم، وأن تلك جريمة لا يعادلها ربّما إلاَّ جريمة الاسترقاق نفسها.

وبعد. فإنّ عالم موريسون الرّوائي هو من الرّحابة والاتّساع والعمق بحيث توشك هذه السّطور أن تكون دعوة إلى المزيد من الجهد في فهم هذا العالم أكثر ممّا هي محاولة لإلقاء الضّوء عليه.

ومن يدري فقد نتصدّى لمحاولة الإضاءة تلك في مستهلّ رحلة جديدة أخرى لنا مع موريسون، متخذين من حصاد ارتحالنا عبر «جاز» زاداً لنا نحو آفاق أبعد.

تلك المرأة أعرفها، فقد درجت على السّكن مع رفّ من الطّيور في لينوكس أفنيو. وأعرف زوجها كذلك، فقد أوقعته فتاة في الثّامنة عشرة من عمرها، في غرام ينتمي إلى تلك الأهواء المستبدة، الغائرة في القلب، جعله يوغل في الحزن والفرح، حتّى إنّه أطلق النّار عليها، لا لشيء إلاَّ ليبقى هذا الشّعور مستمراً. وعندما مضت المرأة، واسمها فيوليت، إلى الجنازة لترى الفتاة، ولتمزّق محياها، ألقوا بها أرضاً، وأخرجوها من الكنيسة. وعندئذٍ انطلقت عَدْواً، عبر ذلك الجليد كلّه، وحينما عادت إلى شقتها أخرجت الطّيور من أقفاصها، وأطلقتها من النّافذة، لتتجمد برداً أو لتحلِّق، بما في ذلك الببغاء الّتي قالت «أحبّك».

كان الجليد الّذي انطلقت تغدو عبره واقعاً تحت بطش الرّيح، حتّى إنَّها محت آثار أقدامها؛ ولذا لم يعرف أحد لبعض الوقت في أي موضع من لينوكس أفنيو تسكن، ولكنّهم، شأني، عرفوا من عساها تكون، من يتحتم أن تكون، لأنّهم كانوا يعرفون أنّ زوجها، جوتريس، هو الّذي أطلق النّار على الفتاة. ولم يقدر لأحد قطّ أن يوجّه له الاتّهام لأنّ أحداً لم يره بالفعل وهو يقترف الجرم، ولم ترغب عمّة الفتاة في أن تهدر المال بدفعه إلى محامين لا يملكون من الأمر شيئاً أو إلى رجال الشّرطة الّذين ضحكوا من الأمر، إذ كانت تعرف أنّ ما ستتكبده من نفقات لن يغيّر من الأمر شيئاً. وفضلاً عن ذلك فقد اكتشفت أنّ الرّجل الّذي قتل ابنة أخيها كان يمضي سحابة

twitter @baghdad_library

نهاره باكياً، وكان هذا، بالنّسبة لها وبالنّسبة لفيوليت، جزاءً وفاقاً كالسجن.

وبغضّ النّظر عن الحزن الّذي أثارته فيوليت في النّفوس، فقد طرح اسمها في اجتماع شهر كانون الثاني (يناير) الّذي عقده نادي مدينة سالم النّسائي، باعتبارها ممن يحتجن إلى المساعدة، ولكن تمّ الاعتراض عليها، لأنّ الصّلاة وحدها ـ لا المال ـ هي الّتي بمقدورها مساعدتها الآن، لأنّ لها زوجاً قادراً بشكل أو بآخر (كان بحاجة إلى التوقّف عن الشّعور بالرّثاء لنفسه) ولأنّ رجلاً وعائلته في الشّارع المائة والرّابع والثّلاثين قد فقد كلّ شيء في حريق. وحشد النّادي قدراته للانطلاق لمساعدة العائلة الّتي راحت ممتلكاتها ضحية الحريق، وترك فيوليت تحدّد بنفسها طبيعة ما تواجهه وكيفية التّعامل معه.

هي نحيلة على نحو فظيع، أعني فيوليت، في الخمسين من عمرها، ولكنّها كانت ماتزال جذّابة المظهر عندما اقتحمت الجنازة. ولربّما تحسب أن طردها خارج الكنيسة شكّل النّهاية بالنّسبة لها ـ الشّعور بالعار وما إلى ذلك ـ لكنّ الأمر لم يسر على هذا النّحو؛ فقد كانت فيوليت من الخساسة والفتنة بحيث تعتقد أنّها حتّى دونما عجيزة وبغير ميعة الصّبا فإنّ بمقدورها معاقبة «جو» من خلال الارتباط بعشيق والسّماح له بزيارتها في دارها. وحسبت أنّ ذلك من شأنه أن يجفف دموعه ويمنحها بعض الرّضا كذلك. وأحسب أنّ الأمر كان يمكن أن يمضي على هذا النّحو، لولا أنّ الأبناء المنحدرين من آباء انتحروا، هم من النّوع الّذي يتعذّر إرضاؤه، والّذي يسارع إلى الاعتقاد

بأنّه ما من أحد يحبهم، لأنّهم ليسوا موجودين بصورة حقيقيّة.

لم يُبْدِ «جو»، على أيّة حال، اهتماماً بفيوليت أو صديقها. وليس بمقدوري تحديد ما إذا كانت قد طردت صديقها أم أنّه هو الّذي هجرها. وربّما شعر بأنّ مفاتن فيوليت محدودة إذا ما قيست بتعاطفه مع الرّجل الكسير الفؤاد في الغرفة المجاورة. ولكنّني أعرف أنّ تلك الورطة لم تمتدّ لأكثر من أسبوعين. وأوشكت خطّة فيوليت التّالية ـ أي الوقوع في حبّ زوجها من جديد ـ أن تصل بها إلى حافة الهلاك قبل العثور على موطئ قدم. وكان أقصى ما أفلحت في الوصول إليه هو القيام بغسيل مناديله ووضع الطّعام على المائدة أمامه، فقد طغى صمت مسموم عبر الغرف مثل شبكة صيد كبيرة، أعملت فيوليت وحدها يد التّمزيق فيها بتوجيه الاتّهامات بصوت عال إليه. ولابدّ أنّ فتور همّة «جو» نهاراً ولياليهما المفعمة بأسباب القلق قد استنفد حيويتها. وهكذا قرّرت أن تحبّ ـ طيّب، أن تكتشف أمر ـ الفتاة ذات الثّمانية عشر ربيعاً، الّتي حاولت قطع بشرتها الحليبيّة، على الرّغم من أنّ ذلك ما كان ليغيّر من الأمر شيئاً.

في البداية، لم تعرف فيوليت أي شيء عن الفتاة إلاّ اسمها وعمرها وأنّهم كانوا يحسنون الظنّ بها في صالون التّجميل ذي الرّخصة القانونيّة، وهكذا بدأت بجمع باقي المعلومات عنها. وربّما حدّثت نفسها بأنّها يمكنها بتلك الطّريقة حلّ لغز الحبّ. حظاً طيباً، وحدّثيني بما ستصلين إليه.

طرحت الأسئلة على الجميع، ابتداء بمالفوني، الجار الّذي يسكن الطّابق العلوي ـ والّذي كشف لها في المقام الأوّل ما يأتيه «جو» والّذي

twitter @baghdad_library

كان هذا الأخير والفتاة يستخدمان شقته وكراً للعشق. وقد علمت منه عنوان الفتاة وابنة من تكون. ومن العاملات بصالون التّجميل اكتشفت أي نوع من أحمر الشفاه تستخدمه الفتاة ونوعية مكواة الشّعر الّتي يستخدمونها في العناية بشعرها (على الرّغم من أنّني أشكّ في أنّ الفتاة كانت بحاجة إلى فرد شعرها) والفرقة الموسيقية الأثيرة لديها (كانت فرقة إبوني كيز الّتي يقودها سليم باتس، وهي فرقة جيدة للغاية باستثناء مطربتها الّتي لابدّ أنّها زوجته، وإلاّ فأي سبب يدعوه إلى تركها تسيء إلى فرقته إلى حدّ الإهانة، وعندما أطلعوها على الخطوات الرّاقصة التي اعتادت الفتاة الميتة الانطلاق بها، قامت بتقليدها. كلّ ذلك. وعندما انطلقت بتلك الخطى المميزة، وقد انحسر الثّوب للغاية عن ركبتيها، شعر الجميع، ومن بينهم رفيقها السّابق، بالاشمئزاز منها، وبمقدوري إدراك السّبب في ذلك؛ فقد كان الأمر يشبه مشاهدة حمامة عجوز وهي تلتقط كسرة من شطيرة سردين خلفتها القطط وراءها. لكنّ فيوليت ظلّت سادرة في غيها ولم يفلح تلميح بارع ولا نظرة صارمة في إيقافها. فقد لازمت المدرسة الإعداديّة رقم ٨٩ لتحادث المدرّسين الّذين عرفوا الفتاة وكذلك المدرسة الثّانويّة رقم ١٣٩ في صفوفها الأولى لأنّ الفتاة مضت إلى هناك قبل أن تذهب إلى ويدلاي؛ حيث لم تكن هناك مدرسة ثانوية بها صفوف عليا يمكن أن تلتحق بها فتاة سوداء. ولفترة طويلة أزعجت عمّة الفتاة، وهي سيّدة تحظى بالتّوقير، وقد وفّقت في مجال صنع الملابس، إلى أن انهارت، وشرعت في التطلُّع إلى زيارات فيوليت لتبادل الحديث معها حول الشّباب والشّقاوة، وأطلعت فيوليت على كلّ متعلقات الفتاة، وبدا لها واضحاً (كما بدا لي) أنّ

ابنة الأخ هذه كانت عنيدة تماماً كما كانت ماكرة.

وهناك شيء محدّد أطلعت العمّة فيوليت عليه، بل وتركتها تحتفظ به لعدّة أسابيع. وهو صورة لوجه الفتاة، لا تظهرها مبتسمة، ولكنّها على الأقلّ تبدو متدفقة بالحياة وبالجرأة البالغة. وقد وصلت الجرأة بفيوليت إلى حدّ أنّها وضعتها على رفّ المدفأة في غرفة استقبالها، وراحت هي و«جو» تنظران إليها بارتباك.

بدت على الدّار مؤشرات واعدة بكآبة بالغة، مع ذهاب الطّيور، وتبادلهما العبارات السّاخرة طوال اليوم، ولكن عندما حلّ الرّبيع في المدينة، شاهدت فيوليت فتاة أخرى ذات أربع خصلات شعر مموجة على كلّ جانب من جانبي رأسها، وقد أقبلت إلى المبنى حاملة اسطوانة من طراز «أوكي» تحت ذراعها، وهي تحمل أيضاً لحم يخنة ملفوفاً في ورق جزارة. ودعتها فيوليت إلى البيت لتلقي نظرة على الأسطوانة، وتلك هي الكيفية الّتي بدأت بها المسيرة الثّلاثيّة المتفجّرة بالفضيحة في لينوكس أفنيو، غير أنّ ما اختلف كان شخصيّة الجاني وهويّة الضّحية.

هذه المدينة تثير جنوني.

انحدر ضوء النّهار مائلاً مثل شفرة موسى وكأنّه يشطر المباني، في النّصف الأعلى أشاهد وجوها تحدّق، وليس من اليسير أن أحدّد أيّها وجوه ناس وأيّها انعكاس لبراعة البناة. وفي الأسفل ظلّ يقبع كلّ ما يتّسم بالتّخمة والسّأم واللّامبالاة: آلات الكلارينت، والمضاجعة، وقبضات الأيدي، وأصوات النّسوة الحزينات، ومثل هذه المدينة

twitter @baghdad_library

تجعلني أحلم بالقامة السّامقة وبتلمّس الأشياء. وإنّي على اطّلاع على أمورها. مردّ هذه الازدواجيّة إلى الصّلب الملتمع فوق الظلّ المترامي في الأسفل. وعندما أنظر إلى بقع النّجيل الأخضر الّتي تمتدّ بامتداد النّهر، وأجراس الكنائس، وقاعات المباني السّكنيّة الّتي تجمع بين اللّونين الحليبي والنّحاسي تدبّ القوّة في عروقي. وحدي، نعم، ولكن في القمّة ولا سبيل إلى القضاء عليّ، تماماً كالمدينة في ١٩٢٦ عندما وضعت كلّ الحروب أوزارها، وبدا أنّه ما من حرب أخرى ستنشب أبداً. وأخيراً، أخيراً، كلّ شيء يمتدّ أمامنا، الأذكياء يقولون ذلك، ومن يصغون إليهم ويقرأون ما يكتبونه يقرون قولهم. هوذا الجديد. انظر! هنالك الجانب المحزن، الجانب السيّئ الجانب الّذي لا يستطيع أحد تجنبه، النّحو الّذي كان عليه الجميع هنالك وقتذاك. انس ذلك! الماضي انتهى، بالنّسبة لكم جميعاً، وكلّ شيء يمتدّ أمامنا، أخيراً. في القاعات والمكاتب يجلس أناس عاكفين على تدبّر خواطر مستقبليّة عن مشروعات وجسور وقطارات سريعة التّقاطر تحت الأرض، وتستعين وزارة الزّراعة والمراعي بكتبة ملونين، ونساء ممتلئات السّيقان ذوات ألسنة ورديّة تشبه ألسنة القطط يضعن النّقود في أنابيب خضراء لاستخدامها فيما بعد، ثمّ يضحكن، وتضع إحداهن ذراعها على خصر الأخرى، ويحاصر أناس عاديون لصوصاً في الأزقّة لإنزال العقاب السّريع بهم، وإذا كان أحد هؤلاء اللّصوص من الحمقى بحيث يسرق الشّخص غير المناسب فإنّ اللّصوص يحاصرونه أيضاً، ورجال عصابات يوزعون الحلوى، ويبذلون قصارى جهدهم لاستقطاب الاهتمام، وبما أنّهم ترمقهم العيون لما في ذلك من إثارة، فإنّهم يهتمون بملابسم وطريقتهم في صبّ

الإهانات. وما من أحد يرغب في أن يكون حالة من حالات الطّوارئ في مستشفى هارلم، ولكن إذا كان الجرّاح الزّنجي هو المنوَّب فإنّ الشّعور بالفخر يخفف الألم. وعلى الرّغم من أنّ شعر ممرضات الفئة الأولى من الممرضات الملونات قد تمّ الإعلان بأنّه غير ملائم لغطاء الرّأس الرّسمي للممرضات من طراز بلفيو، فإن هناك خمساً وثلاثين ممرضة منهنّ الآن، وهنّ جميعاً متفانيات في العمل ومتميزات في أدائهنّ المهني.

ما من أحد يقول إنّ هذا المكان جميل، وما من أحد يقول إنّ الأمور تمضي في يسر أيضاً، والأمر الحاسم هو ما المدينة عليه، ولو أنّك أبديت اهتماماً بمخططها، وهو بأسره ماثل للعيان، للاحظت أنّها لا يمكن أن تلحق الأذى بأحد.

ليست لي عضلات تذكر، ولذا فليس بمقدوري حقاً أن أتوقّع أن أدافع عن نفسي، ولكنّني أعرف كيف ألزم الحذر، وغالباً ما يتمثّل ذلك في التّيقن من أنّه ما من أحد يعرف كلّ ما تتاح معرفته عني، وثانياً أراقب كلّ شيء وجميع النّاس وأحاول تخمين خططهم وطرق تفكيرهم قبل وقت طويل من قيامهم بالتّخطيط والتّفكير، ذلك أنّه يتعين عليك إدراك ما يعنيه استيعاب مدينة كبرى، فأنا عرضة لكلّ ألوان الجهل والإجرام. ومع ذلك فهذه هي الحياة الوحيدة المتاحة لي، وأنا أحبّ الطّريقة الّتي تجعل بها المدينة النّاس يعتقدون أنّ بمقدورهم القيام بما يريدونه والإفلات من عواقب ذلك. إنّني أراهم جميعاً في كلّ مكان، البيض الأثرياء، والبيض العاديين، وهم يتزاحمون في دور زينتها وقد أعادت تزيينها نسوة من السّود أكثر ثراء

twitter @baghdad_library

منهم، وكلّ من الفريقين يشعر بالسّرور لمرأى الفريق الآخر. ولقد رأيت عيون يهود من السّود مترعة بالإشفاق على الجميع وليس على أنفسهم، وهي تمسّ في رفق أكشاك الطّعام وكواحل النّسوة المنطلقات، بينما يحرّك النّسيم الرّيشات البيضاء على خوذ رجال هيئة استعلامات الأمم المتحدة. يطفو رجل ملوّن كما لو كان يهبط من السّماء نافخاً النّفير، وتحته في الفراغ بين مبنيين تتحدّث فتاة في لهفة إلى رجل يعتمر قبعة من القشّ، ويمسّ شفتها ليزيل قطعة من شيء استقرّ هناك. وفجأة تلزم الصّمت، ويرفع ذقنها عالياً. ويقفان هنالك، تخفّ قبضتها على حقيبة يدها، ويشكّل عنقها منحنى لطيفاً. ويضع الرّجل يده على الجدار الحجري فوق رأسها، ومن الطّريقة الّتي يحرّك بها فكّه ومن التفاتة رأسه أدرك أنّه محدّث بارع، وتنسل الشّمس إلى الزّقاق فيما وراءهما، فتشكّل صورة جميلة وهي تترامى في طريقها إلى أسفل.

اصنع ما تشاء في المدينة، فهي هنالك لتتربصّ بك وتوقعك في حبائلها كائناً ما كان ما تصنعه. وما يجري في مبانيها ومواقف سيّاراتها هو أي شيء يمكن أن يفكّر فيه الأقوياء ويعجب به الضعفاء. وكلّ ما عليك القيام به هو الانتباه للمخطّط، للطّريقة الّتي سيطرح بها عليك، وأن تلزم الحذر، وتهتم بالموضع الّذي تريد الذّهاب إليه، وما قد تمسّ حاجتك إليه غداً.

عشت طويلاً، ربّما أطول ممّا ينبغي في رحاب خواطري. ويقول النّاس إنّني ينبغي أن أخرج على نحو أكبر من عزلتي، وأختلط بالآخرين. وإنّني أوافق على أنّ شعوراً بالانغلاق يلفّني في بعض الأماكن، ولكن لو أنّك تُرِكت، على نحو ما حدث لي، واقفاً بينما

من واعدته يطيل البقاء في إطار موعد آخر، أو لو أنّه يعدك بأن يمحضك الاهتمام بعد تناول العشاء لكنّه يغطّ في النّوم لدى شروعك في الحديث، طيّب، من شأن ذلك أن يجعلك عكر المزاج وبعيداً عن الانفتاح على الآخرين ما لم تلزم الحذر، وهو آخر ما أريد أن أكونه.

وصفاء المزاج والانفتاح على الآخرين يعنيان الذّهب في هذه المدينة، فعليك أن تكون بارعاً لكي تخمّن كيف ترحب بالآخرين وتلزم موقف المدافع عن نفسه في وقت واحد، متى تحبّ شيئاً ومتى تقلع عنه. وإذا لم تعرف كيف يمكنك القيام بذلك، فمن الممكن أن ينتهي الأمر بفقدانك السيطرة أو بأن يسيطر عليك شيء خارجي، كتلك القضية القاسية في الشّتاء الماضي، حيث قيل إنّه تحت الأحوال الطّيبة والمال المتيسر انطلق شيء مفعم بالشّر في الشّوارع ولم يعد هناك ما هو آمن ـ ولا حتّى الموتى. والدّليل على ذلك هو هجوم فيوليت المندفع على جوهر الجنازة ذاته. ولم يكن قد انقضى على بدء العام ١٩٢٦ إلاَّ ثلاثة أيّام أو تكاد. تأمّل حشدٌ من النّاس الحريصين في المؤشّرات (الطّقس، العدد، أحلامهم الخاصّة) واعتقدوا أنَّ ذلك كان بداية كافّة أشكال الدّمار، وبدا أنّ الفضيحة هي رسالة بعث بها لتحذير الأخيار ولمحق من لا إيمان في قلوبهم. ولست أدري من الّذي كان أكثر طموحاً ـ أهم مطلقو النّذر أم فيوليت ـ ولكن من الصّعب المعادلة بين الخرافات والآمال الكبار.

كانت سبع سنوات قد انقضت على إعلان الهدنة في ذلك الشّتاء الّذي اقتحمت فيوليت خلاله الجنازة، وكان قدامى المحاربين في

twitter @baghdad_library

الجادّة السّابعة لا يزالون يرتدون معاطفهم الواسعة الّتي تلقّوها من الجيش؛ لأنّه ما من شيء بمقدوهم أن يشتروه يُحاكيها في المتانة أو يخفي على مثل هذا النّحو الجيّد بعد ثماني سنوات ما تفاخروا به في العام ١٩١٩ وعندما يهمي الثّلج فإنّه يقبع حيث سقط في لكسنجتون وبارك أفنيو أيضاً بانتظار مقدم العربات الّتي تجرها الجياد لتدكّه في الأرض، لدى قيام سائقيها بتسليم الفحم من أجل الأفران الّتي أخذت تفقد حرارتها في الأقبية. وفوق تلك الأقبية في تلك المباني السّكنية الكبيرة ذات الطّوابق الخمسة والدّور الخشبيّة الضّيقة الواقعة بينها يطرق النّاس بعضهم أبواب بعض لتبيّن ما إذا كانت الحاجة ماسّة إلى أي شيء أو ما إذا كان هناك ما يمكن الحصول عليه. قطعة صابون؟ قليل من الكيروسين؟ بعض الدّهن أو الدّجاج أو لحم الخنزير لجعل الحساء أطيب مذاقاً مرّة أخرى؟ زوج يتأهّب للانطلاق لتبيّن ما إذا كان هناك حانوت لم يوصد أبوابه؟ هل هناك وقت لإضافة زيت التربنتينة إلى القائمة المكتوبة الّتي سلّمتها له الزّوجات؟

في طقس بارد كهذا يثير التّنفس الشّعور بالألم، ولكن أياً كانت مشكلات الوقوع في قبضة الشّتاء في هذه المدينة فإنّهم يحتملونها، لأنّه أمر جدير بالتّقدير أن يكونوا في لينوكس أفنيو آمنين من غير الزّنوج ومن الأمور الّتي يدبّرونها، حيث الشّوارع الجانبيّة، سواء كان الجليد يكسوها أم لم يكن، أعرض من الطّرق الرّئيسية في المدن الّتي رأوا النّور فيها، وحيث يمكن للنّاس العاديين تماماً الوقوف في المحطّة وركوب التّرام ودفع قطعة نقديّة من فئة الخمسة سنتان للرجل والانطلاق حسبما يحلو لك، وذلك على الرّغم من أنّه لن

يحلو لك الانطلاق بعيداً، لأنّ كلّ ما تنشده موجود حيث أنت على وجه الدّقّة: الكنيسة، المتجر، مقرّ الحزب، النّساء، الرّجال، صندوق البريد (ولكن لا مدارس ثانويّة) محلّ الأثاث، باعة الصّحف المتجوّلون، دور التّعامل بالسّلع المهرَّبة (ولكن لا وجود للبنوك) صالونات التّجميل، صالونات الحلاقة، دور اللّهو الصّغيرة، عربات المثلجات، والمتعاملون بالملابس القديمة وقاعات أحواض السّباحة، وأسواق الأغذية المفتوحة ومهرّب المخدرات، وكلّ ناد أو جماعة أو رابطة أو اتّحاد أو جمعيّة أو تجمّع للرجال أو النّساء أو عصبة يمكن تخيُّلها ومسالك تقديم الخدمات بالية لطول ما مضت عليها الأقدام، والدّروب زلقة من تتابع غارات أعضاء عصابة على منطقة تابعة لعصابة أخرى يعتقد أنّ بها ما يثير الاهتمام أو الفضول، وثمّة مواد ملتمعة تصدر أصواتاً تشبه الفرقعة وتعلوها آثار تشبه النّدوب، حيث يمكنك نزع الفلّينة، ورفع فم الزّجاجة البارد إلى فمك، حيث يمكنك أن تجد الخطر أو تشكّله، حيث يمكنك القتال إلى أن تسقط وأن تبتسم لمرأى المدية عندما تخطئ وحينما تصيب، ويساورك شعور مدهش لمجرّد رؤيتها، ويراودك الشّعور نفسه لمعرفتك بأنّه في المبنى الّذي تقطنه تضع الزّوجات قوائم للزوج الّذي يمضي باحثاً عن سوق لم توصد أبوابه، وأنّ هناك أوراقاً من المستحيل أن تصمد فيما السّماء تهمي ثلجاً يتدلى حول المطبخ كالسّتائر في مسرحيات مدارس الأحد الحبشيّة.

الصّغار ليسوا صغاراً للغارة هنا، وليس هناك ما يوصف بمنتصف العمر. وستون عاماً، بل وحتّى أربعون عاماً، هي أقصى ما يكترث أي شخص بأن يحياه، وإذا ما وصلوا إلى ذلك الحدّ، أو طعنوا في

twitter @baghdad_library

السنّ، فإنّهم يجلسون وهم يتابعون ما يجري حولهم كما لو كان عرضاً ثلاثيّاً للأفلام لا يدفعون لقاء مشاهدته أكثر من خمسة سنتات في يوم من أيّام السّبت، وإلاّ فإنّهم يجدون أنفسهم يتدخلون في شؤون أُناس لا يستطيعون حتّى تذكر أسمائهم، ولا شأن لهم بها. ويقتصر الأمر على سماع أنفسهم وهم يتحدثون ويستمتعون بمشاهدة البؤس يرتسم على وجوه من يصغون إليهم. وقد عرفت استثناءات محدودة. بعض كبار السنّ ممن لا يصفعون أطفالاً جديرين بالصّفع، ويوفّرون على أنفسهم طاقة القيام بذلك تحسباً للاحتياج إليها في شيء مهمّ. غزل أخير حافل بالابتسامات والهدايا الصّغيرة. أو العناية المتفانية الّتي يحظى بها صديق قديم قد لا يجتاز المحنة دون رعايتهم، وفي بعض الأحيان يركزون على التّيقن من أنَّ الشّخص الّذي قاسموه عمرهم الممتدّ يحظى بالصّحبة المرحة وبالأمور الضّروريّة لليلته.

ولكن هنالك في لينوكس أفنيو، في شقّة فيوليت وجو تريسي، تبدو الغرف مثل أقفاص الطّيور الملفوفة بالقماش، وقد غدا وجه الفتاة الميتة شيئاً ضرورياً للياليهما، وهما يتناوبان إزاحة أغطية الفراش، والنّهوض من الحشية المتهدلة، والمُضِيّ على أطراف الأصابع على مشمع الأرضيّة البارد إلى غرفة الاستقبال للتحديق فيما يبدو أنّه الحضور الحي الوحيد في الدّار: صورة فتاة جريئة، لا ترتسم الابتسامة على شفيتها، تحدّق من فوق رفّ المائدة. وإذا كان من يمضي على أطراف أصابعه هو جو تريسي، وقد أبعدته الوحدة عن مرقده بجوار زوجته، فإنّ الوجه يحدّق فيه دونما أمل أو ندم، وغياب الاتّهام هو الّذي يوقظه من نومه، فينطلق وقد استبدّ به الجوع

لصحبتها. ما من أصبع اتّهام يرفع، ولا تنقلب شفتاها سخطاً وإدانة. محياها هادئ، ومتسامح، وعذب. ولكن لو أنّ المنسلّ خلسة كان فيوليت، فإنّ الصّورة لا تغدو كذلك على الإطلاق. ويبدو محيا الفتاة شَرِهاً ومتعجرفاً وبالغ الكسل، يلوح وجهاً حليبيّاً لشخص لن يعمل من أجل أي شيء، شخص يلتقط الأشياء الموضوعة على رفوف زينة الآخرين، ولا يساوره الشّعور بالحرج عندما يضبط متلبّساً، وجه متسلّل يمضي خلسة إلى حوض غسيلك ليصبّ الماء على الشّوكة الّتي وضعتها إلى جوار صحنه، وجه منكفئ على ذاته وأياً كان ما يراه فهو لا يبصر إلاَّ نفسه، وجه يقول إنّك هناك لأنّني أنظر إليك.

يتلفّظ أحدهما مرتين أو ثلاث مرّات باسمها خلال اللّيل، فيما هما يتناوبان الذّهاب لإلقاء نظرة على الصّورة. دوركاس؟ دوركاس! يتكاثف ظلام الغرف المعتمة، وتمسّ الحاجة في قاعة الاستقبال لإشعال عود ثقاب لرؤية الوجه، وفيما وراء ذلك هناك غرفة المائدة، وغرفتا نوم والمطبخ، وكلّها تقع في منتصف المبنى، بحيث أنّ نوافذ الشّقّة لا يصلها سنا القمر ولا ضوء مصباح الشّارع. ويحظى الحمّام بأفضل إضاءة إذ يبرز وراء المطبخ فتترامى إليه أشعة الأصيل. وقد رتّب فيوليت وجو قطع أثاثهما على نحو لا يُذَكِّر أحداً بغرف متجر «صانع البيت العصري»، ولكنّها طريقة تناسب عادات الجسم، والنّحو الّذي يمضي به الشّخص من غرفة إلى أخرى دون أن يرتطم بأي شيء، وما يرغب في القيام به لدى جلوسه. أتعرف كيف يضع بعض النّاس مقعداً أو مائدة في ركن فيبدو جميلاً، ولكن ما من أحد في الدّنيا سيُقدَّر له أن يلقي له بالاً، دع جانباً أن يستخدمه؟ لم تكن

twitter @baghdad_library

فيوليت لتفعل ذلك في دارها، فكلّ شيء موضوع حيث يكون في وُسْعِ المرء أن يستخدمه أو أن يحتاج إليه، وهكذا فإن غرفة المائدة ليست بها مائدة ذات مقاعد تشبه مقاعد القاعات الجنائزيّة، وإنّما بها مقاعد كبيرة خفيضة ومائدةللعب الورق بجوار النّافذة مكسوّة باليشب وتعلوها نبتة التّين والنّباتات الطّبيّة، وهما يستخدمانها عندما يريدان لعب الورق. والمطبخ من الاتّساع بحيث يتّسع لأربعة أشخاص يتناولون طعامهم فيه، أو يتيح مجالاً رحباً للزبونات وفيوليت ترجل لهنّ شعرهن. والغرفة الأماميّة، أو قاعة الاستقبال، ليستمساحة مهدرة كذلك، ولا تظلّ في انتظار حفل زفاف جدير بها، وبها أقفاص للطيور ومرايا للتتطلع الطّيور إلى نفسها في صقالها. ولكن الآن، بالطّبع، ليست هناك طيور، إذ أطلقت فيوليت سراحها في اليوم الّذي مضت فيه إلى جنازة دوركاس حاملة مدية معها. وكلّ ما هنالك الآن أقفاص خاوية ارتسمت صورها على صقال المرايا الّتي تواجهها. وأمّا الباقي، فمؤلّف من أريكة وبعض المقاعد الخشبيّة ذات النّقوش، مع مناضد صغيرة بجانبها، بحيث يمكنك وضع فنجان قهوتك أو طبقاً من الآيس كريم أمامك، أو إذا أردت قراءة الجريدة فيمكنك القيام بذلك دون إفساد ثنياتها. وكانت على رفّ المائدة عادة قواقع وأحجار جميلة ملونة، ولكنّ ذلك كلّه لم يعد له وجود، وليست هناك إلاّ صورة دوركاس مانفريد قابعة هناك في إطار فضّي توقظهما طوال اللّيل.

جعلتهما هذه اللّيالي المفعمة بالأرق يستيقظان متأخّرين، وكان على فيوليت أن تعجّل بإعداد وجبة قبل الاستعداد لعملها في التّزيين.

ولمّا كانت تحظى بالموهبة اللّازمة لهذا العمل ولكن دون أن تتلقّى تدريباً تحت إشراف اختصاصي، ومن ثمّ لم يكن لديها تصريح للقيام به، فلم يكن بمقدورها أن تتقاضى إلاَّ خمسة وعشرين سنتاً أو خمسين سنتاً عن التّسريحة الواحدة، ولكن منذ ذلك الأمر الّذي وقع في جنازة دوركاس، فقد وجدت الكثيرات من زبوناتها الدّائمات التردّد عليها الأسباب الّتي تدعوهنّ للعناية بشعرهنّ بأنفسهن، أو لجعل بناتهنّ يعددن مكواة تنعيم الشّعر لهن. ولم يعتد فيوليت وجو تريسي الشّعور بالحاجة إلى ذلك الدّخل الثّانوي من العمل بالتّزيين، أمّا الآن وفيما جو تفوته أيّام عمل بكاملها فإن فيوليت تحمل أدواتها وتمضي ببراعتها في جولات أكثر امتداداً في شقق مبالغ في تدفئتها تقطنها نسوة يستيقظن في الأصائل ويسكبن الجنّ في شايهنّ ولا يكترثن بما أتته فيوليت، وهؤلاء النّسوة يحتجن على الدّوام إلى تزيين شعرهنّ، وفي بعض الأحيان يكحلن عيونهنّ المتألقة وينفحنها دولاراً كاملاً.

تقول إحداهنّ:

- عليك أن تغذّي نفسك. ألا ترغبين في أن تكوني أكبر من مكواة شعرك؟

وتقول فيوليت:

- الزمي الصّمت!

تقول المرأة، والنّعاس مازال عالقاً بها، وهي تريح خدها على يدها اليسرى، بينما تمسك أذنها بيمناها:

- إنّني أعني ما قلته، فالرّجال يستنفدونك ولا يتركون منك إلاَّ قطعة غضروف حادّة إذا تهاونت معهم.

twitter @baghdad_library

تردّ فيوليت:

ـ النّساء، النّساء هنّ اللاّتي يستنفدنني. ولم يُقدَّر لرجل قطّ استنفادي وتحويلي إلى أي شيء، وإنّما من قام بذلك هنّ أولئك الفتيات الصّغيرات الجائعات اللاّتي يتصرفن كالنّساء. ولا يقنعن بِفِتْيانٍ في مثل عمرهن، لا، فهنّ يرغبن في من هم في أعمار آبائهنّ، وينطلقن بأحمر الشّفاه والجوارب الشّفافة، والفساتين المرتفعة حتّى. تعرفين ما أقصد من أجسامهنّ.

ـ تلك أذني يا فتاة! هل ستقومين بكيّها أيضاً؟!

ـ آسفة، إنّني آسفة، حقاً، آسفة حقاً.

تقولها فيوليت، وتتوقّف لتتمخّط، ولتزيح دموعها بظاهر كفّها.

تتنهد المرأة، وتنتهز فرصة التوقّف لتشعل سيجارة:

ـ آه، يا للشيطان! أراهن أنّك ستحكين لي الآن حكاية قديمة مقيتة، عن أنّ فتاة شابّة قد حامت حولك، وأنّه لا يقع عليه اللّوم لأنّه كان يمضي في الطّريق ملتزماً بشأنه عندما وثب هذا الفرج الصّغير على ظهره وجرّه إلى الفراش جرّاً. وفّري على نفسك أنفاسك، فسوف تحتاجينها في فراش موتك.

ـ إنّني بحاجة إلى أنفاسي الآن.

تقولها فيوليت، وهي تختبر المكواة السّاخنة، فتحرق ورق الجريدة مخلّفة أثراً طوليّاً بنّياً.

ـ هل غادر الدّار؟ هل هو معها؟

ـ لا، مازلنا معاً. وهي قد ماتت.

ـ ماتت؟ فما هي مشكلتك إذن؟

ـ إنّه يفكّر فيها طوال الوقت. ولا شيء يخطر بباله سواها. والأمور لا تمضي قدماً، فهو لا يستطيع النّوم، والحزن يخيّم عليه طوال النّهار واللّيل.

ـ آه.

تقولها المرأة، تنفض رماد سيجارتها، وتسحق طرفها، وتضع العقب بعناية في المنفضة. تميل إلى الوراء في المقعد، تضغط حافة أذنها بأصبعيها، وتقول متثائبة:

ـ إنّك تواجهين المتاعب، بل أنت غارقة فيها، فلا سبيل إلى مناقشة الموتى في الحبّ، ولسوف تخسرين في كلّ مرّة.

تقرّ فيوليت بأنّ الأمر لابدّ أن يكون كذلك، فهي لا تخسر «جو» لصالح الفتاة الميتة فقط، ولكنّها تتساءل عمّا إذا لم تكن واقعة في حبّها بدورها كذلك. وهي عندما لا تحاول إذلال «جو» فإنّها تعجب بشعر الفتاة الرّاحلة، وحينما لا تلعن «جو» بلعنات ذات كلمات جديدة كلّ الجدّة فإنّها تتبادل حوارات هامسة في ذهنها مع الجثّة، وعندما لا يستبدّ بها القلق حول فقدانه للشهية وأرقه، فإنّها تتساءل عن لون عيني دوركاس، وقد قالت عمتها إنّهما بنيتان، بينما قالت العاملات في صالون التّجميل إنّهما سوداوان ولكنّ فيوليت لم يسبق أن رأت قطّ من قبل شخصاً فاتح البشرة له عينان فاحمتا السّواد. وهناك أمر واحد مؤكّد هو أنّ أطراف شعرها كانت بحاجة إلى القصّ، ففي الصّورة، وممّا يمكن أن تتذكّره فيوليت من مشهد التّابوت كانت الفتاة بحاجة إلى قصّ أطراف شعرها. فالشّعر الّذي يمتدّ إلى هذا الطّول تتقصّف أطرافه بسهولة. ومن شأن تشذيب ربع بوصة أن يفعل الأعاجيب يا دوركاس! دوركاس!

twitter @baghdad_library

تغادر فيوليت منزل المرأة النّاعسة. ومن جديد يتجمّد الثّلج نصف الذّائب عند الإفريز، وعلى الرّغم من أنّ أمامها مسافة سبعة كتل من المباني المتجمدة، إلاَّ أنّها تشعر بالامتنان لكون تلك الزّبونة الّتي ستقبل إلى مطبخها في إطار موعد سابق لن تصل إلاَّ في السّاعة الثّالثة عصراً، وهناك وقت للقيام بإنجاز قليل من شؤون الدّار قبل حلول ذلك الموعد، وثمّة أمر لابدّ من أدائه لأنّه من المستحيل ألا يكون هناك ما يمكن القيام به، ألا يكون هناك مسلسل من المهام، وقائمة بالأمور المطلوب إنجازها، ولربّما تلوح بيديها في الهواء، أو تأخذ في الارتجاف إذا لم يكن بمقدورها أن تدفع يدها لإنجاز مهمّة بينما تنتظرها مهمّة أخرى، تشعل نار الفرن لتدفئة المطبخ، وبينما تنثر الماء على ياقة قميص أبيض يشرد ذهنها إلى أسفل السّرير حيث القائمة الّتي انكسرت وابتعدت عن الإطار الخشبي أصبحت أكثر ابتعاداً عنه من أن تفلح محاولة إعادتها إليه عن طريق المسامير. وعندما تجيء الزّبونة وتعكف فيوليت على غسل الشّعر الرّمادي النّاحل مغمغمة «آه، يا رحمتاه» في فترات انقطاع مناسبة في دفق الأسرار الّذي تفضي به السّيدة العجوز، تعيد فيوليت في ذهنها السّلك الّذي يثبت باب الفرن في مفصّلاته إلى موضعه، وتجري بروفة على مناشدة هذا الشّهر الّتي ستتقدّم بها إلى محصل الإيجار لإمهالها ثلاثة أيّام أخرى. وهي تعتقد أنّها تحنّ إلى الرّاحة، إلى أصيل خالٍ من الهموم والمسؤوليات، لتقرر فجأة الذّهاب إلى موضع الصّور أو الجلوس إلى جوار أقفاص الطّيور والإصغاء إلى الأطفال وهم يلهون على الجليد.

وفكرة الرّاحة هذه جذّابة بالنّسبة لها، لكنّني لا أحسب أنّها

ستروق لها، فالنّسوة على هذه الشّاكلة، ينتظرن خلوّ البال والفراغ الّذي لا ينبغي شغله بأي شيء إلاَّ انديا‌ح أفكارهنّ، ولكنهنّ لا يحببن ذلك، وهنّ مشغولات وعاكفات على التّفكير في طرق لجعل أنفسهنّ أكثر انشغالاً؛ لأنّ هذا الفراغ الّذي لا يضمّ شيئاً يتعيّن بصورة ملحّة إنجازه من شأنه أن يقضي عليهنّ، ما من حقول مليئة بنباتات زهر الرّبيع العطريّ سوف تندفع إلى تلك الثّغرة، ولن تنطلق إليها الصّباحات الخالية من الذّباب والحرّ عندما يكون النّور لا يزال مُقْبِلاً على استحياء. لا، على الإطلاق. إنهنّ يملأن ذهنهنّ وأيديهنّ بالصّابون وبالإصلاح وبالمواجهات الّتي لا طائل من ورائها لأنّ ما ينتظرهنّ، في لحظة مفاجئة يهيمن عليها الكسل، هو نزّ الحنق، حمم مصهورة، غليظة وبطيئة الانديا‌ح، متقصدة ومحدّدة فيما يتعلق بما ستختاره في طريقها لتدفنه، وإلاَّ فعلى إيقاع الزّمن وعلى الحواف الجانبيّة السّفلى لنهودهنّ ينزلق حزن لا يدرين له مصدراً تعيد جارة ملفّ الخيط الّذي اقترضته، ولا تعيد الخيط وحده، وإنّما كذلك الإبرة الفائقة الطّول، وتقفان معاً عند مدخل الدّار لحظة، بينما تكرّر المستعيرة لمن أعارتها حواراً طريفاً تجاذبت أطرافه مع المرأة الّتي تقطن الطّابق الواقع أسفلهما، إنّه حوار طريف، وتضحكان، إحداهما بصوت عال بينما تضغط على جبينها، والأخرى تنخرط في الضّحك إلى حدّ أنّ تؤلمها معدتها. وتغلق الجارة المعيرة الباب، وبعد لحظة، وبينما هي ماتزال تضحك تلمس بالرّقعة الّتي تحمل صنف صدارها عينها لتجفّف آثار الضّحك ثمّ تسقط على ذراع الأريكة الدّموع الّتي تتقاطر سراعاً حتّى لتحتاج إلى يدين لملاحقتها.

twitter @baghdad_library

هكذا تنثر فيوليت رذاذ الماء على الياقات والأكمام، ثمّ تغسل بمزيد من الحماس تلك الأوقيات الثّلاث أو الأربع من الشّعر الرّمادي اللّين البديع الملمس كشعر طفل صغير.

ليست نوعية شعر الطّفل الّذي كانت جدّتها تغسله بالصّابون وتداعبه وتتذكّره على امتداد أربعين عاماً، شعر الطّفل الّذي استمدّ اسمه منه، وربّما هذا هو السّبب في أن فيوليت تعمل مصفّفة للشعر ـ كلّ هاتيك السّنوات من الإصغاء إلى جدّتها المنقذة، ترو بيلي، وهي تحكي قصصاً من وحي بلتيمور، السّنوات الّتي أقامتها الآنسة فيرا لويز في منزل حجريّ بديع في شارع إديسون، حيث يطرّز الكتّان بالخيط الأزرق، وليس هناك ما يمكن القيام به إلاّ رفع الصّبي الأشقر الّذي ينطلق بعيداً ويحرم الجميع من شعره الّذي يحيطه الحبّ والرّعاية ـ رفعه عالياً وإبداء الإعجاب به.

استبدَّ الغضب بالنّاس عندما اقتحمت فيوليت الجنازة، ولكنّني لا أستطيع تصديق أنّهم قد دهشوا، فقبل ذلك بوقت بعيد، بعيد، وقبل أن تقع عينا «جو» على الفتاة، جلست فيوليت في منتصف الشّارع، لم تتعثّر، ولم يدفعها أحد، وإنّما جلست فحسب، وبعد عدّة دقائق أقبل عليها رجلان وامرأة، ولكنّها لم تستطع تبيّن السرّ في ذلك ولا ما قالوه لها، حاول أحدهم إعطاءها بعض الماء لتشربه، ولكنّها ألقته بعيداً. انحنى رجل شرطة أمامها، فتدحرجت على جانبها مغطية عينيها، وكان يمكن أن يلقى القبض عليها، لولا الجمهور الّذي راح يغمغم: «آه، إنّها متعبة، دعها تسترح!» مضوا بها إلى أقرب درج، وعلى مهل استجمعت شتات نفسها، ونفضت الغبار عن

ملابسها، ومضت إلى موعدها متأخّرة ساعة كاملة، الأمر الّذي أدخل السّرور على نفوس العاهرات المتثاقلات اللاّتي لا يتعجلن أي شيء إلاَّ مطارحة الهوى.

لم يحدث الأمر مرّة أخرى بحسب علمي ـ أي الجلوس في الشّارع ـ ولكنّها بقدر ما تعيه الذّاكرة حاولت بالفعل سرقة ذلك الطّفل، على الرّغم من أنّه ليس هناك سبيل لإثبات ذلك. أمّا ما هو معروف فيتمثّل فيما يلي: لم تكن المرأتان من عائلة دمفري ـ الأمّ والابنة ـ في الدّار عندما وصلت فيوليت، فربّما اختلط عليهما أمر الموعد أو قرّرتا الذّهاب إلى صالون تجميل مرخَّص لمجرّد القيام بالغسيل باستخدام الشّامبو، لأنّه ما من سبيل للقيام بعمليّة الغسيل الّتي تتخلل إلى منابت الشّعر تلك في مغسلة الحمّام. والعاملات بصالونات التّجميل يحرزن قصب السّبق عندما يتعلق الأمر بهذا الجانب، إذ يتعين عليك الميل إلى الوراء بدلاً من الأمام، ولست بمضطرّ إلى أن تضغط منشفة على عينيك لإبعاد الماء الممزوج بالصّابون، لأنّه في صالون التّجميل الجدير بالاسم ينزلق الماء من رأسك إلى حوض المغسلة. وهكذا فإنّه حتّى إذا لم تكن العاملة في صالون التّجميل المرخّص بارعة مثل فيوليت، فإنّ الزّبونة المنتظمة قد تتسلّل إلى الصّالون لمجرّد أن تحظى بغسيل مريح للشّعر باستخدام الشّامبو.

كان تصفيف شعر امرأتين في دار واحدة بمثابة ضربة حظ، وتطلّعت فيوليت إلى الموعد الّذي حدّدت له السّاعة الحادية عشرة، وعندما لم يردّ أحد على قرع الجرس، انتظرت، معتقدة أنّهما ربّما تأخرتا في السّوق. وجرّبت قرع الجرس مرّة أخرى، بعد انقضاء

twitter @baghdad_library

بعض الوقت، ثمّ انحنت على الدّرابزين لتسأل امرأة كانت تغادر المبنى المجاور عمّا إذا كانت تعرف أين ذهبت نساء عائلة دمفري. هزّت المرأة رأسها نفياً، لكنّها أقبلت لتساعد فيوليت في إلقاء نظرة عبر النّوافذ، والتّساؤل عمّا جرى.

قالت المرأة:

ـ إنّهما تبقيان ستائر النّوافذ مفتوحة عند تكونان في الدّار وتسدلانها عندما تخرجان، بينما ينبغي أن يكون الأمر على العكس من ذلك تماماً.

قالت فيوليت:

ـ لعلّهما تريدان النّظر إلى خارج الدّار عندما تكونان فيها.

تساءلت المرأة وقد استبدّ بها الغضب في التوّ:

ـ إلام تنظران؟

قالت فيوليت:

ـ ضوء النّهار، والسّماح بنفاذه إلى داخل الدّار.

ـ ينبغي أن تعودا إلى ممفيس، إذن، إذا كان ضوء النّهار هو ما تبغيانه.

ـ ممفيس؟ حسبت أنّ مسقط رأسهما هنا.

ـ هذا ما تودان أن تعتقديه. ولكنّ الأمر ليس كذلك، ولا حتّى ممفيس، كوتاون، مكان لم يسمع به أحد.

ـ اللّعنة!

قالتها فيوليت، وقد استبدّت بها الدّهشة؛ لأنّ المرأتين من عائلة دمفري كانتا رشيقتين، وسيدتين متمدينتين، امتلك أبوهما متجراً في

الشّارع المائة والسّادس والثّلاثين، وشغلتا عملين كتابيين لطيفين، إذ كانت إحداهما تتسلم التّذاكر في اللّافاييت والأخرى تعمل في مكتب المحاسبة.

واصلت المرأة حديثها:

ـ إنّهما لا تحبّان أن يعرف أحد بالأمر.

تساءلت فيوليت:

ـ لماذا؟

ـ تشبّهاً بالبيض، ذلك هو السّبب، ومصدره التّعامل بالمال طوال اليوم. هل لاحظت ذلك؟ هل لاحظت أنّ من يتعاملون بالمال في عملهم يقعون في قبضته؟ وكأنّه مالهم وليس مالك؟

قالتها المرأة وألصقت وجهها بالنّوافذ المسدلة عليها السّتائر، وأضافت:

ـ ضوء النّهار، يا عيني!

ـ إنّني أصفّف شعريهما مرتين في الشّهر في يومي ثلاثاء. واليوم هو الثّلاثاء. أليس كذلك ؟

ـ أمامك النّهار بكامله.

ـ ترى أين ذهبتا إذن؟

دسَّت المرأة يدها تحت تنورتها لتعيد تثبيت أعلى جوربها، وقالت:

ـ إلى مكان ما تحاولان أن تظهرا فيه بمظهر من لم يأتِ من كوتاون.

twitter @baghdad_library

تساءلت فيوليت، وقد تأثّرت بقدرة المرأة على تثبيت جوربها بيد واحدة:

ـ من أين أنت؟

ـ كوتاون. عرفتهما منذ زمن بعيد. وجئنا إلى هنا، فإذا العائلة بأسرها تتصرف وكأنّ أعينها لم تقع عليّ من قبل قطّ، وهذا يجيء من التّعامل بالنّقود لا بالمكنسة الّتي يتعين عليّ الإمساك بها وإلاّ فقدتُ هذا العمل الّذي لا وزن له. آه، يا يسوع!».

ندت عنها تنهيدة عميقة وتابعت:

ـ أتركي لهما كلمة موجزة. لم لا تفعلين ذلك؟ لا تعتمدي عليّ في إبلاغهما بمجيئك إلى هنا؟ فنحن لا نتبادل الحديث إلاّ اضطراراً.

زرّرت معطفها، ثمّ لوّحت لفيوليت بما يعني الدّعوة إلى أن تتصرف حسبما يناسبها عندما قالت لها أنّها ستنتظر لفترة قصيرة أخرى.

جلست فيوليت على الدّرج العريض، وأراحت حقيبتها الّتي تضمّ أدوات تصفيف الشّعر والزّيت والشّامبو في الفراغ بين ربلتي ساقيها.

عندما كان الطّفل الصّغير بين ذراعيها، رفعت بطانية لتستقرّ حول خديه، تحسّباً لخطر الرّيح البالغة البرودة بالنّسبة لمحياه العذب كالشّهد الّذي يبدو في لون الزّبد. دفعتها النّظرة المحايدة المرتسمة في عينيه النّجلاوين إلى الابتسام. واستقرّ شعور بالارتياح في أحشائها، وارتحل نوع من النّور الباطني المنطلق، الهارب في عروقها.

حدّثت نفسها قائلة: لسوف يحبّ «جو» هذا. سيحبّه. واندفع

ذهنها، كأنّما في سباق محموم إلى غرفة نومهما وما فيها ممّا يمكنها استخدامه كمهد إلى أن تحصل على مهد حقيقي. كان هناك صابون من النوّع اللّطيف الملمس في صندوق العينات، وهكذا يمكنها أن تحمّمه في المطبخ توّاً. تحمّمه؟ أهو ذكر أم أنثى؟ رفعت رأسها، وضحكت، بالانفعال المتراكم في انتظار ذهابها إلى الدّار لتعرف الردّ. كانت الضّحكة ـ المسترسلة والمدوية ـ هي الّتي أكّدت السّرقة بالنّسبة للبعض وزعزعت أساسها بالنّسبة للبعض الآخر. ترى هل تقوم سارقة متسلّلة في غمرة سرقتها لطفل بجذب الانتباه إلى نفسها على ذلك النّحو عند منعطف لا يبعد مائة متر عن العربة الخيزرانيّة الّتي أخذته منها؟ هل تقوم امرأة بريئة طيبة القلب بالتجوّل بطفل صغير طلب منها أن تقوم برعايته بينما انطلقت أخته الكبرى عَدْواً إلى داخل الدّار وتضحك على ذلك النّحو؟

مضت الأخت تصرخ أمام الدّار، مجتذبة أنظار الجيران والمارّة إليها، وهي تحدّق في الممرّ الجانبي من أقصاه إلى أدناه، صارخة: «فيلي! اختفى فيلي! اختطفت فيلي!» أبقت يديها على حاجز دفع عربة الصّغير الخفيفة، دونما إرادة للاندفاع في أي اتجاه تقع عليه عيناها، كما لو أنّها إذا ما تركت العربة الخاوية إلاَّ من الأسطوانة الّتي ألقت بها فيها ـ الأسطوانة الّتي عادت إلى الدّار مسرعة من أجلها، والّتي استقرّت الآن على الوسادة حيث كان أخوها الصّغير ـ فإنّ هذه الأسطوانة بدورها ستختفي.

سألها أحدهم:

ـ من تكون؟ من الّتي أخذته؟

twitter @baghdad_library

ـ امرأة! مضيت لحظة واحدة، بل أقل من لحظة. طلبت منها. قلت. وقالت لابأس. !

ـ تركت طفلاً حياً بكامله مع امرأة غريبة لتجلبي أسطوانة؟

دفع الاشمئزاز البادي في صوت الرّجل بالدّمع إلى مقلتي الفتاة، أضاف:

ـ آمل أن تمزّقك أمّك إرْباً.

تقافزت الآراء والقرارات وسط الجمع كأنّها أعواد ثقاب تشتعل.

ـ ليس لديها من الإحساس ما لدى بعوضة.

ـ من الّذي أساء تربيتها على هذا النّحو؟

ـ استدعوا الشّرطة!

ـ وما عساها تصنع؟

ـ بمقدورها البحث على الأقلّ.

ـ هلا نظرتم إلى ما تركت ذلك الطّفل من أجله!

ـ ما عساه يكون؟

ـ اسطوانة ألحان التّرومبون الحزين.

ـ ارحموها!

ـ لسوف تعرف من الحزن أكثر ممّا يند عن أي ترومبون عندما تعود أمّها إلى الدار.

كانت حلقة الجمع المحدود، الّتي تفاقم غضبها على الأخت الحمقاء المتجرّدة من الشّعور بالمسؤولية، وعلى الشّرطة، وعلى الأسطوانة الملقاة حيث كان ينبغي أن يكون طفل، قد أوشكت على نسيان المرأة الخاطفة، عندما قال رجل يقف عند المهد:

ـ أتلك هي المرأة؟

قالها، مشيراً باتّجاه فيوليت، الواقفة عند المنعطف. وتصادف أنّه عندما التفت الجميع إلى الاتّجاه الّذي يشير إليه أصبعه، استخفّ بفيوليت السّرور النّابع من الاكتشاف الّذي سرعان ما ستحقّقه، فدفعت برأسها إلى الخلف وضحكت عالياً.

كمن برهان براءتها في حقيبة أدوات العناية بالشّعر الّتي ظلّت عند الدّرج حيث كانت صاحبتها تنتظر.

ـ أتراني كنت سأترك حقيبتي وبها أدوات كسب عيشي لو أنّني كنت خاطفة طفلكم؟ أتحسبونني مجنونة؟

نظرت شزراً، وقد اشتعلت غضباً، وحدّقت في الأخت، قائلة:

ـ في حقيقة الأمر كان حرياً بي أخذ كلّ شيء، والعربة كذلك، لو كان ذلك هو ما أردت القيام به.

بدا ما تقوله حقيقيّاً ومحتملاً لمعظم الجمهور، وخاصّة من قالوا بأنّ الخطأ يقع على كاهل الأخت. كانت المرأة قد تركت حقيبتها، وكلّ ما كانت تقوم به هو التجوّل في المكان بالطّفل، بينما أخته الكبرى ـ الّتي كانت من الرّعونة بحيث لا تستطيع الاعتناء بطفل على أيّة حال ـ تنطلق مسرعة إلى دارها لتجلب أسطوانة لصديقة لها. فمنذا الّذي يعرف ما يدور في ذهن فتاة أكثر بلادة من أن تعتني بطفل في غفوته؟

وبدا الأمر غير محتمل ومريباً للغاية بالنّسبة لأقليّة من الجمهور. لماذا تسير كلّ هذه المسافة إذا كان الأمر قاصراً على ملاعبة الطّفل وهدهدته؟ لماذا لا تذرع ما أمام الدّار كالمألوف؟ وأي نوع من

twitter @baghdad_library

الضّحك كانت تلك الضّحكة التي ندت عنها؟ أي نوع؟ إذا كانت تضحك على ذلك النّحو فإنّها ليس بمقدورها أن تنسى حقيبتها وحدها وإنّما العالم بأسره.

أخذت الأخت، الّتي انهال عليها اللّوم، الطّفل والعربة وأسطوانة «أنغام التّرومبون الحزينة» وعادت أدراجها إلى الدّار صعوداً على الدّرج.

انتزعت فيوليت، وقد استبدّ بها الشّعور بالفوز والغضب، حقيبتها، قائلة: «هذه هي المرّة الأخيرة الّتي أسدي فيها معروفاً لأحد في هذا الحي، ارعوا أطفالكم الملاعين بأنفسكم!». وقد نظرت إلى الأمر على ذلك النّحو بعد ذلك، وتذكّرت الحادثة باعتبارها إساءة لشخصيتها، وغاب عن ذهنها المهد المؤقّت والصّابون اللّطيف الملمس. غير أنّ ذكرى الضّياء الّذي تدفّق من عروقها عاودتها بين الحين والآخر وفي مرّات نادرة، في الأيام المدلهمة الأفق، عندما تقاوم أركان بعينها في الغرفة ضوء المصباح، عندما كانت الفاصوليا الحمراء تستغرق وقتاً طويلاً لكي تنضج، كانت تتخيّل ضياء يمكن أن يسري في ذراعيها، ويتوزّع، إذا مسّت الحاجة إلى ذلك، إلى أماكن في ظلمة قرارة جبّ.

لم يُقَدَّر لِـ «جو» قطّ أن يعرف بجنون فيوليت الّذي بدا للعيان، وتبادل ستوك وجيستان وغيرهما من الأصدقاء الرّجال الحديث عن هذه الحوادث، ولكنّهم لم يستطيعوا إجبار أنفسهم على إبلاغه بأكثر من قولهم: «كيف حال فيوليت؟ أهي على ما يرام؟». غير أنّ حالات المسّ الّتي كانت تصيبها في الدّار كانت معروفة له.

إنّني أدعوها حالات مسّ لأنّ ذلك هو ما كانت عليه. لم تكن انفتاحات ولا انكسارات وإنّما تشقّقات من سنا النّهار الدّائري، فهي تستيقظ في الصّباح وترى بوضوح تامّ سلسلة من المشاهد الصّغيرة الحسنة الإضاءة. وفي كلّ مشهد يتمّ القيام بشيء محدّد، أشياء تتعلق بإعداد الطّعام، أشياء خاصّة بالعمل، زبونات ومعارف تتمّ مقابلتهم، وأماكن يتمّ دخولها. ولكنّها لا ترى نفسها وهي تقوم بهذه الأعمال، وإنّما يقام بها، يلفّ الضّياء الدّائري كلّ مشهد ويغمره، ويمكن افتراض أنّه عند المنحنى الّذي يقف عنده الضّوء يوجد أساس مكين. وفي حقيقة الأمر أنّه ليس هناك أساس على الإطلاق، وإنّما أزقّة وصدوع يمضي المرء عبرها طوال الوقت. ولكنّ الضّوء الدّائري غير مكتمل بدوره، وإذا ما تمّ فحصه عن قرب فإنّه تبدو فيه تشقّقات، صدوع لم يتمّ لحمها جيداً، أماكن ضعيفة، يمكن أن يكون وراءها أي شيء، أيّ شيء على الإطلاق. وفي بعض الأحيان حينما لا تنتبه فيوليت، فإنّها تتعثّر في هذه الصّدوع، مثلما حدث في تلك المرّة الّتي بدلاً من أن تدفع فيها بكعبها إلى الأمام خطت إلى الخلف وثنت ساقيها لتجلس في الشّارع.

لم تكن على هذا النّحو عادة، وإنّما كانت فتاة مفعمة بالحيويّة، قويّة الإرادة، وامرأة جادة في عملها، تحظى باللّسان الذّرب المنغمس في القيل والقال الّذي يميّز العاملات في صالونات التّجميل. وقد أحبّت أن تشقّ الطّريق الّذي اختارته لنفسها ونجحت في هذا. وقد اختارت «جو» ورفضت العودة إلى دارها بمجرّد أن رأته يطلّ عليها في الصّباح الباكر. وشقّت طريقهما دفعاً بالمناكب ليخرجا من حي تندرلوين إلى شقّة رحبة بعيدة عن قلب المدينة كان

twitter @baghdad_library

مالكها قد وعد بها عائلة أخرى، إذ دأبت على الجلوس خارج بيت المالك وملازمة مدخله. واستقطبت الزّبونات بالمُضِيّ إليهن ووصف خدماتها(«بمقدوري الاعتناء بشعرك بشكل أفضل ومقابل أجر أقلّ، وتصفيفه عندما تريدين وحيثما تشائين»). ودفعت من خلال الجدال الجزارين والباعة المتجوِّلين إلى إعطائها أفضل ما لديهم وفوق المألوف («ضع تلك القطعة الصّغيرة، إنّك تزن السّوق بينما الذي أشتريه ليس إلاَّ الأوراق»). وقبل أن يقف «جو» في الحانوت وهو يرقب طفلة تشتري الحلوى بوقت طويل، كانت فيوليت قد تعثّرت في صدع أو اثنين، واستشعرت ذلك اللاّشيء على الإطلاق في فمها، وشقّت كلمات لا ترتبط إلاَّ بذاتها طريقها إلى تعقيب كان لولا ذلك قولاً عادياً:

ـ لا أعتقد أنّ رقم ثمانية قد ظهر هذا الشّهر.

تقولها، وذهنها منصرف إلى مجموعات الأرقام اليوميّة، وتضيف:

ـ ولا ثمانية واحدة، من المحتم أنّها ستظهر عمّا قريب، وهكذا فإنّني أعلق رقم ثمانية على كلّ شيء.

يقول «جو»:

ـ ليست تلك طريقة للعب، احصلي على مجموعة والتزمي بها!

ـ لا، حان الوقت، إنّني أعرف ذلك، كانت في كلّ مكان خلال شهر أغسطس، بل في الحقيقة طوال فصل الصّيف، وهي الآن على وشك المجيء من المخبأ.

ـ حسبما تشائين!

يقولها «جو» وهو يفحص شحنة من منتجات كليوباترة.

ـ أفكّر في مضاعفتها بصفر واثنين أو ثلاثة أخرى، على سبيل الاحتياط، من هي تلك الصّبيّة الجميلة إلى جوارك؟

رفعت ناظريها إلى «جو» متوقّعة ردّاً منه.

يتجهّم، قائلاً:

ـ ماذا، ماذا تقولين؟

تطرف عينا فيوليت، على نحو سريع، وهي تقول:

ـ آه، لا شيء. أعني. لا شيء.

ـ صبية جميلة؟

ـ لا شيء، يا جو، لا شيء.

وهي تعني أنّه ما من شيء يمكن القيام به حيال هذا الأمر، ولكنّه كان شيئاً، شيئاً هيّناً، لكنّه يثير الضّيق، تماماً كالمرّة الّتي سألتها فيها السّيدة هايوود عن الوقت الّذي يمكنها فيه العناية بشعر حفيدتها، فردّت عليها قائلة:

ـ السّاعة الثّانية، إذا لم تكن عربة دفن الموتى تشغل الطّريق.

ولم يكن انتزاع نفسها من هذه الانهيارات بالأمر البالغ الصّعوبة، لأنّ أحداً لم يضغط عليها. هل يفعلون الشيء نفسه؟ ربّما، ربّما كان لكلّ شخص لسان متمرّد يتوق إلى أن يمضي كيفما طاب له. تلزم فيوليت الصّمت، ويقلّ حديثها شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح القول «آه» أو «الرّحمة» هو كلّ ما يشكّل دورها في الحديث على وجه التّقريب، وممّا يعدّ أقلّ قابليّة للتجاوز من فم مشاكس، يد تمضي وشأنها ويمكن أن تعثر في قفص ببغاء على سكّين مفقودة منذ أسابيع. وتلزم فيوليت

twitter @baghdad_library

السّكون والصّمت، وبمضيّ الوقت وتثير نوبات صمتها ضيق زوجها، وتحيره، وفي نهاية المطاف تثير شعوره بالاكتئاب، فهو متزوج من امرأة تحادث في المقام الأوّل طيورها الّتي يردّ أحدهما هاتفاً: «أحبّك».

أو هكذا كان الحال. عندما أطلقت فيوليت سراح الطّيور، لم يتركها ذلك فقط دون صحبة طيور الكناري واعتراف الببغاء، وإنّما كذلك بدون ما درجت عليه من تغطية أقفاصها، وهي عادة أصبحت من تلك الأشياء الضّروريّة لليل، الأشياء الّتي تساعدك على النّوم طوال اللّيل، فقد يساعد عليه العمل الّذي يقصم الظّهر، أو الشّراب. ويقيناً يساعد عليه جسم ـ ودود إن لم يكن مألوفاً ـ يغفو إلى جوارك، شخص تعدّ لمسته مصدراً للاطمئنان لا إهانة ولا مصدر ضيق، ولا يثير تنفّسه الثّقيل الغيظ ولا الاشمئزاز، وإنّما يبدو ذلك طريفاً ومسلياً كتنفّس مخلوق مدلّل أثير لديك. وتساعد على ذلك الطقوس أيضاً، إحكام إغلاق الأبواب والنّوافذ، ترتيب الأشياء، تنظيف الأسنان، ولكنّها تمهيديّة للأمور الضّروريّة حقاً. ومعظم النّاس يرغبون في النّوم وكأنّهم يصطدمون به، تسقطهم فيه قبضة من الإرهاق لتجنّب ليلة من الصّمت الّذي ترقشه الضّجة، أقفاص طيور خاوية لا تحتاج إلى تغطيتها بالقماش، فتيات جريئات متجهمات يحدّقن من فوق رفّ المائدة.

بالنّسبة لفيوليت، الّتي لم تعرف الفتاة قطّ، وكلّ ما هنالك صورتها فحسب والشّخصية الّتي اخترعتها لها على أساس التّحريات الدّقيقة، تُعَدّ ذكرى هذه الفتاة مرضاً في الدّار، منتشراً في كلّ مكان وفي لا مكان، ليس هناك شيء تلطمه فيوليت أو تضربه عندما تضطر

twitter @baghdad_library

لـذلـك، عليهـا أن تضـربـه علـى نحـو مـن الأنحـاء، ولـم يبـق إلاَّ إطـار من قشّ وصورة ذات لون بنّي داكن.

ولكـن الأمـر مختلـف بـالنّسبـة لجـو، فتلـك الفتـاة كـانـت الشـيء الضّروري له عبر ليالي ثلاثة أشهر. وهو يستعيد ذكرياته عنها، كيف كان التّفكير فيها، وهو راقد في الفراش إلى جوار فيوليت، السّبيل الّذي يدلف عبره إلى النّوم، يمقت موتها، ويشعر بالأسف والحزن حياله، ولكنّه يمقت أكثر من ذلك احتمال عجز ذاكرته عن استعادة اعزازه لها. وهو يعرف أنّ هذا الإعزاز سيواصل الانسحاب متلاشياً، لأنّـه كـان بـالفعـل قـد بـدأ بـذلـك فـي الأصيـل الّـذي طـارد دوركـاس خلاله، بعد أن قالت إنّها تريد كوني أيلاند وحضور الحفلات وإمضاء وقت أطول في المكسيك، وحتّى في ذلك الوقت كان يتشبّث بنوعية بشـرتهـا الّتـي تعيبهـا الحسـاسيّـة مـن السّكـر، بشعـر عـانتهـا الكـثّ المسترسـل، بشعـرهـا الّـذي يتحـوّل إلـى وسـائـد للفـراش، بـأظـافـرهـا المقـروضـة بـأسنـانهـا، الطّـريقـة الّتـي تنهـض بهـا فينخلـع لهـا الفـؤاد، إذ تقف دافعة بأطراف أصابع قدمها إلى أعلى وإلى الخلف، وحتّى في ذلك الوقت، ولدى الإصغاء إلى حديثها والأمور الرّهيبة الّتي قالتها، ساوره الشّعور بأنّه يفقد جرس صوتها وما حدث لجفونهما عندما تضاجعا.

الآن، هوذا يرقد في الفراش، عاكفاً على تذكّر كلّ جزئية من تفاصيل ذلك الأصيل من تشرين الأول (أكتوبر) الّذي التقاها فيه للمرّة الأولى، من البداية إلى النّهاية، مراراً وتكراراً، لا لأنّ ذلك أمر ممتع فحسب، وإنّما لأنّه يحاول أن ينحتها في قرار ذهنه، ويغرسها هناك ثابتة في مواجهة

أي اضمحلال مستقبلي، بحيث أنّها لا هي ولا عشقها الحي ستيلاشيان أو يتساقطان ذابلين على نحو ما حدث لفيوليت، ذلك أنّه عندما يحاول تذكّر ما كان عليه عندما كان وفيوليت في مقتبل العمر، عندما تزوجا، وقرّرا مغادرة مقاطعة فيسبروالانتقال شمالاً إلى المدينة، فإنّه ما من شيء على وجه التّقريب يرد على ذهنه. وهو يتذكّر التوّاريخ، بالطّبع، والأحداث، والمشتريات، والنّشاط، بل وحتّى المشاهد، ولكنّه أمضى وقتاً عصيباً في محاولة الإمساك بما كان عليه شعوره وقتها.

جالد هذه الخسارة طويلاً، واعتقد أنّه قد استسلم لها، وتأقلم مع الحقيقة القائلة بأنّ الكهولة ستكون عدم تذكّر الشّعور بما كانت عليه الأمور، وأنّ بمقدورك القول: «استبدّ بي الخوف». ولكنّك لا تستطيع استعادة ذلك الشّعور، أنّ بمقدورك أن تدير في ذهنك مشهد النّشوة، القتل، الرّقة، ولكنّه مجرّد من كلّ شيء إلاّ اللّغة الّتي يقولها بها. وكان قد اعتقد أنّه تصالح مع ذلك، لكنّ الصّواب لم يحالفه. عندما ذهب إلى شيلا ليسلّم ما طلبته من السّلع من طراز كليوباترا، ولج غرفة مليئة بالنّسوة الضّاحكات العابثات ـ وهنالك ألفاها واقفة عند الباب وقد فتحته ليدخل، الفتاة نفسها الّتي شتّتت انتباهه في المتجر، الفتاة الّتي كانت تشتري الحلوى وتلوّث بشرتها، والّتي أثّرت فيه بعمق حتّى التهبت عيناه، ثمّ، فجأة، هنالك عند عتبة أليس مانفريد، وقفت وأطراف أصابع قدميها تلتوي إلى الدّاخل، وقد ضفرت شعرها على هيئة جدائل، دون أن تبتسم مجرّد ابتسامة، ولكنّها كانت ترحّب به يقيناً. يقيناً، وإلاّ لما واتته الجرأة وساندته أعصابه فهمس لها عند الباب فيما هو يغادر المكان.

كانت عدوانيّة شبقة تلك الّتي استمتع بها لأنّه لم يلجأ إليها ولم

twitter @baghdad_library

تمسّ حاجته إليها من قبل، أزيز الرّغبة التي طفت على السّطح جنباً إلى جنب مع همسه من خلال الباب الموصد، الّذي بدأ يتلمّسه. في البداية امتصّ ذلك الأزيز كأنّما يدسّه في جيبه، مستشعراً اللّذّة من جرّاء معرفته بأنّه هنالك، ثمّ استجلبه كأنّما يخرجه من صندوق ليملأ به عينيه على مهل. لم يحن إلى الفتاة ولم يَتُقْ إليها، وإنّما بالأحرى فكّر فيها وحسم الأمر، تماماً كما حسم بالأصالة عن نفسه أمر شجرة الحور الّتي تضاجع وفيوليت عند جذعها، كأنّما في قطعة من قرار الأرض، وحسم وقت الانطلاق إلى المدينة، كذلك حسم الأمر فيما يتعلق بدوركاس. وإذا ضربنا صفحاً عن زواجه بفيوليت، فهو لم يختر ذلك، وإنّما كان في حقيقة الأمر ممتناً لأنّه لم يضطرّ إلى مواجهة موقف الخيار، وإنّما حسمت فيوليت ذلك عنه، وساعدته في الإفلات من كلّ علاقاته الشّهوانيّة في المقاطعة ومواجهة الصّمت الثّقيل الّذي واكبهما.

التقيا في مقاطعة فيسبر بولاية فرجينيا تحت شجرة حور. كانت تعمل في الحقول، شأن الجميع، وتبقى بعد وقت الحصاد للسكنى مع عائلة تقطن على بعد عشرين ميلاً من عائلتها. وكان لهما معارف مشتركون، وغلب على ظنّهما أنّ لهما قريباً واحداً مشتركاً على الأقل، وتقاربا لأنّهما وضعا في مكان واحد، وكلّ ما قرّراه لنفسهما هو مكان لقائهما وموعده تحت جنح الظّلام.

غادر فيوليت وجو تيريل، وهي محطّة قطار في مقاطعة فيسبر في العام ١٩٠٦ واستقلاّ الجزء المخصّص للملوّنين من القطار المعروف باسم «ساوثرن سكاي». وعندما تقلقل القطار لدى اقترابه من المياه المحيطة بالمدينة حسبا أنّه يشبههما، في العصبية إزاء الوصول إلى

هناك أخيراً، وفي الخوف ممّا يكمن في الجانب الآخر. استبدّت بهما اللّهفة، مع قليل مع الخوف، بحيث لم ينالا غفوة قصيرة خلال الرّحلة الّتي امتدّت أربع عشرة ساعة وبدت أيسر من هدهدة مهد. جعلتهما الظّلمة المطبقة سريعاً في عربات القطار لدى انطلاقه عبر أحد الأنفاق يتساءلان عمّا إذا كان هناك حائط أمامه سيرتطم به أو صقر معلّق فوق هوّة، تأرجح بهما القطار حيال هذه الفكرة ولكنّه واصل مسيرته، وامتدّت الأرض أمامه يقيناً، وأصبح التّأرجح تحت أقدامهما رقصاً. نهض جو واقفاً وأصابعه مطبقة على عصا حمل المتاع فوق رأسه؛ فقد أحسّ بأنّ الرّقص على هذا النّحو أفضل، وحدث فيوليت بأنّ تقوم بالشيء نفسه.

مكثا هنالك، شابّيْن ريفيّيْن، يضحكان، وينقران على خشب الأرضيّة، وعندما مرّ المراقب لاحا مهذّبين وإن غابت الآن بسمتاهما لأنّه لم يجد نفسه ملزماً بالابتسام في هذه العربة المليئة بالملوّنين.

ـ الإفطار في عربة الطّعام. الإفطار في عربة الطّعام. صباح الخير. إفطارك في عربة الطّعام.

قالها وقد وضع بطّانية من بطانيات القطار فوق ذراعه، ومن تحتها اجتذب زجاجة حليب، وضعها بين يدي شابّة غفا وليدها على ركبتها، وأضاف:

ـ إفطار كامل.

لم يقدر لهذا المراقب أن يحقّق مراده. فقد أراد أن تنطلق العربة بأسرها في صف واحد إلى عربة الطّعام، بعد أن أصبح ذلك بمقدورهم. في التوّ، الآن وقد غادروا ديلاوير وابتعدوا بمسافة

twitter @baghdad_library

طويلة عن ماريلاند، لن يعود هناك ستار أخضر كالسّم يفصل الملوّنين خلال تناول الطّعام عن باقي العاكفين على تناوله. لن يشعر الطّهاة بأنّهم ملزمون بمراكمة أنصبة إضافية على الأطباق الّتي تشقّ طريقها إلى السّتائر، ثلاث شرائح ليمون في الشّاي المثلج، شريحتان من كعكة جوز الهند مرتبتان بحيث تبدوان كأنّهما شريحة واحدة ولتجنّب الانتقاد من السّتار، عليك بإسعاده بإضافة المزيد إلى الطّبق. أمّا الآن، والقطار عند مشارف المدينة، فلا وجود للسّتائر الخضراء، ويمكن أن تكون العربة بأسرها مليئة بالملوّنين، وأن يعامل الجميع على أساس أنّ من يجيء أولا يقدّم له الطّعام قبل غيره. لو أنّهم قاموا فقط! لو أنّهم قاموا فقط بدفع هذه الصّناديق الصّغيرة والسّلال تحت المقاعد، وطي تلك الأكياس الورقيّة، ولو لمرّة واحدة، وإعادة البسكويت المحشو بلحم الخنزير المملّح إلى القماش الّذي كان ملفوفاً فيه، والانطلاق صفاً واحد عبر العربات الخمس أمامهم إلى غرفة الطّعام، حيث مفرش المائدة الكتّاني يشبه على الأقل في البياض الملاءات الّتي يفرشونها على شجيرات العرعر، حيث مناشف المائدة طويت بكيّات في مدّة الكيّات الّتي يعدّونها لطعام عشاء الأحد، حيث صلصة مرق اللّحم في جودة تلك الّتي يعدّونها، والبسكويت ليس أقل جودة من البسكويت المحشو بلحم الخنزير المملّح الّذي يلفّونه في القماش. وفي مرّة نادرة حدث ذلك، إذ نهضت امرأة حسنة المظهر مع شابتين ورجل ذي مظهر كنسي يعلّق ساعة في سلسلة ويعتمر قبعة مرتفعة الحافة إلى أعلى، ورتّبوا ملابسهم، ومضوا عبر المقاعد باتّجاه الموائد ذات اللّون الأبيض الّذي يشبه الزّبد والمثقلة بالسّكاكين والشّوك الفضيّة.

وكان يتولّى شأن المائدة ويرأس القائمين على أمرها رجل أسود ليس مجبراً على دعم مكانته بابتسامة.

ما كان جو وفيوليت ليفكّرا في ذلك، أن يدفعا مالاً لقاء وجبة لم يفتقداها ويقتضي تناولها الجلوس ساكنين إلى مائدة، أو ما هو أسوأ من ذلك أن تفصلهما مائدة. كلاّ، ليس الآن، ليس لدى ولوجهما مدخل المدينة الّتي شقّا طريقهما إليها رقصاً. احتكت عظام وركيها بفخذه فيما هما واقفان في الممرّ عاجزين عن التوقّف عن الابتسام. لم يصلا إلى هنالك بعد وها هي المدينة تجاذبهما أطراف الحديث بالفعل. كانا يرقصان، ومثل مليون شخص آخر يرتطم صدراهما، وتتحكم أخشاب الأرضيّة في أقدامهما، راحا يحدّقان مطلّين من النّوافذ ليلقيا النّظرة الأولى على المدينة الّتي رقصت معهما، مبرهنة بالفعل على مدى حبّها لهما، وشأن مليون شخص غيرهما كان بمقدورها تقريباً الانتظار حتّى يصلا إلى هناك ليبادلاها حبّاً بحب.

تمهّل بعضهم في ذلك، وسافروا من جورجيا إلى إلينوي ومنها إلى المدينة وعادوا إلى جورجيا، وانطلقوا إلى سان دييجو، وفي نهاية المطاف هزّوا رؤوسهم، وأسلموا أنفسهم للمدينة. وعرف آخرون في التوّ أنّها قدرهم، هذه المدينة، لا غيرها. جاءوا بناء على نزوة عابرة لأنّ المدينة كانت هناك. ولم لا؟ جاءوا بعد كثير من التّخطيط، وكثير من الرّسائل المتبادلة للتيقّن ومعرفة كيف وكم وأين. أقبلوا في زيارة، ونسوا العودة إلى أشجار القطن العالية أو الخفيضة، طردوا من الخدمة على نحو مشرِّف أو مخزٍ، طردوا بإنذار بالفصل أو بدونه، تمّ الاستغناء عن خدماتهم بإخطار أو بدونه، يبقون لبعض الوقت، ثمّ لا يستطيعون تصوّر أنفسهم في مكان آخر. وجاء آخرون

twitter @baghdad_library

لأنّ قريباً لهم، أو لأنّ إحدى الشّخصيات البارزة في مدينة النّشأة قال: لابدّ لك، يا رجل، من أن ترى هذا المكان قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة، أو: لدينا مجال الآن، لذا احزم حقيبتك ولا تجلب أحذية طويلة العنق.

وأيّاً كان سبب قدومهم أو موعده فإنّه في اللّحظة الّتي تمسّ فيها نعال أحذيتهم الرّصيف لا يعود هناك مجال للتراجع. وحتّى لو كانت الغرفة الّتي استأجروها أصغر ممّا هو مخصّص لعجلة صغيرة وأكثر ظلمة من مرحاض صباحي، فإنّهم يبقون للتطلع بعضهم إلى بعض وللاستماع إلى أنفسهم وهم يتحدّثون على ملأ من النّاس، وليحسّوا بأنفسهم وهم يمضون في الشّارع وسط مئات الآخرين الّذين يتحرّكون على نحو ما يتحركون هم، والّذين يعاملون اللّغة عندما يتحدّثون، وبغضّ النّظر عن اللكنة، على أنّها اللّعبة المركّبة ذاتها واللّدنة المصمّمة لتكون لعبتهم. ويرجع جانب من السبب في حبّهم لها إلى المشهد الّذي تركوه وراءهم. الأعمدة الفقريّة المتهاوية لقدامى المحاربين المنتمين إلى الكتيبة السّابعة والعشرين الّتي خانها القائد الّذي حاربوا من أجله كالمجانين. عيون الآلاف الّذين يحسّون بالحيرة إزاء الاشمئزاز النّابع من استقدامهم من قبل السيّد أرمور والسيّد سويفت والسيّد وارد للقضاء على عمليات الإضراب عن العمل ثمّ طردهم لقيامهم بذلك، الأحذية المتهرئة لألفين من عمّال تفريغ السّفن في جالفستون، الّذين لن يدفع لهم السيّد مالوري خمسين سنتاً في السّاعة كالعمّال البيض، راحات الأكفّ الضّارعة، الأنفاس اللاّهثة، والأطفال الهادئون، أبناء الهاربين من سبرنجفيلد بولاية أوهايو، سبرنجفيلد بولاية إنديانا، جرينسبورج بولاية إنديانا،

ويلمنجتون بديلاوير، نيو أورليانز بلويزيانا، بعد قيام البيض الحانقين الّذين علا الزّبد أشداقهم بالانطلاق هادرين في كافّة أرجاء الحواري وأفنية البيوت.

بلغت موجة السّود الهاربين من العوز والعنف قمّتها في السّبعينيّات من القرن الثّامن عشر والثّمانينيّات والتّسعينيّات منه، ولكنّها كانت دفقاً متواصلاً في ١٩٠٦ عندما انضمّ جو وفيوليت إليها. وكانا، شأن الآخرين، ريفيين، ولكن ما أسرع ما ينسى الرّيفيون! عندما يسقطون في حبّ إحدى المدن فإنّه يغدو حبّاً أبدياً، أو كالأبدي، كأنّما لم يكن هناك وقت لم يحبّوها فيه. ولحظة وصولهم إلى محطّة القطار أو ترجلهم من الزّورق ورؤيتهم للشّوارع الفسيحة والمصابيح الّتي تهدر الكثير والّتي تضيء هذه الشّوارع، فإنّهم يدركون أنّهم ولدوا من أجل المجيء إليها. هنالك، في المدينة، تتجدّد نفوسهم، وما يعودون يشبهون ذواتهم الأقوى والأكثر جرأة. وفي البداية، لدى مستهلّ وصولهم، وبعد عشرين عاماً عندما تتقدَّم الأيّام بهم وبالمدينة، يحبّون ذلك الجانب من ذواتهم حبّاً جماً حتّى إنَّهم ينسون ما يعنيه حبّ الآخرين، إذا كانوا قد عرفوه على الإطلاق. لست أعني أنّهم يكرهون الآخرين، لا، وإنّما أنّ ما يبدأون بحبّه هو الطّريقة الّتي يوجد بها الشّخص في المدينة، الطّريقة الّتي لا تقف بها التّلميذة قطّ عند إشارة المرور، وإنّما تتطلع في الشّارع إلى هذا الاتّجاه وذاك قبل أن تخطو عابرة حافة الطّريق، كيف يتواءم الرّجال مع المباني السّامقة والشّرفات الصّغيرة، وما تبدو عليه امرأة وهي تنطلق وسط الزّحام، أو كم يبدو ملمحها الجانبي باعثاً على الصّدفة بإزاء خلفيّة الإيست ريفر. الشّعور

twitter @baghdad_library

بالسّكينة في أداء مهام المطبخ عندما تعرف أنّ زيت المصباح أو الطّعام الأساسي يباعان عند المنعطف لا على بعد سبعة أميال، والدّهشة النّابعة من فتح النّافذة والتّعرض لتنويم مغناطيسي لساعات من قبل النّاس الماضين في الشّارع أسفل النّافذة.

والقليل من ذلك يدفع باتّجاه الحبّ، ولكنّه يشعل الرّغبة. والمرأة الّتي تجعل دم الرّجل يهتاج، فيما هي تنحني وحيدة على سور قرب طريق ريفي قد لا تتوقّع حتّى أن تلفت نظره في المدينة. ولكن إذا كانت تنطلق مسرعة في أحد شوارع المدينة الكبيرة منتعلة حذاء ذا كعبين عاليين ومؤرجحة حقيبتها، أو تجلس على مقعد مرتفع وفي يدها شراب الجعة البارد، وقد تدلّى حذاؤها من أطراف قدميها، فإنّ الرّجل الّذي يستجيب لوضعها، للبشرة اللّدنة على الحجر، لثقل البناء الذي يؤكّد على الحذاء الرّقيق المتدلّي، يقع في قبضتها. ولسوف يظنّ أنّ رغبته قد انصرفت إلى المرأة لا إلى مركب من الحجر المقدّس والحذاء المتدلّي ذي الكعب العالي الّذي يتحرّك ما بين داخل سنا الشّمس والظّلّ، لسوف يعرف الخداع على الفور، الحيلة المؤلّفة من الأشكال والضّوء والحركة، ولكنّ ذلك لن تكون له أهمّية على الإطلاق، لأنّ الخديعة جزء من المسألة كذلك. وعلى أيّة حال فإنّ بمقدوره أن يحسّ برئتيه وهما تستافان الهواء وتزفرانه. ليس هناك هواء في المدينة، ولكن ثمّة تنفّس، وكلّ صباح ينهل عبره مثل الغاز المثير للضحك، الّذي يجعل عينيه تتوهّجان، ويضيء حديثه وتوقّعاته. وسرعان ما ينسى الخيران المكسوّة القاع بالحصى، وأشجار التّفاح البالغة القدم بحيث تمدّ أغصانها على امتداد الأرض وتضطرّ لمدّ يدك إلى أسفل أو إلى الانحناء لقطف

الثّمر، ينسى الشّمس الّتي تنزلق مثل محّ بيضة ريفيّة طيبة، تلوح مثقلة وجامعة بين اللّونين الأحمر والبرتقالي عند قرار السّماء، ولا يفتقدها، ولا يرفع ناظريه ليرى ما حدث لها، أو للنجوم الّتي جعلها ضوء مصابيح الشّارع الّتي تهدر الكثير وتدخل البهجة على النّفس ـ جعلها شيئاً لا أهمّية له.

يسيطر هذا النّوع من الامتنان، الدّائم والخارج عن نطاق السّيطرة، على الأطفال، الفتيات الصّغيرات، الرّجال من كلّ صنف ولون، الأمّهات، العرائس، والنّسوة المتردّدات على الحانات، وإذا مضوا في طريقهم، ووصلوا إلى المدينة، فإنّهم يشعرون بالألفة مع ذواتهم، وبأنّهم أقرب إلى من اعتقدوا أنّهم ما هم عليه، وما من شيء يمكن أن يحول بينهم وبين ذلك، فالمدينة هي ما يريدون أن تكون: بعيدة عن التّقتير، دافئة، مروّعة، ومليئة بالأغراب الودودين، فلا عجب أنّهم ينسون الخيران المكسوّة القاع بالحصى، وعندما لا ينسون السّماء تماماً فإنّهم يفكّرون فيها على أنّها معلومة عن السّاعة من النّهار أو اللّيل.

ولكنّني رأيت المدينة تجترح سماء تستعصي على التّصديق، في بعض الأحيان يسترسل في القول حمّالون ومراقبو غرف طعام ممن لا يخطر لهم على بال أن يتنقَّلوا في المدينة حول سماوات ريفية شاهدوها من نوافذ القطارات. ولكن ليس هناك ما يتجاوز السّماء المتّشحة باللّيل فوق المدينة، فبوسع المدينة أن تفرغ نفسها من السّطح وأن تبدو أقرب إلى المحيط من المحيط نفسه، وأن تغدو عميقة ومجرّدة من النّجوم، وقريباً من أعالي البنايات، قريباً، أكثر

twitter @baghdad_library

قرباً من القبعة الّتي تعتمرها، مثل سماء المدينة هذه تدنو وتتراجع، تدنو وتتراجع، وتعيد إلى خاطري الهوى المجّاني، وإن كان غير شرعي، الّذي تمنحه الخليلات قبل أن يكتشف أمرهن. وإذا نظرت إلى هذه السّماء المتّشحة باللّيل، وهي تزدهر فوق مدينة متألّقة، فإنّ من الممكن بالنّسبة لي أن أتجنّب الحلم بما أعرف أنّه في المحيط، والخلجان والرّوافد الّتي يغذّيها، الطّائرات ذات المقعدين، وقد انخفضت مقدّمتها وسط الاعتكار، والطيّار والرّكاب يحدّقون في جماعات منطلقة من أسماك القنبر، والنّقود، مبتلّة وملحية في الأكياس القماشيّة، أو ملوّحين في هدوء بأطرفهم الممتدّة من حلقات معدنيّة معدّة لتقييدهم إلى الأبد. إنّهم هنالك في الأسفل، جنباً إلى جنب مع الزّهور الصّفراء الّتي تلتهم خنافس الماء والبيض الكافي بعيداً عن الزّعانف المتلاطمة، مع الأطفال الّذين أخطأوا في الآباء الّذين اختاروهم، مع ألواح رخام كرارا المنتزعة من مبانٍ بعدت عن روح العصر. وهناك زجاجات أيضاً صنعت من زجاج يحظى بقدر من الجمال يجعلها تنافس النّجوم الّتي لا أستطيع رؤيتها فوقي لأنّ سماء المدينة قد أخفتها، وإلاّ لو كانت قد أرادت ذلك لكان بمقدورها أن تريني نجوماً قطعت من الأرديّة اللاّمعة الّتي ترتديها فتيات الجوقة أو تنعكس في عيون الحبيبات المختلسات والسّعيدات تحت ضغط سماء عميقة يمكن أن تلمس لمساً.

ولكنّ ذلك ليس كلّ ما يمكن أن تجترحه سماء المدينة، فهي يمكن أن تغدو أرجوانيّة اللّون، أو تحظى بقلب برتقالي، بحيث تتوهّج ملابس النّاس المنطلقين في الشّوارع كأزياء المراقص، ولقد رأيت نسوة يحوّلن القمصان إلى نشاء مغلي، أو يحكن أصغر

الدّرزات في جواربهنّ، بينما تزيل فتاة تجعّدات شعر أختها عند الموقد، وفي غضون ذلك فإنّ السّماء الّتي لا يلحظها أحد، السماء الجميلة كالفيروز، تنساب بإزاء نوافذهنّ، وكذلك نوافذ الحبيبات المجّانيات وغير الشّرعيات اللاّتي يتحدّثن عن أمور شتّى.

بعد عشرين عاماً من وصول جو وفيوليت إلى المدينة راقصين في القطار، كانا ما يزالان زوجين، ولكنّهما لا يكاد يحادث أحدهما الآخر، دع جانباً أن يضحكا أو يتصرفا كأنّما الأرض أرضيّة قاعة للرقص. وإذا اقتنع جو بأنّه هو وحده الّذي يتذكّر تلك الأيّام ويريد استعادتها ويدرك طبيعتها ولكنّه لا يدرك على الإطلاق الشّعور الّذي ساد خلالها، فقد بحث لنفسه عمن يرافقها في موضع آخر، وقام باستئجار غرفة من جارة تعرف على وجه الدّقّة قيمة تكتمها. ابتاع ستّ ساعات في الأسبوع. وقت تنتقل فيه سماء المدينة من زرقة الجليد الهشّ إلى اللّون الأرجواني ذي القلب الذّهبي، ووقت كافٍ، عندما تغوص الشّمس في الأفق، ليحدّث حبيبته الجديدة بأمور لم يبلغ بها زوجته قطّ.

أمور مهمّة، مثل الكيفيّة الّتي تبدو عليها رائحة الخبّازى على ضفاف غدير عند الغسق، وكيف يكاد يستطيع رؤية ركبتيه تبرزان من ثقبين في سرواله في ذلك الضوء الغسقي، وعليه فما الّذي يجعله يعتقد أنّ بمقدوره أن يرى يدها، حتّى إذا قرّرت بالفعل أن تدفعها عبر الشّجيرات وأن تؤكّد له، على نحو قاطع أنّها أمّه حقاً؟ وحتّى إذا كان هذا التّأكيد سيدفعه للشعور بالعار، فإنّه سيجعله أسعد صبي في فرجينيا، ذلك إذا قرّرت أن تريه يدها، وأن تستمع لمرّة واحدة لما يقوله لها ثمّ تمدّ يدها، وتقول نوعاً من كلمة

twitter @baghdad_library

نعم، حتّى وإن كانت لا، بحيث يعلم بالأمر. ولشدّ ما كان على استعداد للمخاطرة بالتّعرض للإذلال والشّعور بالامتنان في الوقت نفسه، لأنّ التّأكيد سيعني الأمرين معاً. يدها، أصابعها وهي تبرز من بين البراعم وتمسّ أصابعه، ولربّما تتركه يمسّ أصابعها. ما كان ليحكم قبضته عليها، ويجتذبها، ويجرّها من وراء الشّجيرات، ربّما كان هذا هو ما خشيته، ولكنّه ما كان ليفعل ذلك، وقد قال لها ذلك. قال لها مجرّد إشارة، قال لها أريني يدك فقط، ولسوف تعرف، ألا تعرفين أنّني أن أعرف؟ لن تكون مرغمة على قول شيء، على الرّغم من أنّه ما من أحد سمعها تقول أي شيء. لا يتعين أن يكون الأمر بالكلمات، فهو لم يكن بحاجة إلى كلمات، بل لم يكن يريدها لأنّه يعرف كيف يمكن أن تكذب الكلمات، كيف يمكنها أن توقد النّار في دمك وتختفي، لن يتعين عليها أن تقول كلمة «أمّ»، لا شيء من ذلك القبيل، كلّ ما عليها أن تشير له، أن تدفع يدها من خلال الوريقات، والزّهرر البيضاء، وسيكون ذلك كافياً للقول بأنّها تعرف أنّه هو المقصود، الابن الّذي أنجبته قبل أربعة عشر عاماً، وهربت منه، ولكن ليس إلى مكان بعيد للغاية، وإنّما إلى مكان بعيد بما يكفي لبعث الضّيق في نفوس الجميع، لأنّها لم تبتعد تمام الابتعاد، وقريبة بما يكفي لإخافة الجميع، لأنّها تزحف وتختبئ وتلمس وتضحك ضحكة خفيضة عذبة طفوليّة وسط القصب.

ربّما فعلتها. ربّما كانت تلك هي أصابعها تتحرّك على ذلك النّحو في الشّجيرة، وليست الأماليد، ولكن في ضوء خافت بحيث لم يكن بمقدوره أن يرى ركبتيه وهما تبرزان من الثقبين في سرواله، ربّما فاتته الإشارة الّتي من شأنها أن تكون تركيباً يجمع العار والفرح،

على الأقلّ، لا الخواء الدّاخلي الّذي ارتحل به منذ ذلك الحين فصاعداً، باستثناء خريف العام ١٩٢٥ عندما كان لديه من يحدّثه عنه، مخلوقة تدعى دوركاس، لها خصلات تحفّ بعظمتي وجنتيها وتعرف خيراً ممن هم في مثل عمره ما الّذي يعنيه ذلك الخواء الدّاخلي، ولقد ملأته له، تماماً كما ملأ خواءها لأنّها كانت تعاني منه بدورها.

ربّما كان خواؤها أسوأ، لأنّها تعرف أمّها، بل لقد صفعتها تلك الأمّ على وجهها بسبب جواب وقح لم تستطع تذكّره. ولكنّها تذكر تفاصيل الصّفعة على الوجه، وقد حدّثته بذلك، فرقعة الصّفعة ولذعها وكيف أحرقتها، حدّثته كيف أحرقتها، ومن بين كلّ الصّفعات الّتي كيلت لها كانت تلك هي الصّفعة الّتي تتذكّرها بوضوح لأنّها كانت الصّفعة الأخيرة. انحنت مطلّة من نافذة دار أقرب صديقاتها إليها لأنّ الصّيحات لم تكن جزءاً ممّا كانت تحلم به، وإنّما كانت خارج رأسها، عبر الطّريق كالانطلاق عدواً، كان الجميع يعدو بحثاً عن الماء؟ عن الدّلاء؟ عن عربة الإطفاء المتألّقة والمتأهّبة للانطلاق في جزء آخر من المدينة؟ لم يكن هناك سبيل لدخول تلك الدّار حيث اصطفّت دماها المصنوعة من القماش في صفّ واحد، في صندوق سيجار، لكنّها حاولت الحصول عليها على أيّ حال. انطلقت تعدو حافية وبمنامتها للحصول عليها، وصرخت بأمّها قائلة إنّ صندوق الدّمى ذاك، صندوق الدّمى كان في خزانة أدوات الطّهو فهل يمكننا الحصول عليها؟ أمّاه؟

تبكي مجدّداً، ويضمّها جو إليه، تنساب السّماء الفيروزيّة فيما

twitter @baghdad_library

وراء النّوافذ، ولو أنّهما شاهداها لأضفت ألوانها على حبهما، ولسوف يحدث ذلك عندما يقوم بعد صمت رقيق برفع صندوق عيناته من منتجات كليوباترا من المقعد وبداعبها قبل أن يفتحه، رافعاً الغطاء بحيث لا تستطيع أن ترى في التوّ ما الّذي أخفاه تحت الأوعية وزجاجات العطر، الهديّة الّتي جلبها لها. تلك هي الأنشوطة الصّغيرة الّتي تربط يومهما في الوقت الّذي تبدّل فيه سماء المدينة قلبها البرتقالي إلى اللّون الأسود، لكي تخفي نجومها أَطْوَلَ وقت ممكن، قبل أن تمرّرها واحدة إثر الأخرى فغيرها، مثلما الهدايا.

بحلول ذلك الوقت كانت قد ردّت إلى الوراء البشرة الميتة حول أظافره، وقامت بتنظيفها وطلتها بطلاء شفّاف، وبكت قليلاً في غمرة حديثها عن إيست سانت لويس، وأعادت لنفسها المرح بالعكوف على أظافره، فهي تحبّ أن تعرف أنّ اليدين اللّتين ترفعانها وتقلبانها تحت البطّانيّة قد قامت هي نفسها بتقليم أظافرهما، ودلّكتهما بدهان من زجاجة استخرجتها من صندوق عيناته. تنتصب على ركبتيها وتأخذ وجهه بجمع كفيها وتقبّل جفني كلّ عين من عينيه المزدوجتي اللّون، تقول، قبلة لي، وقبلة لك، قبلة لي، وقبلة لك، أعطني هذه وأعطيك تلك. أعطني هذه. أعطني هذه.

يحاولان ألاَّ يعلو صوتهما إلى حدّ الصّياح، ولكنّهما لا يفلحان في الحيلولة دون ذلك، وفي بعض الأحيان يُغطّي فمها براحته، بحيث لا يسمعها من يمرّ بالرّواق، وإذا استطاع، إذا خطر له ذلك في الوقت المناسب فإنّه يعضّ الوسادة للحيلولة دون انطلاق صراخه إذا استطاع، ففي بعض الأحيان يعتقد أنّه أوقفها، لأنّ ركن الوسادة في

فمه بالفعل، وعندئذٍ يسمع نفسه وهو يستاف الهواء ويزفره، يستافه ويزفره، في نهاية ذيل صيحة ما كان يمكن إلاَّ أن تند عن زوره المرهق.

تضحك من ذلك، تضحك، وتضحك، قبل أن تعتلي ظهره لتلطمه بقبضتيها، وعندئذٍ يحلّ بها الإجهاد، ويكون هو شبه نائم، تنحني إلى أسفل، وشفتاها وراء أذنه، وتعدّ الخطط. تهمس: المكسيك، أريدك أن تصحبني إلى المكسيك. يغمغم: إنّها شديدة الضّجيج. تقول: لا، لا، إنّها المكان المناسب. يلحّ قائلاً: من أين لك معرفة ذلك؟ سمعت النّاس يقولون ذلك. سمعت النّاس يقولون إنّ الموائد مستديرة وفوقها غطاء أبيض ومظلّات فوق المصابيح. يقول باسماً: المحال لا تفتح أبوابها إلاَّ بعد وقت طويل من موعد نومك. تقول: هذا موعد نومي، سكّان المكسيك ينامون نهاراً، ثق بما أقول، ويلازمون الفراش إلى أن يحين موعد الذّهاب إلى الكنيسة صبيحة الأحد، وما من بيض يمكنهم أن يدلفوا إلى هناك، والفتية الّذين يعزفون الموسيقى ينهضون في بعض الأحيان ويراقصونك. يقول: آه، آه! تسأله ما الّذي تعنيه بآه! آه، كلّ ما أريده هو أن أراقصك، ثمّ نمضي لنجلس إلى مائدة مستديرة عليها مصباح. يقول: بمقدور النّاس رؤيتك، فتلك المصابيح الصّغيرة الّتي تتحدّثين عنها هي من الضّخامة بحيث توضح هوية من يجلس هنالك. تقول ضاحكة: دائماً تقول ذلك، مثل المرّة الماضية، بينما لم ينظر إلينا أحد، إذ انشغل الجميع بالاستمتاع بالوقت، والمكسيك أفضل من هذا الجانب لأنّه ما من أحد يمكنه أن يرى ما يجري تحت غطاء المائدة. هل بمقدورهم؟ هل بمقدورهم؟ وإذا لم ترغب في الرّقص

twitter @baghdad_library

فإنّ بمقدورنا الجلوس هناك إلى تلك المائدة، وقد بدا علينا الغرور والتّعالي في ضوء المصباح، ونصغي للموسيقى ونرقب النّاس. ما من أحد يمكنه رؤية ما تحت غطاء المائدة. جو، جو، خذني، قل إنّك ستأخذني إلى هناك. يسألها: كيف ستغادرين الدّار؟ تقول ساخرة: سأجد سبيلاً لذلك، تماماً كما أفعل دائماً، ما عليك إلاَّ أن تقول نعم. يقول: طيّب، لا معنى لقطف التّفاحة إذا لم تكن ترغب في معرفة طعمها. تسأله: ما هو طعمها يا جو؟! ويفتح عينيه.

الباب موصد، ومالفوني لن تعود من مقرّ عملها الّذي يقع في الشّارع الأربعين إلاَّ بعد انتصاف اللّيل بوقت ليس بالقصير، وهي فكرة أثارته، لو أنّه كان بوسعهما على وجه التّقريب أن يمضيا اللّيلة معاً، لو أنّ أليس مانفريد أو فيوليت قامتا برحلة، على سبيل المثال، فإنّ بمقدورهما معاً أن يؤجّلا الهديّة الّتي قدّمها لها إلى أكثر ساعات اللّيل حلكة، عندما تعود مالفوني من مكتبها، ورائحة الإكسيدول واللّصوق الشّمعي تفوح منها. وتصادف أنّها قد عادت من مكتبها بعد أن أعدّا خططهما للرحيل إلى المكسيك، فتنسلّ دوركاس خارجة من الباب وهابطة الدّرج، قبل أن تنتهي فيوليت من تصفيف شعر زبوناتها اللّيليات، وتعود إلى الدّار في حوالي السّاعة السّابعة، لتجد أنّ جو قد بدل بالفعل الماء للطّيور وغطّى أقفاصها، في هاتيك اللّيالي لا يكترث جو بالتمدّد مستيقظاً إلى جوار زوجته الصّامتة، لأنّ خواطره تحلّق مع فتاته الشّابّة الملائكيّة الطّيبة الّتي تضفي هالة على حياته وفي الوقت نفسه تجعله يتمنّى لو لم يولد قطّ.

كانت مالفوني تقطن وحيدة مع الصّحف وقصص الآخرين المنشورة في كتب صغيرة. وعندما لا تكون عاكفة على تلميع مكتبها فإنّها تجمع القصص بملاحظتها الدّقيقة للناس من حولها، فما كان يغيب إلاَّ القليل عن هذه المرأة الّتي تستقل الحافلة في مواجهة حركة السّير في السّادسة مساء، والّتي درجت على فحص سلال مهملات الرّجال البيض من ذوي النّفوذ، والتطلّع إلى صور النّساء والأطفال على مكاتبهم، والإصغاء إلى حوارهم المتبادل في الأروقة والضّحك الّذي يتناهى إلى حجيرة أدوات النّظافة كأنّه أبخرة تنساب من زجاجة نشادرها. كانت تفحص زجاجاتهم وتعيد إلى وضعها تلك القنينات المدسوسة تحت الوسائد ووراء الكتب الّتي طبعت كلماتها في عمودين. وكانت تعرف من الّذي يولع بالعدالة ولعه بملابس النّساء التحتيّة، ومن الّذي يحبّ زوجته ومن الّذي يتقاسمها مع آخر، ومن يتشاجر مع ابنه ولا يحادث أباه، ذلك أنّهم لا يغطون سمّاعة الهاتف عندما يتحدّثون عبره، ليطلبوا منها الانصراف فيما هي تشقّ طريقها على مهل عبر القاعات إلى مكاتبهم، كما لا يخفضون أصواتهم لتغدو همسات نجوى عندما يعكفون على العمل إلى وقت متأخّر لينجزوا ما يصفونه بالعمل «الحقيقي».

لكنّ مالفوني لم تكن مهتمّة بهم، وإنّما كانت ترصد الأمور وقد انصبّ اهتمامها على الجيران.

قبل أن يغيّر سويتنس اسمه من وليام يونجر إلى ليتل سيزر قام بسرقة صندوق بريد في الشّارع المائة والثّلاثين. ولم تستطع مالفوني تصوّر ما إذا كان يبحث عن كمبيالات بريدية أو أوراق نقديّة أو غير

twitter @baghdad_library

ذلك، وكانت قد ربّته منذ كان في السّابعة، وما من أحد كان يتمنّى من هو أفضل منه سلوكاً، في النّهار على الأقل. ولكن بعض الأمور التي تورط فيها خلال مدّة عمل مالفوني في المكتب من السّادسة مساء إلى الثّانية والنّصف بعد منتصف اللّيل لن يقدّر لها أبداً أن تعرفها، بينما عرفت بعضها الآخر، بعد أن رحل إلى شيكاغو، أم تراها كانت سان دييجو أو مدينة أخرى تنتهي بالحرف نفسه.

فسّر لها أحد الأمور الّتي علمتها المصير الّذي انتهت إليه حقيبة مواد البقالة الخاصّة بها، غرارة الملح زنة العشرين رطلاً الّتي حملتها إلى السوق بعد أن غسلتها بصورة جيّدة وطوتها في حقيبتها. وعندما عثرت عليها وراء مِشعاع التّدفئة في غرفة سويتنس كانت مليئة برسائل غير ملغاة. وفيما عكفت على فحصها كان الدّافع الأوّل الّذي سيطر عليها هو محاولة فضّها، وإعادة إغلاقها على محتوياتها وتوصيلها على وجه السّرعة إلى أحد صناديق البريد، غير أنّ الأمر انتهى بها إلى قراءة كلّ رسالة منها، بما في ذلك الرّسائل الّتي لم يكترث سويتنس بفضّها، وباستثناء متعة التّعرف على التّوقيعات فقد تبيّن أنّ قراءة الرّسائل عمل غير مشوّق على الإطلاق.

العزيزة هيلين مور. أسئلة عن صحة هيلين، وردود حول صحّة كاتب الرّسالة. الطّقس، الخدع، الوعود. الحبّ. ثمّ الموقع، كأنّما هيلين تلقّت الكثير من الرّسائل ولها كثير من الأقارب والأصدقاء بحيث لم يكن بمقدورها تذكّرهم جميعاً، فيعرف المرسل بنفسه بخطّ مائل كبير الحروف باعتباره: أختك المخلصة السيّدة فلانة الفلانيّة، أو الأبّ المحبّ في نيويورك ل. هندرسون وودوارد.

اقتضت قلّة من الرّسائل تحركاً من جانب مالفوني، فقد أرسلت طالبة بمدرسة مهنيّة نموذج طلب لدراسة الحقوق بالمراسلة جنباً إلى جنب مع ورقة نقديّة من فئة الدولار لم يعد لها الآن وجود، وهي من مقتضيات الطّلب. ولم يكن لدى مالفوني دولار تؤثر به دفع أتعاب التحاق ليلاسبنسر بالدّراسة، ولكنّ القلق ساورها حول أنّ الفتاة إن لم تدرس الحقوق فقد ينتهي بها الحال إلى عمل يقتضي أن تضع على صدرها ميدعة، ولذا فقد أضافت حاشية بخطّ يدها إلى الرّسالة تقول: «ليس لدي الدّولار الآن، ولكن بمجرّد إفادتي باستلامكم هذا الطّلب والموافقة على حضوري سأحصل عليه. إذا أبلغتموني بأنّه ليس متوافراً لديكم وأنّ الحاجة ماسّة إليه حقّاً».

حلّت اللّحظة الحزينة عندما قرأت الرّسالة المبعوثة إلى بنما من ونسم كلارك، وفيها تشكو لزوجها الّذي عمل في منطقة القناة من ضآلة النّقود الّتي أرسلها لها وعدم كفايتها، النّقود الّتي لم يكن فيها غناء فاضطرّت أن تتخلّى عن عملها، وتحزم حقائب الصّغار وتعود إلى بربادوس. وكان بمقدور مالفوني أن تحسّ بحائط الحياة وهو يطبق على راحتي المرأة، تحسّ بيديها وقد اهترأتا من لطم هذا الجدار، وردفيها يتقلصان إذ يقبض الصّغار على مؤخّرتها. كتبت تقول: «لست أدري ما عساي أصنع، فما من شيء أقوم به يغيّر مجرى الأمور، وعمتي تثير ضجّة حول كلّ شيء، وقد ضقت ذرعاً، الأطفال بائسون مثلي، والنّقود الّتي ترسلها لا يمكن أن تبقي مركبنا طافياً، إنّنا نغرق هنا، وسيّان أن نغرق في الدّار الّتي تقيم بها أمّك، أو في داري حيث الأشجار الكبيرة»

حدّثت مالفوني نفسها: آه، إنّها تحلم بالأشجار الكبيرة في

twitter @baghdad_library

بربادوس. أهي أكبر من أشجار الحديقة العامة. لابدّ أنّها أدغال على وجه اليقين.

قالت ونسم إنّها «آسفة لموت صديقك الطّيب في الحريق الكبير، وأدعو له، ترى كيف يموت الكثير من الملوّنين، حيث يقوم البيض بأمور كبرى. أحسب أنّك تظنّ أنّ هذا ليس بالسّؤال الّذي يليق بشخص ناضج. أرسل أي شيء آخر تحصل عليه إلى وندهام رود حيث سأقيم مع الصّغار عمّا قريب. يقول سوني إنّ لديه القليل لرحلته فلا تهتمّ إلاّ بأن تبقى في خير حال. زوجتك العزيزة السيّدة ونسم كلارك».

لم تكن مالفوني على معرفة بونسم أو بأحد من المقيمين في رقم ٣٠٠ إدجكوم أفنيو، على الرّغم من أنّ إحدى البنايات هناك كانت مليئة بأثرياء جزر الهند الغربيّة، الّذين لا يختلطون إلاّ فيما بينهم، وتفوح من نوافذهم رائحة توابل لم تتعرّفها. والأمر الرّئيسي الآن هو إرسال الرّقعة المتضمنة رحيل ونسم، والمتأخّرة بالفعل، إلى بنما، قبل أن يتمّ إرسال المزيد من النّقود إلى إدجكوم أفنيو حيث قد تحتجزها العمّة، ومن يدري إذا كانت مقيتة على نحو ما ذكرت ونسم (إنّها تضيف الماء إلى حليب الأطفال خلسة، وتضرب الصّغير الّذي لم يتجاوز الخامسة من عمره بالسّوط لعدم استخدامه جيّداً للمكواة السّاخنة الثّقيلة) فقد تحتفظ بالنّقود لنفسها. أعادت مالفوني إغلاق الرّسالة بحرص وحدّثت نفسها بأنّها ستضيف طابعاً آخر من فئة الفلس إذا ما كان ذلك من شأنه أن يعجّل بوصول الرّسالة إلى بنما.

كانت هناك رسالة واحدة تستحقّ الكثير من العناء والتّساؤل عمّا إذا كانت هي تستطيع كتابة مثل هذه الكلمات، دع جانباً أن تأتي ما أتته ووعدت بالمزيد منه. كانت الكاتبة تقيم في البناية الّتي يقطنها حبيبها. ولم تدر مالفوني ما الّذي جعلها تهدر طابع بريد من فئة الثّلاثين فلساً إلاّ متعة معرفة أنّ الحكومة توصل الرّسالة الّتي تحمل مشاعر تهيجها. وأجبرت مالفوني نفسها وقد علاها العرق وتسارع تنفّسها على قراءة الرّسالة عدّة مرّات، وكانت المشكلة هي ما إذا كان من المتعيّن تمريرها إلى السّيد م. سيج (هذا الاسم الّذي دعي به على غلاف الرّسالة، أمّا في الرّسالة المكتوبة على ورق رسائل ذي حافة مغراة فقد دعي بلقب التّدليل «دادي» بينما وقعت المرسلة باسم «حبيبتك دائماً هوت ستيم»). وقد انقضى شهر منذ كتبت الرّسالة، وربّما تساءلت ستيم عما إذا كانت قد مضت إلى أبعد ممّا ينبغي. أم ترى دادي سيج وستيم قد أتيا المزيد من تلك الأمور الوضيعة السّاخنة في غضون ذلك؟ أخيراً قرّرت إرسالها بالبريد مع حاشية ترفقها بها تدعو إلى التزام الحذر وتلفت نظر دادي إلى قصاصة من «أوبرتيونتي ماجازين».

فيما عكفت على إعداد هذه النّصيحة الغفل من التّوقيع، طرق جو تريسني بابها.

ـ كيف حالك يا مالفوني؟!

ـ لست أتذمّر. ماذا عنك؟

ابتسم ابتسامته السّهلة المنال، الرّيفيّة الطّابع، وقال:

ـ هل يمكنني الدّخول؟ لدي اقتراح أعرضه عليك.

twitter @baghdad_library

ـ ليس لديّ فلس واحد يا جو!

رفع ذراعه وتجاوزها إلى غرفة الجلوس، قائلاً:
ـ لا، لست بصدد البيع. أترين؟ إنّني لا أحمل معي صندوقي.
تبعته مالفوني إلى الأريكة:
ـ آه، طيّب، إذن. تفضّل بالجلوس.
قال:
ـ ولكن إذا كنت بصدد البيع. فماذا تؤثرين؟ أقصد إذا كان لديك فلس.
ـ كان ذلك الصّابون الأرجواني لطيفاً إلى حدّ ما.
ـ هو لك!
قالت مالفوني:
ـ انتهى في لمح البصر مع ذلك.
ـ الصّابون الفاخر يظلّ فاخراً، ولا يقصد به أن يدوم طويلاً.
ـ أعتقد ذلك.
ـ بقيت لدي صابونتان. وسأجلبهما حالاً
ـ ما الّذي أثار هذا؟ إنّك لست بصدد البيع، وإنّما تقدّم الصّابون مجّاناً. فلأي سبب؟

قالتها مالفوني، ملقية نظرة على السّاعة الموضوعة على رفّ المائدة، مخمنة كم من الوقت يتعيّن عليها أن تحادث جو وأن تبعث رسائلها بالبريد قبل الانطلاق إلى العمل.
ـ تستطيعين القول إنّه إسداء لمعروف.
ـ أو قد يمكنني القول بعكس ذلك؟

ـ ستقولين إنّه معروف. معروف تسدينه لي، ولكنّه بالنّسبة لك يعني قليلاً من المال.

ضحكت مالفوني، قائلة:

ـ اكشف النّقاب، يا جو، هذا شيء لا دَخْلَ لفيوليت به؟

ـ طيّب. إنّها. هذا الأمر. فيو. لن أزعجها بهذا الأمر، كما تعرفين؟

ـ لا حدّثني بجليّة الأمر.

ـ طيّب. أودّ استئجار شقّتك.

ـ ماذا؟

ـ مجرّد أصيل أو أصيلين، بين الحين والآخر، عندما تكونين في العمل، لكنّني سأدفع عن الشّهر بكامله.

ـ ماذا وراءك يا جو؟! إنّك تعلم أنّني أعمل ليلاً

ربّما كان الاسم خدعة والعنوان حيلة، وجو هو «دادي» يلتقط البريد في مكان آخر ويزعم لستيم أنّ أسمه سيج.

ـ أعرف أنّ نوبة عملك ليليّة، لكنّك تغادرين في الرّابعة.

ـ إذا كان الجو لطيفاً بما يسمح بالسّير فهذا ما أفعله. ومعظم الوقت ألحق بحافلة الخامسة والنّصف.

ـ لن يكون الأمر كلّ يوم، يا مالفوني!

ـ لن يكون في أي يوم؛ فلست أحبّ ما تقترحه عليّ.

ـ دولاران عن كلّ شهر.

ـ أتحسب أنّني بحاجة إلى نقودك أو إلى صابونك الرّديء النّوع؟

ـ كلاّ، كلاّ، يا مالفوني! دعيني أوضح الأمر! فليس هناك نساء كثيرات مثلك يتفهمن المشكلات الّتي يعانيها الرّجال مع زوجاتهم.

twitter @baghdad_library

ـ أي نوع من المشكلات؟

ـ طيّب. فيوليت. تعلمين كم هي غريبة منذ تبدّلها.

ـ فيوليت غريبة من قبل ذلك. غريبة في العام ١٩٢٠ فيما أتذكّر.

ـ نعم، طيّب. ولكن الآن.

ـ جو، إنّك تريد استئجار غرفة سويتنس لإحضار امرأة أخرى إلى هنا خلال غيابي لمجرّد أنّ فيوليت لا تريد أن يكون لها بك شأن. من تظنّني؟ ليكن، ليس هناك ودّ مفقود بيني وبين فيوليت، ولكنّني أقف إلى جانبها، وليس إلى جانبك، أيّها الكلب العجوز!

ـ أصيخي السّمع لما أقول يا مالفوني!

ـ من عساها تكون؟

ـ لا أحد، أقصد لست أعرف بعد. كلّ ما هنالك أنّني حدّثت نفسي.

ـ ها! إذا صادفك الحظّ مع حمقاء فإنّ المكان متاح؟ أهذا ما حدّثت نفسك به؟

ـ شيء من هذا القبيل. وقد لا أستخدم المكان، ولكنّني أريده على سبيل الاحتياط، لسوف أدفع النّقود سواء استخدمته أم لم أستخدمه.

ـ خمسون فلساً في بعض الدّور تجلب لك المرأة والأرضيّة والجدران والفراش. دولاران يجلبان لك امرأة على متن درّاجة بخاريّة جديدة إذا شئت.

ـ آه، لا، يا مالفوني. لا، لقد أسأت فهمي تماماً. لست أريد امرأة التقطها من الشّارع. أعوذ بالله!

ـ لا؟ ومن تظنّ أنّها سترضى بالتسكّع معك إلاّ امرأة طريق؟

ـ مالفوني، كلّ ما آمله هو العثور على صديقة راقية، امرأة أحادثها.

ـ من وراء ظهر فيوليت؟ ولماذا تسألني بصدد امرأة تنشدها لفراش دافئ. يبدو من الخير أن تسأل رجلاً مقيتاً مثلك عن هذا الأمر.

ـ فكّرت في ذلك. لكنّني لا أعرف رجلاً يقطن وحيداً، والأمر ليس مقيتاً. رويدك، يا فتاة. إنّك تطردينني إلى الشّارع. إنّ ما أطلبه أفضل أليس كذلك؟ بين الحين والآخر سأزور المكان مع سيّدة جديرة بالاحترام.

ـ جديرة بالاحترام؟

ـ ذلك صحيح. جديرة بالاحترام. قد تكون وحيدة، أو لديها أطفال، أو.

ـ أو زوج لديه مطرقة.

ـ لا شيء من ذلك القبيل.

ـ وإذا ما اكتشفت فيوليت الأمر. ما عساني أقول لها؟

ـ لن تكتشفه.

ـ افترض أنّني سأبلغها.

ـ لن تفعلي ذلك. ولِمَ تأتين مثل هذا الأمر؟ إنّني مازلت أرعاها، ولا أحد يلحقه ضرر، وتحصلين على نصف دولار كلّ أسبوع، بالإضافة إلى من يرعى شقّتك خلال غيابك، تحسّباً لرجوع سويتنس أو اقتحام شخص للمكان بحثاً عنه دونما اكتراث بما يدمّره لأنّك امرأة.

ـ ستقتلني فيوليت.

ـ ليس لك بالأمر صلة، فلا علم لك قطّ بموعد حضوري، ولن

twitter @baghdad_library

تري أي شيء، وسيكون كلّ شيء على نحو ما تركته لدى مغادة المكان، باستثناء ما إذا كان هناك ما تريدين إصلاحه لك. ولن تري شيئاً إلاَّ بعض التّغيير على المائدة هناك أحدثه لسبب لا تعرفين عنه شيئاً. أفهمت؟

ـ آه.

ـ جرّبيني، يا مالفوني، لمدّة أسبوع، أسبوعين. وإذا غيّرت رأيك في أي، أي وقت، ما عليك إلاَّ ترك نقودي على المائدة وسوف أعلم أنّك تقصدين أن أتوقّف. ويقيناً، ستجدين مفتاح الباب في موضعه مادمتِ حيّةً.

ـ آه.

ـ إنّها دارك. قولي لي ما تريدين إنجازه، ما تريدين إصلاحه، وحدّثيني بما لا تحبّين، ولكن صدّقيني، يا فتاة، لن تعرفي ما إذا كنت قد جئت أو لم أجئ، ومتى يكون ذلك، باستثناء توقّف الماء عن التّقاطر من صنبورك لدى إغلاقه.

ـ آه.

ـ الشيء الوحيد الّذي تعرفينه هو أنّه في كلّ يوم سبت، ابتداء من الآن ستحصلين على نصف دولار تضعينه في وعاء حفظ السكّر.

ـ ثمن غال تدفعه لقاء حوار قصير.

ـ سيدهشك ما توفّرينه إذا قمت بما أودّ أن أقوم به وأقلعت عن الشّراب أو التّدخين أو المقامرة أو دفع العشور.

ـ ربّما ينبغي عليك القيام بذلك.

ـ لست أريد شيئاً خسيساً، لست أريد السّهر في النّوادي اللّيلية وما إلى ذلك، وكلّ ما أريده صحبة نسائيّة لطيفة.

ـ يبدو أنّك واثق كلّ الثّقة من أنّك ستعثر عليها.

ابتسم «جو».

ـ لست واثقاً، ومع ذلك لابأس، لابأس على الإطلاق.

ـ لا رسائل.

ـ ماذا؟

ـ لا ملاحظات لتوصيلها، ولا رسائل، إنّني لا أوصل أي رسائل.

ـ بالطّبع، لا، لست أريد شيئاً مكتوباً. إمّا أن نتحدّث هنا أو لا نتحدّث على الإطلاق.

ـ لنفترض أنّ شيئاً طرأ، وأردت أو أرادت هي إلغاء الموعد.

ـ لا تقلقي بشأن ذلك.

ـ لنفترض أنها مرضت، ولا تستطيع المجيء، وتحتاج إلى تعريفك بذلك.

ـ سأنتظر، ثمّ أغادر المكان بعد ذلك.

ـ لنفترض أنّ أحد الأطفال أصيب بمرض، وعجز الجميع عن العثور على الأمّ لأنّها جاثمة معك في موضع ما؟

ـ ولِمَ تقولين إنّ لديها أطفالاً؟

ـ ألا تساير امرأة إذا كان أطفالها صغاراً يا «جو»!

ـ ليكن!

ـ ذلك يعني مطالبتي بأكثر من الكثير.

ـ ليس عليك التّفكير في أي شيء من هذا القبيل، فأنت لست طرفاً في الموضوع. هل حدث قطّ أن رأيتني أسيء التّصرف مع أحد؟ لقد أقمت في هذه البناية وقتاً أطول ممّا أقمت أنت فيها، فهل سمعت قطّ كلمة ضدّي من أيّ امرأة؟ إنّني أبيع مواد التّجميل في كلّ أرجاء المدينة،

twitter @baghdad_library

فهل سمعت قطّ أحداً يتحدّث بأنّني طاردت امرأة؟ لا لم يحدث قطّ أن سمعت شيئاً من ذلك، لأنّه لم يقدّر له الحدوث، والآن أحاول أن أخفّف عبء حياتي قليلاً مع سيّدة لطيفة، مثلما يفعل الرّجل المهذّب. ذلك كلّ ما في الأمر حدّثيني ما وجه الخطأ في ذلك؟

- فيوليت هي وجه الخطأ.

- فيوليت تهتمّ ببغائها أكثر ممّا تهتمّ بي. وباقي الوقت تقوم بطهي لحم خنزير لا أستطيع تناوله أو تقوم بفرد الشّعر، لست أطيق رائحة ذلك. قد تمضي الحياة على هذا النّحو بمن طالت حياتهم الزّوجيّة كما طالت حياتنا، ولكنّ السّكون المطبق، ليس بمقدوري احتمال السّكون المطبق، فهي لا تكاد تتكلّم، وليس مسموحاً لي بالاقتراب منها. وكان من شأن أيّ رجل آخر أن يمضي في طريقه حسبما يحلو له، وينطلق خارجاً في كلّ ليلة، وأنت تعلمين ذلك، إنّني لست على تلك الشّاكلة. لست على تلك الشّاكلة.

لم يكن كذلك بالطبع. لكنّه فعلها على أيّ حال. تسلّل، وتآمر، وانطلق خارجاً في كلّ ليلة طلبت الفتاة الخروج فيها. ذهبا إلى المكسيك، وارتادا الأسواق والنّوادي الّتي يتغيّر اسمها كلّ أسبوع. ولم يعد وحيداً. غدا رجل خميس، ورجال الخميس هم رجال مغتبطون. وبوسعي التّنبؤ من مظهرهم أنّ حبّاً محرّماً على وشك أن ينطلق أو هو بالفعل قد انطلق، وبلغ حدّ الإشباع. نهايات الأسبوع والأيّام الأخرى من الإسبوع هي احتمالات لكنّ الخميس هو اليوم الّذي يمكن الرّكون إليه. اعتدت الاعتقاد بأنّ ذلك يرجع إلى أنّ العاملين في المنازل ينالون إجازة في أيّام الخميس ويمكنهم الرّقاد في الصّباح في الفراش على نحو لا يتاح

في نهايات الأسابيع عندما ينامون في البيوت الّتي يعملون فيها أو يستيقظون في وقت مبكر جداً للوصول إليها بحيث لا يتاح لهم الوقت لتناول طعام الإفطار أو لأي نوع من العبث. ولكنّني لاحظت أنّ ذلك ينطبق أيضاً على الرّجال الّذين لا تعمل نساؤهم كخادمات أو عاملات بالنّهار وإنّما فتيات حانات وطاهيات مطاعم ينلن عطلة في أيّام الآحاد والاثنين. والمدرّسات والمغنيات بالمقاهي والطّابعات بالمكاتب والعاملات بحوانيت الأسواق يتطلّعن إلى العطلة يوم السّبت. تمعن المدينة التّفكير وتعدّ لنهاية الأسبوع، اليوم السّابق على دفع الأجور، واليوم اللاّحق له، النّشاط السّابق للسّبت، الحانوت الموصد وقاعة المدرسة السّاكنة وعقود المصارف المزوّدة بالمغاليق والمكاتب الغارقة في الظّلام.

من ثمّ لِمَ يبدو الإشباع والرّضا على الرّجال في يوم الخميس؟ ربّما يرجع ذلك إلى الإيقاع المصطنع للأسبوع، ربّما كان هناك شيء بالغ الزّيف في دورة الأيّام السّبعة بحيث لا يكترث بها الجسد، مفضّلاً الثّلاثيات والثّنائيات والرّباعيات وأي شيء إلاّ دورة سباعيّة يتعيّن كسرها إلى أجزاء إنسانيّة، ويحدث الانكسار في يوم الخميس. أمر لا سبيل إلى مقاومته، والتّوقعات الضّارية والمطالب غير المرنة المتعلقة بنهاية الأسبوع ملغاة في يوم الخميس. والنّاس يتطلعون إلى نهايات الأسبوع للارتباطات والمراجعات وحتّى عمليات الانفصال وذلك على الرّغم من أنّ كثيراً من هذه الأنشطة تصحبها خدوش، بل وبقعة دم، بحيث يحتدم الانفعال في الجمعة والسّبت.

ولكن من أجل الإشباع صافياً وعميقاً، من أجل التّوازن في اللّذّة

twitter @baghdad_library

والـرّاحـة ليـس هنـاك مـا يفـوق يـوم الخميـس، علـى نحـو مـا هـو جلـيّ من التّعبير المقتدر المرتسم على ملامح الرّجال ومشيتهم الظّافرة في الشّـارع. ويبـدو أنّهـم يحقّقـون نـوعـاً مـن الاكتمـال فـي ذلـك اليـوم يجعلهم يمضون على أقدامهم بقدر من الثّبات بحيث يبدون متمتعين بـالرّشـاقـة حتّى وإنْ لـم يكـونـوا كـذلـك. إنّهـم يسيطـرون علـى مـركـز الممشى الجانبي، ويصفّرون في رقّة عند أبواب يلفّها الظّلام.

ذلـك لا يـدوم بـالطّبـع، وبعـد أربـع وعشـريـن سـاعـة يسـري فيهـم الخوف من جديد، ويستردون ذواتهم بالاستعانة بأي عجز في متناول أيديهم. وهكذا فإنّ نهايات الأسبوع المقدّر لها أن تثير الشّعور بخيبة الأمل هـي أيّام حادّة مشاكسة حافلة بالخدوش والكدمات. الأمور الّتي تبعث الشّعور بالنّدم، الملاحظات الخشنة والكريهة، الكلمات الّتي تصبح مصدر اضطراب لا يهدأ في القلب ـ لا شيء من ذلك يحدث في يوم الخميس. وأحسب أنّ الرّجل الّذي قدّر له هذا اليوم من شأنه أن يكرهه، لكنّ الحقيقة هي أنّ يومه هو يوم الحبّ في المدينة وصحبة الرّجال المغتبطين، وهم يدفعون النّساء للابتسام، والأنغام الّتي تنطلق من بين أسنان مكتملة تسجّلها الذّاكرة ويتمّ التقاطها فيما بعد، وتكرارها أمام موقد المطبخ، وأمام المرآة قرب الباب ستحوّل إحداهنّ رأسها جانباً، وتميس بقدّها، منتشية بخصرها وشكل ردفيها.

هنالك، عالياً، في ذلك الجزء من المدينة، وهو الجزء الّذي يقصدونه، يمكن للنغمة الصحيحة الّتي ينطلق الصّفير بها في رواق أو تتصاعد من دوائر أسطوانة أن تغيّر المناخ، من التجمّد إلى الحرارة إلى البرودة.

شأن ذلك اليوم من أيّام تمّوز (يوليو)، قبل تسع سنوات تقريباً، عندما سيطرت البرودة على الجميلين. وقفت أليس مانفريد ثلاث ساعات في الجادة الخامسة في طقس صيفي دبق، وباهر الضّياء، كالعهد به في هذا الوقت من العام، مندهشة حيال الوجوه السّوداء الباردة، ومصغية لقرع الطّبول، ومتلفّظة بما لم يستطع النّسوة الرّشيقات والرّجال المنطلقون في المسيرة قوله. أمّا ما كان من الممكن قوله فقد كتب بالفعل على راية كرّرت وعدين وردا في إعلان الاستقلال، وتموّجت في الهواء فوق حاملها. لكن ما كان مقصوداً صدر عن الطّبول. كان ذلك في تمّوز (يوليو) ١٩١٧ والوجوه الجميلة باردة وهادئة وتتحرّك على مهل إلى الفراغ الّذي تكرّسه الطّبول لها.

بدا لأليس، خلال المسيرة، كما لو أنّ النّهار قد انقضى، واللّيل كذلك، ومع ذلك فقد وقفت هنالك، ويد الطّفلة الصّغيرة في كفّها، وهي تحدّق في كلّ وجه بارد يمرّ. آلمتها الطّبول والوجوه المتجمدة، لكنّ الألم كان خيراً من الخوف، وقد عرفت أليس الخوف طويلاً، خافت أولاً من إلينوي، ثمّ من سبرنجفيلد بولاية ماساشوستس، ثمّ من الجادة الحادية عشرة، والجادّة الثّالثة، ومن بارك أفنيو. وقد شرعت مؤخّراً في الشّعور بعدم الأمان في أي مكان إلى الجنوب من الشّارع العاشر بعد المائة. وكانت الجادّة الخامسة بالنّسبة لها هي المكان الأكثر إثارة للخوف، ففي ذلك العهد كان الرّجال البيض يطلّون منحنين من السّيارات، وأوراق نقد ماليّة مطويّة

twitter @baghdad_library

تطلّ أطرافها من أيديهم. كان ذلك هو المكان الّذي يتلمّسها فيه الباعة الجائلون، هي وحدها، كأنّما هي جزء من البضائع الّتي راكموها ليبيعوها إيّاها. كان النّسيج الرّقيق المطلوب إذا ما كانت الإدارة من الكرم بحيث تسمح لك بتجربة بلوزة في المتجر (لكنّها لا تسمح بتجربة قبعة). كان ذلك مكاناً لا يتاح لها، هي المرأة الخمسينيّة الّتي تحيا معتمدة على نفسها، أن تحظى بمناداتها فيه بلقبها، مكان كانت النّسوة اللاّتي يتكلّمن الإنجليزيّة فيه يبادرن بالقول: «لا تجلسي هنا، يا عزيزتي، فليس بمقدورك أن تعرفي قطّ ما يعانون منه». فيما درجت النّسوة اللاّتي لا يعرفن الإنجليزية إطلاقاً، واللاّتي لن يقدّر لهنّ قطّ امتلاك زوج من الجوارب الحريريّة، على الابتعاد عنها إذا جلست إلى جوارهنّ في الحافلة.

الآن، عبر الجادّة الخامسة من طرف الرّصيف إلى طرف الرّصيف الآخر، أقبل دفق من الوجوه السّوداء الباردة، يلفّها الصّمت ولا تطرف عيونها لأنّ ما قصدت قوله ولم تثق في نفسها بالقدر الكافي لقوله قد قالته الطّبول عنها، وما رأته بعينيها ومن خلال أعين الآخرين وصفته الطّبول حتّى الكمال. أحدث الألم أثره فيها، ولكن الخوف انحسر أخيراً. وضعت الجادّة الخامسة في بؤرة الاهتمام الآن وكذلك حمايتها للطفلة الّتي تكفلها والّتي عرفت اليتم مؤخّراً.

منذ ذلك الوقت فصاعداً أخفت شعر الطّفلة في صورة جدائل مدسوسة تحت ما تعتمره حتّى لا يراه الرّجال البيض مُنْسَدِلاً حول كتفيها، فيدفعون نحوها بأصابع لفت بالأوراق النقديّة، وأصدرت التعليمات لها بالصّمم والعمى، وكم هما مفيدان وضروريان في

صحبة النّسوة البيضاوات اللّاتي يتكلّمن الإنجليزيّة واللّاتي لا يتكلّمنها، وكذلك في حضور أطفالهن. علمتها كيف تنسلّ إلى جوار جدران المباني وتختفي في الأروقة، وتختصر المسافات عبر الأركان عندما تصل حركة المرور إلى مرحلة الاختناق، كيف تقوم بأي شيء، وتتحرّك في أي مكان لتجنب صبي أبيض يتجاوز عمره الحادية عشرة. وكان من الممكن إنجاز الكثير من هذا بمظهرها، ولكن مع نموّ الصّغيرة كان لابدّ من وضع ضوابط أكثر تعقيداً في موضعها. فالأحذية ذات الكعب العالي والشّرائح الجلديّة الرّشيقة عبر قوس القدم، القبعات الفاتنة الّتي تضغط على الرّأس بحافات أنيقة مؤطّرةً الوجه، وأدوات التّجميل من أي نوع ـ كلّ ذلك كان محظوراً في دار أليس مانفريد، وخاصّة السّترات المدلاة على نحو خفيض دون تزريرها وإنّما تضمّ على الجسم مثل رداء الحمّام أو المنشفة، فترغم النّساء اللّاتي يرتدينها على الظّهور بمظهر من خرجن لتوّهن من مغطس الحمّام وغدون متأهبات للفراش.

وفي قرارة نفسها كانت أليس تعجب بهذه المعاطف وبالنّسوة اللّاتي يرتدينها، فهي قد خاطت بطانات لها، عندما كانت تشعر بالميل للعمل، وقد اضطرت إلى الالتفات والنّظر مرتين عندما انطلقت فرقتا «جاري نورث إيسترز» و«سيتي بيلز» عبر الجادة السّابعة، وبدت فتياتها أنيقات. لكنّ أليس أوصدت المغاليق على هذه النّشوة المرقّشة بالجسد، ولم تدع للفتاة مجالاً لإدراك إعجابها بهذه الملابس الّتي توحي بالتأهب للانطلاق إلى الفراش في الشّوارع، وحدّثت الأختين ميللر، اللّتين تقومان برعاية الأطفال الصّغار خلال النّهار للأمّهات العاملات خارج الدّور، بحقيقة مشاعرها،

twitter @baghdad_library

ولم تكن الأختان بحاجة للإقناع، إذ كانتا في حالة ترقب ليوم الحساب منذ أثني عشر عاماً، وتنتظران حلول الشّعور العذب بالارتياح الّذي يحمله معه في أيّة لحظة، وقد قامتا بإعداد قوائم بكلّ مطعم ومقهى وناد يبيع المشروبات الروحيّة، وما كانتا لتتردّدان في إبلاغ الشرطة عن أصحابها وروّادها لولا أنّهما اكتشفتا أنّ مثل هذه الأنباء لم تكن مصدر ضيق فحسب في مخفر راكيت، بل لم يكن فيها غَناءٌ كذلك.

عندما كانت أليس مانفريد تتوجّه لاصطحاب الصّغيرة من دار الأختين ميللر، في تلك الأمسيات الّتي تعقب أيّام الاحتياج لتطريزها الدّقيق، كانت النّسوة الثّلاث يجلسن في المطبخ لتبادل الحديث المترع بالتّنهدات والأشجان وهنّ يتناولن أقداح الشّاي عن علامات قيام السّاعة الوشيك، مثل الكشف للعيان لا عن الكواحل وحدها وإنّما عن الرّكب كذلك، وأحمر الشّفاه الّذي يشبه لظى الجحيم، وأعواد الكبريت المحترقة الّتي تمسّ بها الحواجب، والأظافر الّتي تطلى بلون الدّم ـ ما عاد بمقدورك أن تحدّدي من هنّ العاهرات ومن هنّ الأمّهات. والرّجال، كما تعلمين، لا يمكن أن تكرّري أمام الأطفال الأشياء الّتي لا يكترثون إذ يقولونها بصوت عال لأي امرأة تمرّ بهم. ويقينا أنهنّ ما كنّ يعرفن جليّة الأمر على وجه اليقين، ولكنهن يخامرهن الظنّ بأنّ الرّقصات هي أكثر من كريهة لأنّ الموسيقى تزداد سوءاً مع كلّ موسم ينقضي وينتظره الربّ قبل أن يعلن مشيئته. والأغنيات الّتي كانت عادة تبدأ في الرّأس وتملأ القلب قد انحدرت أسفل فأدنى إلى ما دون النّطاق والحزام المحكم، أدنى، فأدنى، إلى أن غدت الموسيقى متدنية حتّى الاضطرار إلى إغلاق

نوافذك والتعرّض لحرّ الصّيف وعرقه، عندما يدفع الرّجال المرتدون القمصان ذات الأكمام بأنفسهم إزاء أُطرُ النّوافذ أو يتجمَّعون على السطوح وفي الأروقة وشقق الأقارب الّذين يديرون أسطوانات الموسيقى الوضيعة الّتي تشير إلى قرب قيام السّاعة. أو عندما تغنّي امرأة تحمل طفلاً على كتفها ومقلاة في يدها: «أتقلب على وسادتي حيث كان رجلي الرّقيق عادة. ما أطول غيابه، ما أطول غيابه، ما أطول غيابه!» لأنّك يمكنك سماعها في كلّ مكان، حتّى ولو كنت تقطن، كما هو حال أليس مانفريد والأختين ميللر، في كليفتون بليس، حيث شجرة مورقة تعلو ستين قدماً على مسافة مائة قدم من سابقتها، شارع هادئ تصطف قرب رصيفه خمس سيارات على الأقلّ، فإنّك تستطيع سماعها كذلك، وليس هناك مجال للخطأ بشأن تأثيرها على الأطفال الّذين تقوم الأختان ميللر برعايتهم، إذ يرفعون رؤوسهم ويُظهرون أردافاً مثيرة للسخرية لم تتشكّل في صورتها النّهائيّة بعد.

حدّثت أليس نفسها بأنّ الموسيقى الوضيعة (وهي في إلينوي أسوأ منها هنا) لها علاقة بالنّسوة والرّجال السّود الصّامتين المنطلقين في مسيرة الجادة الخامسة للإعراب عن غضبهم بشأن سقوط مائتي قتيل، في إيست سانت لويس، كان اثنان منهم أختها وزوج أختها، في حوادث شغب. وقد قتل الكثير من البيض حتّى إنّ الصّحف لم تنشر الرّقم.

يقول بعضهم إنّ القائمين بالشّغب كانوا من قدامى المحاربين السّاخطين، الّذين حاربوا في وحدات تضمّ جنوداً من كلّ الألوان، وقد حجبت عنهم خدمات رابطة الشّبان المسيحيين هنا وهناك، وعادوا

twitter @baghdad_library

إلى الوطن ليواجهوا عنفاً أبيض أشد احتداماً ممّا كانوا يواجهونه عندما تطوعوا للخدمة العسكريّة، وعلى عكس المعارك الّتي خاضوها في أوروبّا فقد كان القتال الأمريكي بلا رحمة ومجرداً تماماً من الشّرف. وقال آخرون إنّهم كانوا من البيض الّذين أفزعتهم موجة الزّنوج الجنوبيين الّذين تدفّقوا على المدن باحثين عن عمل وأماكن للسكنى، وقد فكّر قلائل في الأمر وقالوا ما أشدّ إحكام السّيطرة على العمّال الّذين لن يقدر لأحدهم (شأن سلطعونات في برميل لا تحتاج إلى غطاء ولا عصا ولا حتّى مراقبة لرصدها) أن يفلت من البرميل.

غير أنّ أليس اعتقدت أنّها تعرف الحقيقة خيراً من الجميع، فلم يكن زوج أختها من قدامى المحاربين وكان يقطن في إيست سانت لويس منذ ما قبل الحرب، كما أنّه لم يكن بحاجة إلى عمل رجل أبيض، إذ كان يمتلك قاعة للعب البليارد، بل لم يكن له في حقيقة الأمر حتّى ضِلْع في الشّغب، ولم يكن لديه أسلحة، ولم يواجه أحداً في الشّارع، وإنّما تم انتزاعه من سيّارة عامّة وضرِب بأدوات ثقيلة حتّى الموت. كان النّبأ قد بلغ أخت أليس لتوّها ومضت إلى الدّار لمحاولة نسيان لون أحشائه عندما تمّ إشعال النّار في الدّار، فتحوّلت إلى كتلة من اللّحم المحترق في ألسنة لهب الحريق. ولم تسمع ابنتها الوحيدة، دوركاس، الّتي كانت تبيت على الجانب الآخر من الشّارع مع صديقتها الأثيرة، صوت قعقعة عربة إطفاء الحريق وزمجرتها وهي تنطلق في الشّارع، لأنّ هذه العربة لم تحضر عندما تمّ استدعاؤها. ولكن لابدّ أنّها قد شاهدت ألسنة اللّهب، لابدّ، لأنّ الشّارع بأسره كان يصرخ. لم تقل شيئاً قطّ. لم تقل شيئاً قطّ عن هذا الأمر، شيّعت جنازتين في خمسة أيّام ولم تتفوه قطّ بكلمة.

حدّثت أليس نفسها. لا، لم يكن الأمر راجعاً إلى الحرب وقدامى الحرب السّاخطين، ولا إلى الحشود وراء الحشود من الملوّنين المتدفّقين بحثاً عن الأجور، ولا إلى الشّوارع المليئة بهم، وإنّما إلى الموسيقى، الموسيقى القذرة الدّاعية إلى السّقوط الّتي يغنّيها النّساء والرّجال ويرقصون عليها معاً متقاربين وبلا حياء، أو متباعدين والضّراوة تستبدّ بهم. كان هذا هو ما اقتنعت به أليس وكذلك الأختان ميللر وهنّ ينفخن في أقداح البوستوم في المطبخ. فهي تدفعك إلى القيام بأشياء حمقاء ومختلّة، ومجرد الاستماع إليها يشبه انتهاك القانون.

لم يكن هناك شيء من ذلك في مسيرة الجادّة الخامسة، لم يكن هناك إلاَّ الطّبول وفتية الكشّافة الملوّنون الّذين يوزعون منشورات إيضاحيّة على الرّجال البيض المعتمرين القبعات المصنوعة من القشّ، والّذين يحتاجون إلى معرفة ما كانت الوجوه المتجمدة تعرفه بالفعل. وقد التقطت أليس منشوراً سقط على مهل على الرّصيف، وقرأت الكلمات، ونقلت ثقلها بين ساقيها فوق طرف الرّصيف، قرأت الكلمات ونظرت إلى دوركاس، نظرت إلى دوركاس وقرأت الكلمات من جديد، وبدا ما قرأته مجنوناً، وبعيداً عن التّركيز. وترامت هوة هائلة بين الورقة المطبوعة والطّفلة، ونقّلت نظراتها بينها باحثة بعناء عن الصّلة، عن شيء يردم المسافة بين الطّفلة الصّامتة المحدّقة والكلمات الزّلقة المجنونة، ثمّ فجأة، وكحبل يمدّ للإنقاذ، غطّت الطّبول هذه المسافة، وجمعتهم كافّة، وربطت بينهم: أليس، دوركاس، أختها، زوج أختها، فتية الكشّافة، الوجوه السّوداء

twitter @baghdad_library

المتجمدة، المشاهدين على الرّصيف، ومن يطلّون من النّوافذ فوقهم.

حملت أليس معها على الدّوام الحبل الّذي ضمّ الجميع بعد ذلك اليوم في الجادّة الخامسة، ووجدته آمناً ومحكماً على نحو يُعتمد عليه معظم الوقت، باستثناء الوقت الّذي يجلس فيه الرّجال على حافة النّوافذ ساخرين وصانعين قروناً بأصابعهم، والنّسوة يتساءلن «ما أطول الزّمن!». عندئذٍ ينقطع الحبل، فيضطرب شعورها بالسّلام، الأمر الّذي يجعلها تشعر باللّحم وبشيء ينطلق حرّاً حتّى لتستطيع أن تشمّ رائحة دمه، ويجعلها تدرك حياته تحت النّطاق وبطلاء شفته الأحمر. وعرفت من الخطب ومن المقالات الافتتاحيّة أنّها ليست موسيقى حقيقيّة ـ مجرّد موسيقى ملونين، مضرّة، وبالتأكيد محرجة، بالطّبع، ولكنّها ليست حقيقيّة، وليست جادّة.

ومع ذلك فقد أقسمت أليس مانفريد أنّها سمعت فيها غضباً معقّداً، شيئاً معادياً تنكّر كازدهار وإغواء راعد. ولكنّ الشيء الّذي كرهته أكثر من غيره كان شهيتها، حنينها إلى الضّربة العنيفة، إلى الشقّ الحادّ، نوع من الجو اللّامبالي إلى مشاجرة أو إلى دبوس زيني من عقيقة حمراء كرباط للعنق، وفي أي منها الكفاية والغناء. ادعت هذه الموسيقى السّعادة، وزيّفت التّرحاب، ولكنّها لم تجعل أليس تشعر بالسّخاء، يا لذلك المهلى الرّخيص، يا لبرميل الخمر الرّديئة، يا لدار لقاء الشّواذ، يا للموسيقى! جعلتها تجمع قبضتها في جيب ميدعتها للامتناع عن دفعها بقوّة ساحقة عبر زجاج النّافذة لانتزاع العالم واعتصار الحياة منها لارتكابها ما قامت به، وقامت به، وقامت به، حيال وحيال شخص آخر عرفته أو عرفت بأمره. من الأفضل

إغلاق النّوافذ والمصاريع ومعاناه العرق المنهمر في قيظ صيف شقّة صامتة في كليفتون بليس على المخاطرة بنافذة مشّهمة أو بعواء لا يعرف أين أو كيف يتوقّف.

لقد رأيتها تمرّ بمقهى أو بنافذة لا ينسدل عليها ستار عندما تتناهى عبر الهواء جملة أو أخرى «الطمني ولكن لا تهجرني!» وراقبتها وهي تمدّ إحدى يديها لحبل النّجاة الّذي يضمّ الجميع والّذي ألقي إليها قبل ثماني سنوات في الجادّة الخامسة، وتلملم اليدّ الأخرى في صورة قبضة في جيب سترتها. ولست أدري كيف فعلت ذلك، أي موازنة نفسها بإشارتين مختلفتين باليد، ولكنّها لم تكن وحدها في المحاولة، ولم تكن بمفردها في الخسارة، فقد كان من المستحيل إبقاء طبول الجادّة الخامسة منفصلة عن نغمات الحزام الّتي تنساب من آلات البيانو وتتلوّى على كلّ فيكترولا مستحيل. بعض اللّيالي مترعة صمتاً، لا محرّك سيّارة يدمدم في مدى تناهي الصّوت للأذن، ولا سكارى أو أطفال استبدّ بهم القلق يبكون طلباً لأمهاتهم، وتفتح أليس أي نافذة تريدها، ولا تسمع شيئاً على الإطلاق.

وإذ تتساءل عن هذه اللّيلة الصّامتة على نحو مطلق، فإنّ بمقدورها العودة إلى الفراش، ولكن ما إن تقلب الوسادة على جانبها الأكثر نعومة وبرودة، حتّى يغني نفسه عالياً، ودون أن يدعوه أحد، خطّ لحني لا تتذكّر مصدره، هامساً في أذنها: «عندما كنت شاباً، وفي ريعاني، كان بمقدوري الحصول على امرأتي(*) في أي وقت موغل

(*) في الأصل my barbecue والمقصود، بالطّبع، ليس ما توحي به الكلمة في معناها الّذي

twitter @baghdad_library

في القدم». إنّها كلمات متهورة، تفيض طمعاً، ومتسيّبة تدعو إلى الشّعور العارم بالغضب، ولكن يصعب التّخلص منها، لأنّها في الأعماق، وممسكة بالتّسبب كغصن غار، وفيها تكمن الطبول التي وضعت الجادّة الخامسة في بؤرة الأحداث والتّركيز.

ولم تكن ابنة أختها، بالطّبع، تعاني من تلك المشكلة، فقد أعادت أليس تربيتها، وقامت بتهذيب سلوكها منذ صيف ١٩١٧، وعلى الرّغم من أنّ أوّل ذكرى لها عندما وصلت من إيست سانت لويس كانت الاستعراض الجنائزي لأبيها وأمّها، إلاّ أنّ دوركاس تذكّرته على نحو مختلف، وبينما اهتمّت خالتها بكيفيّة الحفاظ على القلب جاهلاً بالعجيزة وبالرأس مسؤولاً عن الاثنين معاً، رقدت دوركاس على فراش مدّ لها على الأرض من صوف له زئبر بارز، مستشعرة وخزاً خفيفاً، وسعيدة لأنّه لا وجود لمكان بقربه لا يلعق فيه أحدهم عصاه من عرق السّوس، مداعباً عاجياته، قارعاً جلود طبوله، نافخاً بوقه، بينما امرأة متمرسة تغنّي لن يهبط بي أحد، أصبت المفتاح يا صغيري لكنك أخطأت فتحة المفتاح، عليك به أحضره وضعه ها هنا مباشرة وإلاّ!

فيما كانت دوركاس تقاوم حماية خالتها ويديها اللّتين تكبحان الجماح راحت تفكّر في تلك الحياة أسفل الزّنار، حيث الحياة

يرد إلى الذّهن على الفور «الشِّواء» وإنّما من الواضح أنّ موريسون تحيلنا على الاستخدام الأسود للكلمة، وهو يعني امرأة جذّابة، وبخاصّة المرأة الّتي تستمتع أو تتيح للرجل نشوة الجنس الفموي. (هـ. م.).

بأسرها هنالك، وكانت الطّبول الّتي سمعتها في الاستعراض هي الجزء الأول فحسب، الكلمة الأولى، من أمر يصدر. فبالنّسبة لها كانت الطّبول حبل زمالة يضمّ الجميع، حبل انضباط، وتجاوز. وقد تذكّرتها كبداية، كانطلاق لشيء تتطلع إلى إكماله.

عودة إلى هناك في إيست سانت لويس، فيما الرّواق الصّغير يهوي، والخشب يتشظّى ـ ملتهباً ومندلعاً بالدّخان ـ وينفجر في الهواء. لابدّ أنّ إحدى الشّظايا قد دخلت فمها المتدلي في ذهول وهبطت من زورها لأنّها ماتزال تدخن وتتوهج هناك. لم تدعها دوركاس تخرج قطّ، ولم تطفئها قطّ. في البداية ظنت أنّها إذا تحدّثت عنها فإنّها ستدعها وشأنها، أو أنّها ستفقدها عبر فمها. وعندما اصطحبتها خالتها بالقطار إلى المدينة، وسحقت يدها فيما هما تشاهدان استعراضاً متطاولاً، ازدادت شظية الخشب المتوهجة غوصاً وتعمقاً إلى أن استقرّت مطمئنة في موضع ما تحت سرتها. شاهدت الرّجال السّود الّذين لا يطرف لهم جفن، وأكّدت لها الطّبول أن الوهج لن يفارقها قط، وأنّه سينتظرها وينتظر معها عندما تريده أنّ يمسّها، وعندما أرادت أن ينطلق ويتواثب متحولاً إلى حريق من جديد فإنّ ما كان يحدث كان يغدو سريعاً، كالدّمى.

لابدّ أنّها كانت ستمضي سريعاً، فهي في نهاية المطاف خشب يودع في صندوق للسيجار. سيحدث ذلك للتنورة المصنوعة من ورق المحارم الأحمر الّتي ترتديها روشيل في التوّ، شش، مثل عود كبريت، ثمّ حرير برنادين الأزرق، ثمّ غطاء رأس فاي القطني الأبيض، ستلتهم النار سيقانها، وتسودها أولاً بنفسها الملتهب، وبأعينها المستديرة مع الأهداب والجفون الّتي طلتها بعناية بالغة،

twitter @baghdad_library

سترقب نفسها وهي تختفي. تجنبت دوركاس التّفكير في التّابوت الضّخم هنالك في الأمام، على بعد أقدام قليلة من قدميها، وفي رائحة الدّواء الّتي تفوح من الخالة أليس الجالسة إلى جوارها، وذلك بالتّركيز على روشيّل وبرنادين وفاي الّتي لن تقام لها جنازة على الإطلاق، وجعلها ذلك جريئة، وحتّى وهي في المدرسة الابتدائية في التّاسعة من عمرها كانت جريئة. وأيّاً كان إحكام جدائلها ودسّها تحت ما تعتمره، وأياً كان اهتراء حذائها العالي المقدّمة الّذي يغطّي الكاحلين اللّذين تكشفهما الفتيات الأخريات في أحذية أكسفورد الخفيضة التّصميم وأياً كان سواد وغلظ جواربها، فإنّه ما من شيء أخفى الجرأة الّتي تأرجحت تحت تنورتها الحديديّة، والنّظارات لم تستطع أن تضفي الغموض عليها، ولم تتمكن من ذلك البثور التي جلبها إلى بشرتها الحساء البنّي العسير الابتلاع والغذاء المختلّ التّركيب.

عندما كانت دوركاس صغيرة في السنّ، وافقت أليس مانفريد على القيام بالحياكة لمدّة أشهر أو شهرين، وقامت الأختان ميللر على رعاية دوركاس، بعد خروجها من المدرسة. وكان هناك أربعة أطفال آخرين غالباً، وفي بعض الأحيان طفل واحد. كان لعبهم هائداً ومقتصراً على مساحة صغيرة من غرفة الطّعام. وكانت الأخت ذات الذّراعين، فرانسيس ميللر، تقدّم لهم شطائر زبد التّفاح ليتناولوها، أمّا الأخت ذات الذّراع الواحدة، «نيولا»، فكانت تقرأ لهم سفر المزامير. وكان الانضباط الصّارم تخفّ حدّته بين الحين والآخر عندما تغفو فرانسيس على مائدة المطبخ، ثمّ قد تشعر نيولا بالسّأم من الضّغط الّذي تفرضه الآيات على صوتها، وتختار طفلاً ليشعل

عود ثقاب لسيجارتها، وتنهل ثلاث مجّات من الدّخان بل أقلّ، وثمّة شيء في هذه الإيماءة يحرّك شيئاً ما في أعماقها، وتمضي في سرد قصصها التّحذيريّة. غير أنّ قصصها الّتي تدور حول الطّيبة في سلوك الأخيار كانت تتهاوى أمام الابتهاج النّابع من الخطيئة الّتي يستنكرونها.

والحقيقة هي أنّ الرّسالة الواردة في تعليماتها قد منيت بالفشل لأنّه بعد أسبوع من قيام خطيبها بوضع خاتم الخطبة في أصبعها غادر الولاية في حفل زفافها. وكان الألم الّذي أحدثه رفضه لها جلياً إذ التوت يدها كالقوقعة فوق قلبها حاملة الخاتم الّذي وضعه في موضعه، وكأنّما كانت تحمل الأجزاء المشهمة من قلبها معاً في انثناءة الذراع المتجمّدة، ولم يمسّ هذا الشّلل أي جزء آخر من جسمها، وكانت يدها اليمنى، الّتي تقلّب صفحات العهد القديم الرّقيقة كورق المحارم، أو تمسك بسجائر أولد جولد رافعة إياها إلى شفتيها، ممتدّة وثابتة. ولكنّ القصص الّتي حكتها لهم غدت أكثر إيلاماً من خلال هذه الضّمة المتشنجة للذراع إلى الصّدر. وقد حدّثتهم كيف أنّها قامت شخصيّاً بتقديم النّصح إلى صديقة باحترام نفسها وهجران رجل لم يكن بالمناسب لها، وفي نهاية المطاف وافقت الصّديقة ولكن خلال يومين، يومين! عادت إليه مباشرة. وليساعدنا الرّب جميعاً، ولم تحدّثها نيولا بعد ذلك قطّ. وحكت لهم كيف أنّ فتاة في مقتبل العمر، لا يتجاوز عمرها الرّابعة عشرة، قد تركت العائلة والأصدقاء لترحل لمسافة أربعمائة ميل سعياً وراء فتى التحق بالجيش، ولم يكن مصيرها إلاّ الهجران، لتتحوّل إلى العيش حياة عزلة تامّة في مدينة من مدن المعسكرات. وهكذا فإنّ بمقدورهم،

twitter @baghdad_library

أليس كذلك، أن يروا قوّة الخطيئة في صحبة عقل ضعيف؟ وحكّ الأطفال أنوفهم وأومأوا بالموافقة، ولكن دوركاس، على الأقل، أبهجها اتجاه اللّحم الذّائب والهشّ والفردوس الّذي يمكن أن يجعل امرأة تعود بعد يومين، يومين! أو يجعل فتاة تسافر أربعمائة ميل إلى مدينة معسكر أو يطوي ذراع نيولا، لإمساك شظايا قلبها في يدها الفردوس. كلّ شيء فداء الفردوس.

لدى بلوغها السّابعة عشرة كانت حياتها بأسرها لا تطاق. وعندما أفكّر في هذا الأمر أدرك حقيقة شعورها، فالأمر يغدو فظيعاً عندما لا يكون هناك على الإطلاق شيء للقيام به أو جدير بالقيام به إلاَّ الاستلقاء والأمل في أنّك عندما تكون عارياً لن يُضحك منك، أو أنّه عندما يمسك بنهديك لن يتمنّى أن يكونا على شكل آخر. فظيع، ولكنّه يستحقّ المخاطرة لأنّه ما من شيء آخر يمكن القيام به، رغم أنّك تقوم به طالما أنّك في السّابعة عشرة من العمر. الدّراسة، العمل، الحفظ عن ظهر قلب، مصنع الطّعام ولوك سير أصدقائك، الضّحك على الأشياء الّتي هي في وضعها الصّحيح وتلك المقلوبة رأساً على عقب، فلا أهمّية لذلك لأنّك لا تفعل الشيء الجدير بفعله، وهو الرّقاد في مكان ما في موضع خافت الإضاءة غارقاً في العناق ويدعمك جوهر الدّنيا.

فكّر كيف يكون الحال، إذا أفلحت في تدبّره، في مجرّد أن تتدبّره. وعندئذٍ ستخطّط لك الطّبيعة، ستحوّل نفسها إلى مأوى إلى طرف جانبيه، إلى وسائد لاثنين. أزح أطراف شجيرات اللّيلج لتخفضها بما يكفي لإخفائكما، والمدينة، بطريقتها الخاصّة، ستنحني لك،

وتتعاون معك، وتجعل أزقّتها ناعمة، وتعدّل أحجار أرصفتها، وتقدّم لك البطيخ والتّفاح الأخضر عند المنعطف، سقوف من أوشحة صفراء، خيوط من خرزات مصريّة. دجاج كنساس المقلي، وشيء بالزّبيب يلفت الانتباه إلى نافذة مفتوحة، حيث تبدو الرّائحة الشّهية محوِّمة. وإذا لم يكن ذلك كافياً فالأبواب المغوية تبدو نصف مفتوحة وفي ذلك المكان البارد المعتم تسعل الكلارنيت ويلين حلقها في انتظار امرأة تحدّد المفتاح. وتحسم رأيها فيما تمّ غير بعيد وتبلغ ظهرك بأنّها طفلة أبيها الملائكيّة الصّغيرة المدلّلة. والمدينة حاذقة في هذا: تصدر عنها الرّائحة، وتبدو طيِّبة، وتلوح مثيرة، تبعث برسائل سريّة متنكّرة في هيئة رسائل عامّة: هذا هو الطّريق، افتح هنا، الاستئجار خطّ، الملونون فقط، رجال عزّاب للعرض، مطلوب امرأة، غرفة خاصّة، توقّف يوجد كلب في المكان، لا تدفع مالاً مقدّماً، دجاج طازج، تسليم سريع ومجّاني. جيّد في فتح الأقفال، أروقة معتمة، غطّ على تأوهاتك بتأوهات منها.

حلّت ليلة في العام السّادس عشر من عمر دوركاس توثّب فيها بدنها وعرضته لأي من الأخوين للمراقصة. كان الفتيان كلاهما أقصر منها، ولكنهما كانا على القدر ذاته من الجاذبية، والأمر الأكثر أهمّية أنّهما تفوّقا على الجميع بصورة كاملة للغاية بحيث أنّهما عندما احتاجا إلى منافسة جادّة اضطّرا للرقص أحدهما مع الآخر. انسلت دوركاس إلى تلك الحفلة مع صديقتها الأثيرة، فيليسيا، وذلك أمر كان من الصّعب تدبيره، ولكن أليس مانفريد كان لديها عمل أجبرها على قضاء اللّيل في سبرنجفيلد، ولم يكن هناك ما هو أيسر من

twitter @baghdad_library

ذلك، وكانت الصّعوبة الوحيدة هي العثور على شيء ماكر بما فيه الكفاية لارتدائه.

ارتقت الفتاتان الدرجات، وانطلقتا مباشرة إلى المكان المناسب، مهتديتين إليه بالبيانو العملاق الّذي تقاطرت أنغامه منسابة عبر الباب بأكثر ممّا توصلتا إليه بتذكّرهما لرقم الشّقة. وقفتا لتتبادلا النّظرات قبل أن تقرعا الباب، وحتّى في الرّواق المعتم أبرزت البشرة البالغة السّمرة للصديقة اللّون الحليبي للفتاة الأخرى. وزاد شعر فيليسيا الدّهني من بروز تموجات شعر دوركاس الناعم الجاف. يفتح الباب، وتلجان المكان.

قبل إطفاء الأنوار، وقبل أن تختفي الشّطائر ومياه الصّودا المزودة بماصّات للشرب، اختار من يقوم على أمر الحاكي موسيقى سريعة تناسب قاعة مضاءة بشكل باهر حيث نُحِّيت قطع الأثاث الّتي تعترض طريق الحاضرين جانباً في مواجهة الجدران وفي الرّواق، وتكوّمت المعاطف أكواماً عالية في غرف النّوم. وتحت الضّوء المنهل من السّقف تحرّك الحاضرون أزواجاً كأنّهم توائم ولد أحدهم مع الآخر، إن لم يكن لأجله، وتقاسم معه نبضه وكأنّه دفق شريان وداجي آخر، وهم يعتقدون، قبل أن تنطلق الموسيقى، ما يتعين على أيديهم وأقدامهم أن تقوم به، لكنّ هذا الوهم هو دافع الموسسيقى الخفي، إنّه التحكّم الّذي يخدعهم فيجعلهم يعتقدون أنّ مقاليده في أيديهم، إنّه الاستباق الّذي تستبقه. وفيما بين فترات تغيير الأسطوانات، وبينما الفتيات يجلبن الهواء بمراوحهن إلى أعناق بلوزاتهن لتهوية ياقاتهن المقوّاة، أو يسوين بأيد يحرّكها القلق ما تركه العرق من أضرار على شعرهن، يضغط الفتية المناديل المطويّة على جباههم،

ويغطّي الضّحك على نظرات تفتقر للمّاحية وتفوح بالتّرحيب والوعد، ويزيل ضراوة إيماءات الخيانة والهجران.

وليست دوركاس وميليسيا بالغريبتين في الحفل، ما من غريب فيها، ويشارك في المرح أناس لم يسبق لأي منهما أن رأتهم من قبل باليسر الّذي يشارك به من نشأوا في هذا المبنى، ولكن للفتاتين كلتيهما آمالاً تعاظمت من خلال ما تعرضتا له من عناء في التّخطيط لما ترتديانه في هذا الحفل، فدوركاس، وهي في السّادسة عشرة من عمرها لم تعرف للجوارب الحريريّة ملمساً، والحذاء الّذي تنتعله إمّا لشخص أكبر منها سنّاً أو أصغر كثيراً. وقد ساعدتها فيليسيا في حل جديلتين من شعرها وراء أذنيها، وتلطّخ بنانها بأحمر الشّفاه الّذي مرّت به على شفتيها، ومع قلب ياقتها إلى أسفل بدا فستانها أكثر إيحاء بالانتماء إلى عالم الكبار في مظهره، ولكن الطّابع القاسي لسنّ النّمو الحافلة بالنّذر تبدّى في كل موضع آخر، في طرف الثّوب، والحزام الّذي لفّ الخصر، والأكمام القصيرة المنفوشة، وقد جرّبت مع فيليسيا إزالة الحزام كليّة، ثمّ ثبّتتاه عند السّرّة، وبرهن كلّ من الأسلوبين على أنّه مقيت، وهما تعرفان أنّ الجسم الّذي تكسوه الثّياب على نحو سيّئ ليس بجسم على الإطلاق، واضطرت فيليسيا إلى الثّرثرة بالمجاملات على امتداد الجادّة السّابعة لدفع دوركاس إلى نسيان كلّ ما يتعلق بملابسها والتّركيز على الحفل.

تحلّق الموسيقى مرفرفة حتّى السّقف وتنساب عبر النّوافذ المفتوحة فيما هما تدخلان. وفي التوّ تجتذب أيدي الذّكور الفتاتين كلتيهما وتدور بهما إلى قلب الغرفة. تدرك دوركاس أنّ شريكها هو

twitter @baghdad_library

مارتن الّذي كان في فصل من الخطابة معها في لحظة حارّة، وهي المدّة الّتي كانت كافية لكي يدرك المدرس أنّه لن يقدّر له أبداً أن ينطق الكلمة الفصيحة «طلب» بدلاً من نطقه المرتبك لها «تلب». ترقص دوركاس جيّداً، ليس في سرعة بعض الأخريات، ولكنّها رشيقة، على الرّغم من هذا الحذاء الّذي يدفع للشعور بالخجل، وهي ملهبة للحواس.

بعد رقصتين أخريين، تلحظ الأخوين وهما يستقطبان اهتمام جمع في غرفة الطّعام. إنّهما متألقان في الشّوارع والمجازات والحفلات المقامة في الدور على السّواء، ويتحركان مثل حرير مشدود أو معدن مرتخ. وقد اتّفقت دوركاس وفيليسيا على أن توثب المعدة يعد إشارة اهتمام حقيقي، ويطفو الحبّ على السّطح وينتشر. وفيما كانت دوركاس ترقب الأخوين نفدت الشّطائر بحلول ذلك الوقت، والبطاطا والسّلاطة كذلك، والجميع يعرف أنّ وقت إطفاء الأنوار يدنو، ويعلن خفّة الحركة المذهلة والتّوقيت المحكم من جانب الأخوين ذروة الجزء السّريع الرّقص من الحفل.

تنتقل دوركاس إلى القاعة الّتي توازي غرفتي الجلوس والطعام، ومن خلالها وعبر المجاز المقنطر يتاح لها أن ترى الأخوين دونما عائق، فيما هما يصلان بالعرض إلى نهايته المثيرة، ويتقبّلان، ضاحكين، الثّناء الّذي يستحقانه، نظرات مليئة بالإعجاب من الفتيات، ودفعات وتربيتات موحية بالتهنئة من الفتية. إنّ لهما وجهين مدهشين، هذين الأخوين. إبتساماتهما، إذ يفترّان عن أسنان هي أكثر من بعيدة عن العيوب، ويبدو فيها التّفكة والإغواء. يعكف أحدهم بمزيد من الخشونة على الفيكترولا، يضع عليها

ذراعه، يخدش الأسطوانة، يحاول مرّة أخرى، ثمّ يضع محلّ الأسطوانة غيرها. خلال فترة الاسترخاء هذه، يلحظ الأخوان دوركاس، مدّة أطول من ملاحظتهما معظم الحاضرين، وتحدّق هي فيهما من فوق رأس صديقتها الشّديدة السّمرة. تبدو عيون الأخوين كأنّما تتسع وترحّب بها، تتقدم خارجة من الظّلال وتنزلق وسط المجموعة، يزيد الأخوان من قوّة وجاذبية ابتساماتهما. الآن وضعت الأسطوانة المناسبة على القرص الدّوار، وبمقدورها سماع هسيسها الاستهلالي. وفيما الإبرة تنزلق نحو مسارها الأوّل يبتسم الأخوان على نحو متألق، وينحني أحدهما جزءاً من البوصة نحو الآخر، دون أن يفقد اتّصاله البصري بدوركاس، ويهمس بشيء ما. يتطلّع الآخر إلى دوركاس من أعلاها إلى أسفلها، فيما هي تتحرّك نحوهما، ثمّ كالموسيقى تماماً، وئيداً وغامضاً يتطاول في الهواء، وابتسامته متألّقة كعهدها، ويجعّد ما حول أنفه، ويلتفت بعيداً.

لقد تمّ إدراك وجود دوركاس، وتقديرها وتنحيتها جانباً، في الوقت الّذي تستغرقه الإبرة لتشقّ طريقها إلى المسار الأوّل في الأسطوانة، وتوثّب المعدّة الموحي بحبّ محتمل لا يعدّ شيئاً إذا ما قورن بالطّوف الثّلجي الّذي يسدّ مسرى عروقها الآن؛ فالجسم الّذي تقبع فيه لا يتّسم بالجدارة، وعلى الرّغم من أنّه حسم في ريعانه، وهو كلّ ما تملك، فإنّه يبدو كما لو كان قد تحلّل على غصنه في أوان تبرعمه. لا عجب أنّ نيولا قد طوت ذراعها وأمسكت بشظايا قلبها في يدها.

وهكذا فإنّه بحلول الوقت الّذي همس فيه جو تريسي لها عبر

twitter @baghdad_library

فرجة باب يغلق، كانت حياتها قد أصبحت شيئاً لا يطاق على وجه التّقريب، على وجه التّقريب. احتفظ اللّحم الّذي ازدراه الأخوان بشدّة، بالشّهية المحلّقة للحب بداخله. لقد رأيت سمكة منتفخة، ضريرة على نحو جليل، وهي تحلّق في السّماء. دونما عيون، لكنها توجّه على نحو من الأنحاء، وهذه المناطيد تسبح تحت زبد سحابي، وما من أحد يمكن إبعاده عن مشهدها، لأنّ الأمر يشبه رؤية حلم خاص. هذا هو ما كان عليه حال جوعها: ساحر، موجّه، يطفو كسرّ معلن تحت غطاء من السّحب. وقد عملت أليس مانفريد بمزيد من الجهد لإضفاء الطّابع الخاصّ على ابنة أختها، ولكنها لم تكن نِدّاً لمدينة تنساب منها الموسيقى الضّارعة والمتحدية كلّ يوم. إنّها تقول: «هلمي، هلمي، وارتكبي الخطأ!» وحتّى الجدّات اللاّتي يمسحن الدّرج كن يغمضن عيونهن ويرفعن رؤوسهن فيما هن يحتفلن بغَزَلهنّ العذب «لا أحد يفعل بي ما تأتيه أنت». في العام الّذي انقضى بين نبذ الأخوين الرّاقصين واجتماع نادي أليس مانفريد كان النّير الّذي أحكمت أليس وضعه حول عنق دوركاس قد تآكل حتّى الانكسار.

لا يعرف إلاّ القلائل، بخلاف النّسوة عضوات النّادي، أين قابلها جو تريسي. ليس عند نضد الحلوى من متجر دوجي حيث رآها للمرة الأولى، وراح يتساءل عمّا إذا كان ذلك النّعناع الّذي ابتاعته هو ما يضرّ ببشرتها، الّتي تبدو فاتحة وحليبيّة في كلّ موضع من جسمها إلاّ وجنتيها. التقى جو دوركاس في دار أليس مانفريد، تحت أنفها مباشرة، وعلى مرأى ومسمع منها.

كان قد ذهب إلى هناك لتوصيسل طلبية إلى شيلاّ ابنة عمّ مالفوني

إدواردز، الّتي قالت إنَّه إذا جاء جو إلى رقم ٢٣٧ كليفتون بليس قبل انتصاف النّهار، فإنّ بمقدوره أن يوصل طلبيّتها المؤلّفة من النّت براون والكريم الشّفاف، هناك تحديداً، ولن تضطرّ إلى الانتظار حتّى يوم السّبت التّالي، أو قطع المسافة سيراً على الأقدام إلى لينوكس ليلاً لاستلامها، ما لم يكن يريد، بالطّبع، الحضور إليها في مقرّ عملها.

كان جو قد وصل إلى قرار بأنّه سينتظر حتّى السّبت التّالي، لأنّ عدم حصوله على الدّولار وخمسة وثلاثين سنتاً لن يضيره كثيراً، ولكنّه بعد أن غادر دار الآنسة رانسوم، ووقف لمدّة نصف ساعة يتابع بد وسي. تي وهما يكيلان السّباب أحدهما للآخر وهما يلعبان الدّاما، قرّر أن يسلّم طلبية شيلاّ سريعاً وأن يمضي لشأنه بقية النّهار. كانت معدته تؤلمه قليلاً، وقد كلت قدماه بالفعل، ولم يرغب كذلك في أن يداهمه المطر وهو يسلم إحدى الطّلبيات أو يتلقاها، وهو مطر كان يهدّد بالانهمار طوال الوقت خلال صبيحة تشرين الأول (أكتوبر) الدّافئة تلك بأسرها. وعلى الرّغم من أنّ العودة إلى الدّار في وقت مبكر كانت تعني البقاء طويلاً مع فيوليت الّتي تلزم الصّمت، بينما هو عاكف على إصلاح محبس الرّوائح في حوض المطبخ أو البكرة الّتي تقلب حبل الغسيل على الجانب الخاصّ بهما من البناية، إلاَّ أن وجبة السّبت ستقدم في وقت مبكر كذلك وستكون مرضية: خضر أواخر الصيف مطهوة مع عظم الخنزير الباقي من الأحد الماضي. وقد تطلع جو إلى وجبات نهاية الأسبوع الخالية من الدّهن والمؤلّفة من الكِسَر والجزيئات، ولكنه كره وجبة الأحد المؤلّفة من لحم الخنزير المعدّ في الفرن مع الخبز، تعقبه

twitter @baghdad_library

فطيرة حلوة ثقيلة، فقد كان إصرار فيوليت على أن تستعيد الرّدفيْن اللّذيْن تقسم أنّها كانت تحظى بهما ذات يوم ممّا يقتله قتلاً.

وقد كان في وقت من الأوقات يتباهى بطهيها، ولم يكن يطيق الانتظار قبل أن يعود إلى الدّار ويلتهم ما تطهوه، لكنه الآن في الخمسين في عمره، والرّغبات تتغير، كما نعلم. إنّه مايزال يحبّ الحلوى، الحلوى الصّلبة، لا عصا الحلوى اللّدنة أو الحلوى الدّبقة، ويؤثر كرات الحامض الحلو. ولو أنّ فيوليت اكتفت بالحساء والخضر المسلوقة (مع قليل من الخبز يتكامل معهما) لكان ذلك مرضياً كلّ الرّضا له.

ذلك هو ما كان يفكّر فيه عندما عثر على الدّار رقم ٢٣٧ وارتقى الدّرج. كان الجدال بين سي. تي وبد حول مصير السّفينة الأمريكية «أثيوبيا» طيباً للغاية وطريفاً إلى أبعد الحدود، وقد أصغى إليهما وقتاً أطول ممّا ظنّ، لأنّ الوقت كان قد تجاوز الظّهيرة عندما وصل إلى هناك، وكان من الممكن سماع ضجّة نسائيّة عبر الباب، ومع ذلك فقد طرق جو الباب على أيّة حال.

استجابت فتاة النّعناع ذات البشرة المرقّشة لطَرْقه الباب. وبينما كان يحدّثها بأمره وبما جاء من أجله، أطلّت شيلاّ برأسها من الرّواق، وهتفت: «الكابتن! فاجأتني ولو لمرّة، يا جو تريسي!». ابتسم ودخل متجاوزاً الباب، وقف مبتسماً، ولم يضع صندوق عيناته على الأرض، إلى أن أقبلت المضيفة، أليس مانفريد، وطلبت منه القدوم إلى غرفة الاستقبال.

ابتهجن لمقاطعته للقائهن، كان اجتماعاً على الغداء لنادي «البنات المتحضرات» للتخطيط لحفل لجمع التّبرعات في عيد الشّكر لعصبة العمل الوطنيّة الزّنجيّة، وكن قد حسمن أمر ما تستطعن القيام به، وطرحن ما يتعين عليهن إنجازه، وبدأت في تناول طعام الغداء المؤلَّف من الدّجاج المعدّ على الطّريقة الملكيّة، وقد اهتمَّت به أليس أعظم الاهتمام. ولقد سررن، بل ابتهجن بعملهن وبصحبة إحداهن للأخرى، ولم يدركن أنهن يفتقرن إلى أي شيء إلى أن بعثت أليس بدوركاس لترى من الطّارق، وتذكّرت شيلاّ ما قالته لجو، فوثبت ناهضة عندما سمعت صوت رجل.

جعلنه يشعر وكأنّه من الرّجال الّذين يغنّون فيما المطر يهطل، الرّجال في مقتبل العمر الّذين يتجمعون عند النواصي وهم يضعون أربطة عنق بلون المناديل النّاتئة من جيوب صدورهم، الدّيكة الشّابة الّتي تقف دونما انتظار للدجاجات الّتي تنتظرها. أحسّ جو تحت نظرات النّسوة المترعة بالغزل وهي تعجم عوده بلطف ابتسامته، وكأنّ قطرات مطر بلون الرّمال تغطّي وجه حذائه.

ضحكن، ونقرن على غطاء المائدة بأطراف أصابعهن، وشرعن في مداعبته وتقريعه وإبداء الإعجاب به، كلّ ذلك في وقت واحد. حدّثنه كيف أنّ الرّجال الّذين هم على شاكلته يجعلونهنّ يشعرن بأنهن طويلات القامة، وأعربن عن شكواهن من تأخّره في تلبية الطّلبات ومن عجرفته، وسألنه عمّا يوجد بخلاف ذلك في حقيبته وعمّا جعل شيلاّ تنفعل إلى حدّ كبير على هذا النّحو، وتعجبن من أنّه لا يطرق أبوابهن قطّ، ولا يرقى أربعة طوابق مزدوجة الدّرج ليسلم إليهن أي

twitter @baghdad_library

شيء، وانطلقن بمجاملاتهن، ومشاكساتهن، واكتفت مانفريد وحدها بابتسامة واهنة وبنظرة لا تشي بشيء، ولم تشارك في التّعليقات بتعليق من جانبها.

مكث، بالطّبع، لتناول طعام الغداء بالطّبع. على الرّغم من أنّه حاول ألاَّ يتناول الكثير، حتّى لا يفقد شهيته لتناول خضر أواخر الصّيف، الّتي كان على يقين من أنّها تطهى على مهل في الإناء بانتظار مقدمه، لكنّ النّسوة رحن يلمسن شعره وينظرن إليه مباشرة وقد ساورهن شعور بطرافة عينيه المزدوجتي اللّون، وأمرنه قائلات: «أقبل، يا رجل، واستقرّ في مجلسك. هل نعدّ لك طبقاً؟ دعنا نعدّه لك». أبدى امتناعه، وأصررن. فتح الحقيبة، فعرضن شراء كلّ ما فيها، وقلن: «كلْ، يا صغيري، كلْ، إنّك لن تخرج إلى هذا الطّقس الّذي يجلب ذات الرّئة دون أن تضيف ما يلتصق بعظامك، لا معنى لغير ذلك بوجود كلّ ما لدينا هنا من طعام. دوركاس، يا فتاة، اجلبي لهذا الرّجل طبقاً فارغاً، لأملأه له. أتسمعين؟ صمتاً، يا شيلاً!»

كنَّ نسوة في مثل عمره غالباً، متزوِّجات، ولهنّ أطفال وأحفاد أيضاً. يعملن بجدّ لأنفسهن ولكلّ من يحتاج إليهن، وكنَّ يعتقدن أنّ الرّجال مثيرون للسخرية، ويغرون بالالتهام، وفظيعون، وينتهزن كلّ فرصة تتاح لهن ليدعن للرجال أن يعرفوا أنّ ذلك هو وضعهم. وفي جمع مثل هذا فإنّ بمقدورهن، وهن متمتعات بالحصانة، أن يفعلن ما يعتصمن بالحذر من القيام به منفردات مع أي رجل، غريباً كان أم صديقاً، قد يطرق الباب حاملاً حقيبة عينات في يده، مهما

كان طوله، ومهما كانت ابتسامته ريفيّة، وأياً كان قدر الحزن الّذي يستقرّ في عينيه. وفضلاً عن ذلك فإنّهن يحببن صوته، فله بحّة، هي نغمة لا يسمعنها إلاَّ عندما يزرن أناساً ريفيين على جانب من العناد يأبون ترك أفنية دورهم الأماميّة وحقولهم الّتي طالما عملوا فيها للقدوم إلى المدينة، وقد ذكرتهن هذه البحّة برجال يعتمرون قبّعات يحرثون الأرض ويتناولون عشاءهم وهم يعتمرونها، وينفخون في أطباق فناجين القهوة ويمسكون بالسّكاكين في راحات أيديهم وهم يتناولون الطّعام. وهكذا نظرن إليه مباشرة وأبلغنه بكلّ ما يستطعن من وسائل كم هو مثير للسخرية وكم هو مغرب في الالتهام وكم هو فظيع، وكأنّه لا علم له بهذا كله.

كان جو تريسي يعتمد على النّسوة الضّاحكات العابثات في ضمان شراء بضاعته، وكان أكثر معرفة بالعواقب من أن يتعلق بأي منهن، فهو لن يقدم على ذلك إذا ما أراد أن يكون بمقدوره الانحناء على مائدة البليارد للقيام بضربه وقد أدار ظهره ناحية أزواج زبوناته. ولكن في ذلك اليوم في دار أليس مانفريد، وفيما هو يصغي لثرثرتهن ويرد عليهن، اكتسب شيء ما في لعبة الكلمات ثقلاً خاصاً.

ولقد تساءلت عن جلية هذا الأمر، فيما فكّر فيه آنئذ وعقب ذلك، وفيما قاله لها. لقد همس بشيء لدوركاس، عندما صحبته إلى الباب وهو في طريقه لمغادرة الدّار، ولم يكن هناك من بدا أكثر سعادة ودهشة منه.

ما لم تخنّي ذاكرتي، في طعام غداء تشرين الأول (أكتوبر) ذاك في دار

twitter @baghdad_library

أليس مانفريد كان هناك أمر ما لا يمضي على ما يرام. سيطر الغموض على أليس، وعرف كلّ من قضى بصحبتها نصف ساعة أنّ ذلك ليس أسلوبها في التّصرف. كانت من النّوع الّذي يقضي بنظرة واحدة على نميمة مثيرة للاهتمام فيحوّلها إلى دمدمة لا تبين عندما تخرج عن حدّها. وربّما كانت خبرتها كخياطة هي الّتي كانت تجعل ما تظنّه ثوباً مرحاً يتحوّل إلى رداء مبهرج وهزيل إلى جوار ردائها. ولكنّها كان بمقدورها إعداد المائدة خير إعداد. ربّما كان الطّعام فيما يتعلق بمقدار الأنصبة موحياً بالتّقتير وكافياً للصغار، وأعتقد أنّها لم تكن تميل إلى الزّبد وقد استخدمت مقداراً بالغ الضّآلة منه في كعكاتها، ولكن البسكويت كان خفيفاً، والأطباق والفضيات كانت تتألق ومرتّبة أفضل ترتيب، افتح مناديل مائدتها بقدر ما يطيب لك ولن تجد بقعة متّسخة بالغة الضّآلة في أي موضع. كانت مهذبة في أثناء تناول الغداء، بالطّبع، ولم تكن تبالغ في الكبرياء والتّرفع أيضاً، ولكنّها لا تبدي اهتماماً عن كثب بالأشياء. كانت شاردة الذّهن، ربّما فيما يتعلق بدوركاس.

لقد اعتقدت على الدّوام أنّ تلك الفتاة حزمة من الأكاذيب. وكان بمقدوري أن أحدّد من خلال مشيتها أنّ ملابسها الدّاخليّة لا تتناسب مع عمرها، حتّى ولو كان ثوبها متفقاً مع سنّها. ربّما كانت أليس في تشرين الأول (أكتوبر) ذاك قد شرعت في الاعتقاد بذلك بدورها. وبحلول كانون الثاني (يناير) لم يكن على أحد التّكهن بما هنالك، فقد كان الجميع يعرف بالأمر. وإنّني لأتساءل عمّا إذا كان قد ساورها هاجس أو نذير بطرق جو لبابها؟ أو ربّما كان ثمّة شيء قرأته في كلّ تلك الصّحف المكدّسة بصورة مرتبّة على امتداد قاعدة الجدران في مخدعها.

الجميع يحتاج إلى كومة من الصّحف لتقشير البطاطا عليها، أو وضع احتياجات الحمام عليها، أو لفّ الفضلات بها، ولكن ليس على نحو ما هو لدى أليس مانفريد، فلابدّ أنّها قرأت تلك الصّحف مراراً وتكراراً، وإلاَّ لم تحتفظ بها لهذا الغرض؟ وإذا كانت تقرأ أيّ شيء في الصّحيفة مرتين فإنّها تعرف أقل ممّا ينبغي عن أكثر ممّا ينبغي من موضوعات، وإذا كانت لديك أسرار تريد إبقاءها طيّ الكتمان، أو إذا كنت تريد تلمّس أسرار الآخرين فإنّ الجريدة يمكن أن تشتّت ذهنك، وخير ما يمكنك القيام به لاكتشاف ما يجري هو أن تراقب النّاس وهم ينطلقون مناورين في مسيرتهم بالشّوارع. أي خطباء الطّرق الجانبيّة يستوقفونهم في مواضعهم؟ هل يمضون وسط الفتية الّذين يركلون المعلبات الفارغة على امتداد هذه الطّرق أم يصيحون بهم للكفّ عن ذلك؟ هل يتجاهلون الرّجال الجالسين على الحواجز الواقية للسيارات أم يتوقّفون لتجاذب أطراف الحديث معهم؟ وإذا ما نشب شجار بين رجل وامرأة فهل يتجمّعون وسط البناية ليتابعوا المشهد أم يهرعون إلى المنعطف تحسُّباً لأسوأ الاحتمالات؟

هناك أمر واحد مؤكّد، هو أنّ الشّوارع ستثير حيرتك أو تعلِّمك، أو تحطّم رأسك. ولكن أليس مانفريد لم تكن من النّوع الّذي يعطي لنفسه المبرّرات ليكون في الشّارع، فقد كانت تمضي فيها مسرعة بقدر ما تستطيع لتعود إلى دارها. ولو أنّها خرجت بصورة أكثر تواتراً أو جلست على المقعد المرتفع أو ثرثرت أمام صالون التّجميل لعرفت أكثر ممّا كانت الصّحيفة تنشره، لعرفت ما كان يجري تحت أنفها. وعندما اكتشفت ما وقع بين ذلك اليوم من أيّام تشرين الأول (أكتوبر) واليوم الفظيع من أيّام كانون الثاني (يناير) الّذي أنهى كلّ شيء، كان آخر أناس

twitter @baghdad_library

على ظهر الأرض ترغب في رؤيتهم هم جو تريسي أو أي شخص تصله به صلة. ورغم ذلك فقد وقع الأمر، وسمحت المرأة الّتي تجنبت الشّوارع للمرأة الّتي جلست في منتصف أحد الشّوارع بدخول غرفة جلوسها.

حوالي نهاية آذار (مارس)، نحت أليس مانفريد إبرها جانباً، لتمعن التّفكير مرّة أخرى فيما أسمته بـ «حصانة» الرّجل الّذي قتل ابنة أختها لا لشيء إلاَّ لأنّ ذلك كان بمقدوره، ولم يكن بالأمر الّذي يتعذّر عليه القيام به، بل إنَّه لم يجعله يفكّر مرتين في الخطر الّذي يعرّض نفسه له. لقد اقترف الأمر فحسب. رجل واحد. امرأة لا تملك دفاعاً عن نفسها. الموت. رجل يحمل صندوق عينات. رجل لطيف، ودود، يعرفه الجميع، من النّوع الّذي تسمح له بدخول دارك لأنّه ليس خطيراً، ولأنّك رأيته مع أطفال، واشتريت منتجاته ولم تسمع همسة تقوّلات قطّ عن اقترافه للخطأ، ولم يساورك الشّعور فقط بالأمان، وإنّما بالمودّة في صحبته، لأنّه من النّوع الّذي تستنجد به النّسوة عندما يحسبن أنّ هناك من يتعقبهن أو يراقبهن، أو يحتجن إلى شخص يودعن لديه المفتاح الاحتياطي تحسباً لإقفال الباب وتعذّر فتحه. كان من نوع الرّجال الّذي يصحبك حتّى باب دارك إذا ما فاتتك الحافلة واضطررت إلى السّير في الشّوارع المعتمة خلال اللّيل، والّذي يحذر فتياتك الشّابات من المنعطفات المزدحمة بالسّكارى وبالرّجال الّذين يتسكعون هناك. وقد درجت النّسوة على مداعبته إلى حدّ المضايقة لأنّه موضع ثقتهن. كان من أولئك الرّجال الّذين ربّما انطلقوا في مسيرة الجادّة الخامسة ـ باردين وصامتين وملتفّين بالكبرياء ـ إلى الفراغ الّذي كرّسته الطّبول. وكان «يعرف» أنّ

الخطأ ليس بالأمر السّليم، ومع ذلك فقد قام بارتكابه.

كانت أليس مانفريد قد رأت وتحمّلت الكثير، وعرفت الخوف على امتداد البلاد، في كلّ شارع منها، والآن فحسب تشعر حقاً بعدم الأمان، لأنّ الرّجال الضّارين، ونساءهم الضّاريات كانوا قاب قوسين أو أدنى منها، في بنايتها، في عقر دارها. دلف رجل إلى غرفة جلوسها، وقضى على ابنة أختها. وجاءت زوجته إلى الجنازة لتسيء إليها وتلحق العار بها، وكان حرياً بها أن تستدعي الشّرطة، وتطلقها في أثرهما معاً، لو أنّ كلّ ما تعرفه عن حياة الزّنوج قد جعل من الممكن بالنّسبة لها أن تجعل ذلك موضع الإجراء الّذي يمكن التّفكير فيه، وما أفظع أن تتطوع بالحديث مع أحدهم، من البيض كان أم من السّود، وأن تدعه يلج دارها، وترقبه يريح ردفيه في مقعدها ليستوعب الصّلب الأزرق الّذي جعل منه رجلاً!

وإذ اعتكفت دونما عمل غارقة في شعورها بالحزن والعار فقد راحت تقطع الأيام المثقلة بالهموم في صنع المخرمات بلا مقابل، وقراءة صحفها، وإلقائها على الأرض، والتقاطها من جديد. إنّها تقرأها الآن بصورة مختلفة، وكلّ أسبوع منذ موت دوركاس، خلال كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) بأسرهما، قامت صحيفة بتعرية عظام امرأة محطّمة. رجل يقتل زوجته. الإفراج عن ثمانية اتهموا بالاغتصاب. سقوط امرأة وفتاة ضحيّتين. امرأة تنتحر. توجيه الاتهام في قضيّة المهاجمين البيض. القبض على خمس نساء. امرأة تقول إنّ رجلاً أوسعها ضرباً، رجل يرتكب جريمة في ثورة غضب.

حدّثت نفسها بأنّهن كنّ عاجزات عن الدّفاع عن أنفسهن كالبط.

twitter @baghdad_library

أم تراهن لم يكنَّ كذلك؟ عليك بالقراءة بمزيد من العناية، فالصّور الّتي رسمتها تقارير الأنباء تكشف عن أنّ معظم أولئك النّسوة اللّاتي تمّ إخضاعهن وتحطيمهن لم يكنَّ مجردات من سبل الدّفاع عن أنفسهن، أو كنّ، مثل دوركاس، فرائس سهلة. وعلى امتداد البلاد استعانت النّسوة السّوداوات بالسّلاح. وحدّثت أليس نفسها بأنّهن قد تعلمن الدّرس على الأقل. أليس لكلّ شيء تحت سماء الربّ دفاع، ويمكنه الحصول عليه؟ السّرعة، سمّ في الوريقة، اللّسان، الذّنب؟ قناع، الانطلاق عدواً، أعداد بالملايين تنتج أعداداً بالملايين؟ شوكة هنا، طرف مدبّب هناك.

فرائس سهلة؟ يسهل اقتناصهن؟ قالتها بصوت عال: لا أعتقد ذلك. لا أعتقد ذلك.

كانت المواضع النّاحلة في الكتّان قد دعمت بخيط غليظ، واستقرّ بعد غسله وكيّه وطيّه في سلّة كانت أمّها تستخدمها. رفعت أليس طاولة الكيّ ونشرت صحيفة للحفاظ على نظافة أطراف الثّياب. لم تكن تنتظر سخونة المكواة فحسب وإنّما كذلك مقدم امرأة ضارية في سواد السّناج، عرفت بأنّها تحمل سكيناً. انتظرت بتردّد أقلّ من السّابق ودون أن تساورها المشاعر الغاضبة الرّهيبة الّتي ساورتها في كانون الثاني (يناير) عندما حاولت امرأة تقول إنّها فيوليت تريسي مقابلتها أو محادثتها أو نحو ذلك، وطرقت بابها في وقت جدّ مبكر حتّى إنّها حسبت أنّ الطّارق لابدّ أن يكون من الشّرطة.

ـ ليس لديَّ ما أقوله لك، لا شيء على الإطلاق.

كانت قد قالتها في همس على شيء من الارتفاع عبر فتحة الباب

المثبتة بالسّلسلة وأوصدته بعنف. لم تكن بحاجة إلى الاسم ليساورها الشّعور بالخوف أو لتعرف من هي إنّها نجمة جنازة ابنة أختها، المرأة الّتي أساءت إلى الجنازة وقلبت معناها ومغزاها رأساً على عقب، وكانت عملياً هي بؤرة حديث كلّ المتكلمين لدى تناولهم لموت دوركاس، وفي غمرة ذلك غيروا اسم المرأة، إذ أصبحوا يطلقون عليها الآن اسم فيولنت(*) ولا عجب في ذلك. كانت أليس قد تابعت، من مجلسها في المقعد الأوّل من الممشى الأول، الاهتياج الّذي عمّ الكنيسة وقد حلّ بها الذّهول إلى حدّ الجمود، وفي وقت لاحق، وشيئاً فشيئاً عادت إليها المشاعر، شأن نفاية بحريّة لفظها البحر إلى الشّاطئ، غريبة ومألوفة للعين ومتجردة وغائمة اللّون.

الشّعور الرّئيسي، بين هذه المشاعر، كان الخوف، وثمّة شيء جديد هو الغضب. إنّه الغضب على جو تريسي، الّذي كان مقترف الجريمة، إذ أغوى ابنة أختها أمام عينها، وفي عقر دارها. الرّجل اللّطيف. الرّجل الّذي يبيع لوازم السّيدات على قارعة الطّريق، الشّخص المألوف في كلّ مباني المدينة تقريباً، الرّجل الّذي يحبّه أصحاب المتاجر ومُلّاك البنايات، لأنّه يرتّب لعب الأطفال في صفّ منظّم عندما يتركونها متناثرة على الرّصيف، والّذي يحبّه الأطفال لأنّه لا ينزعج منهم، وهو محبوب في صفوف الرّجال لأنّه لم يحدث قطّ

(*) رغم طرافة ما اجترحه هؤلاء الّذين قلبوا اسم فيوليت ليصبح معناه الجديد «المرأة العنيفة» فإنّ المرء لا يملك إلاّ التّساؤل عمّا إذا كان أمام حالة ممّا أسمته موريسون وما أشرنا إليه في المقدّمة من «نهب اللّغة». (هـ . م.).

twitter @baghdad_library

أن عمد إلى الغشّ في لعب الورق، أو تسبّب في نشوب شجار لسبب تافه، أو نشر الأقاويل، كما أنّه ترك نساءهن وشأنهن، ومحبوب بين النّساء لأنّه يعيد إليهن الشّعور بالصّبا، وتحبّه الفتيات لأنّه يجعلهنَّ يشعرن بأنوثتهنَّ، وهو ما تعتقد أنّ دوركاس كانت تتطلّع إليه. يا للقاتل!

ولكن أليس لم تكن خائفة منه، كما أنّها لا تخاف امرأته الآن. وفيما يتعلق بجو فقد ساورها الشّعور بالحنق إلى حدّ الارتجاف من فرط هذا الشّعور حيال تسلّله كحيّة وسط العشب لسرقة الفتاة الّتي كانت في رعايتها، والشّعور بالعار لأنّ النّجيل الّذي انسلّ خلاله كان نجيلها، البيئة الّتي تحظى بالرّقابة والحراسة حيث الحمل دونما زواج وعلى نحو لا سبيل معه إلى زواج هو النّهاية والخاتمة لحياة كان يمكن أن تعاش. وبعد ذلك. الانزلاق. مجرّد انتظار إلى أن تكبر الطّفلة الّتي جاءت وتطالب ببيئتها المرَاقبةِ والمحروسة.

راحت أليس، وهي تنتظر مقدم فيوليت بتردد أقلّ ممّا كان عليه الحال قليلاً، تتساءل عن السرّ في أنّ الأمر كان كذلك. في الثّامنة والخمسين من عمرها ودون أن يكون لها أطفال حملتهم في بطنها ومع وفاة الطّفلة الّتي عهد بها إليها وكانت مسؤولة عنها، راحت تتساءل عن الهوس والعنف واللّعنة المرتبطة بالحمل دونما إمكانيّة للزواج. لقد سيطر هذا الأمر على ذهني أبويها تماماً بقدر ما يسعها أن تتذكّر، وحدّثاها بحزم ولكن بحرص عن جسمها، عن الجلوس على نحو مقيت (أي بساقين منفرجتين) الجلوس على نحو نسائي (أي مع وضع ساق على الأخرى) التّنفس من فمها، وضع اليدين على الوركين، الميل ناحية المائدة، أرجحة الرّدفيْن عند سيرك.

وفي اللّحظة الّتي نهد فيها ثدياها قيّدا ونظر إليهما بضيق، وهو ضيق تزايد ليصل إلى الكراهية الصّريحة لاحتمالات حملها، ولم يتوقّف إلاَّ بعد أن تزوجها لويس مانفريد، وعندها انقلب الأمر فجأة إلى النّقيض. وحتّى قبل الزّفاف كان أبواها يغمغمان بحديث لا يبين عن الأحفاد الّذين يمكنهما رؤيتهم والإمساك بهم، بينما أبديا في الوقت نفسه، وبصورة تبادليّة ضيقهما بالأطراف الّتي تلوح وتنمو تحت قمصان أخوات أليس الأصغر سنّاً. إبداء الضّيق ببقع الدّم وبالرّدفيْن الحديثَي النّمو وبالشّعر. ذلك جنباً إلى جنب مع ضرورة الملابس الجديدة «آه، يا ربّي، أيّتها الفتاة!». والتّقطيب عندما لا يمكن لطرف الزّي أن يهبط إلى أسفل أكثر ممّا هو عليه، وعندما يرفض خطّ الخصر أي درزة أخرى. وإذ كبرت أليس في ظلِّ هذه السّيطرة المحتدمة فقد عاهدت نفسها على ألاّ تمرّرها إلى ضحيّة أخرى، لكن هذا هو ما حدث، فقد مرَّرتها إلى الابنة الوحيدة لأختها الصّغرى. وها هي الآن تتساءل عمّا إذا كانت ستفعل ذلك لو أنّ زوجها عمر أو بقي معها أو لو أنّها أنجبت أبناء من صلبها. ولو أنّه كان هنا، إلى جانبها، يساعدها في اتخاذ القرارات، فلربّما لم تكن الآن جالسة تنتظر امرأة تدعى فيوليت وتساورها خواطر في ضراوة الحرب، على الرّغم من أنّ جوهر الأمر كان حرباً بالفعل، وهذا هو السبب في أنّها قد اختارت الاستسلام، وجعلت من دوركاس أسيرتها.

غير أنّ نسوة أخريات لم يستسلمن، وكنّ مسلّحات على امتداد البلاد. وقد عملت أليس يوماً مع حائك سويدي له ندبة تمتدّ من شحمة أذنه إلى زاوية فمه. قال: «إنّها زنجيّة، مزَّقتني إرباً إرباً».

twitter @baghdad_library

وابتسم مفصحاً عن تعجّبه، وهزّ رأسه متابعاً «إرباً». أمّا بائع الثّلج في سبرنجفيلد فقد كانت له أربعة ندوب غائرة على مسافات متوازنة في جانب رقبته نتجت عن أربع ضربات متوازنة بشيء رفيع مستدير وحادّ. وانطلق الرّجال في شوارع سبرنجفيلد وإيست سانت لويس ونيويورك سيتي وقد أمسك أحدهم يداً حمراء مبتلة بأخرى تناظرها بينما تدلّى الجلد الممزق على الوجه، وفي بعض الأحيان كانوا يصلون إلى المستشفى والحياة تدبّ بأمان في عروقهم لا لشيء إلاَّ لأنّهم تركوا الموسى في موضعها الّذي استقرّت فيه.

كانت النّسوة السّوداوات مسلّحات، النّسوة السّوداوات خطرات، وكلّما قلّ ما معهن من مال زادت خطورة السّلاح الّذي يخترنه.

من كانت النّسوة غير المسلّحات؟ إنهنّ اللّواتي وجدن الحماية في الكنيسة وفي الربّ القاضي بين العباد والّذي يبدي غضبه وكان حنقه من أجلهن أشدّ فظاعة من أن تتحمّل الخواطر التّفكير فيه. لم يكن مقبلاً في طريقه فحسب، مقبلاً، مقبلاً ليصحّح ما ارتكب في حقّهن. وإنّما كان ها هنا. بالفعل. أتدركين؟ أتدركين؟ وما اقترفه العالم حيالهن ها هو يقترفه حيال ذاته. هل أساء العالم إليهن؟ نعم ولكن أين ضربت الإساءة جذورها. هل تمّ تقريعهن واستمطار شآبيب اللّعنة عليهن؟ آه، نعم، ولكن انظري كيف قرّع العالم نفسه واستمطر شآبيب اللّعنة عليها! هل جرت ملاحظة النّسوة في المطابخ ومؤخّرات الحوانيت؟ أوه، هه. هل وجّه رجال الشّرطة اللكمات إلى وجوه النّسوة لكي تتحطّم معنويات الرّجال مع فكوك النّسوة؟ هل ناداهنّ الرّجال (أولئك الّذين يعرفونهنّ، وكذلك الغرباء القابعون في

السّيارات) بغير أسمائهنّ في كلّ يوم من أيّام حياتهن؟ أوه، هه. ولكن في عيني الربّ، وفي أعينهن كانت كلّ كلمة أو إيماءة بذيئة هي رغبة «الحيوان» في دنسه، و«الحيوان» لم يقترف ما تمّ اقترافه بحقّه، وإنّما ما رغب في اقترافه بحقّ نفسه. قام بالاغتصاب لأنّه أراد لذاته أن تغتصب. وذبح الأطفال لأنّه تاق إلى أن يكون أطفالاً مذبوحين. شاد السّجون ليقطن فيها وليتشبث بتحلّله الخاصّ. سخط الربّ في سمت جماله، وقمّة بساطته. لقد حقّق أعداؤهن ما أرادوه، وأصبحوا المصيبة الّتي جعلوها تحلّ بساحة الآخرين.

من غيرهن تجرّد من السّلاح؟ النّسوة اللّاتي حسبن أنّهن لسن بحاجة إلى النّصال الّتي تطوى في أغمادها ولغات المواد القلويّة وشظايا الزّجاج الملصقة بأيديهن، اللّواتي ابتعن الدّور، وراكمن المال كوسيلة للحماية وكأسلوب لابتياعها، اللّواتي ارتبطن بالرّجال المسلحين، اللّواتي لم يحملن المسدسات لأنّهن غدون مسدسات، لم يحملن النّصال الّتي تطوى في أغمادها لأنّهن نصال تنقضّ على التّجمعات وتسقط التّماثيل وتدلّ على الدّم واللّحم المهترئ، اللّواتي ضخّمن قوتهنّ العزلاء الصغيرة إلى قوّة يعتمد عليها وتستند إلى التجمّعات والنّوادي والجماعات والاتحادات الّتي قصد بها أن تضبط أو تكبح الجماح، أن تتحرّك أو تبقى جامدة، أن تمهّد الطّريق وتحثّ وتغري وتبعث على الارتياح، تنتشل المرء من ورطته، تدفن الموتى على خير وجه، تدفع الإيجار، تعثر على غرف جديد، تبدأ الدّراسة في مدرسة، تقتحم مكتباً، تحصل على مجموعات، تحيط بالبناية وتبقى عيونهن على كلّ الأطفال. وكلّ نوع آخر من النّساء السّوداوات غير المسلحات في العام ١٩٢٦ كان إمّا صامتاً أو مجنوناً أو ميتاً.

twitter @baghdad_library

انتظرت أليس هذه المرّة، في شهر آذار (مارس)، مقدم المرأة ذات السّكّين، المرأة الّتي أصبح النّاس يدعونها الآن «فيوليت» لأنّها حاولت قتل ما هو مسجّى في التّابوت. كانت قد تركت رسائل قصيرة دفعتها من أسفل باب أليس ابتداء من كانون الثاني (يناير) ـ بعد أسبوع من الجنازة ـ وعرفت أليس مانفريد أي نوع من «الزّنوج» كان هذان الزّوجان، إنّه النّوع الّذي درّبت دوركاس على الابتعاد عنه، النّوع المثير للشعور بالحرج. كانا متجاوزين لوصف المنفّرين، كانا خطرين. الزّوج أطلق النّار، والزّوجة أعملت السّكين، ما من شيء قامت به ابنة أختها أو حاولت القيام به أمكن أن يعادل العنف الّذي راحت ضحيته. وحيث يوجد العنف ألا توجد الخطيئة؟ القمار. إطلاق اللّعنات، حميميّة رهيبة ومقيتة. ملابس حمراء. أحذية صفراء، بالطّبع، موسيقى عرقيّة حتّى تدفعهم دفعاً.

لكن أليس ليست خائفة منها الآن، على نحو ما كانت في كانون الثاني (يناير)، ومثلما كانت في شباط (فبراير) في أوّل مرّة أدخلتها الدّار، وقد حدّثت نفسها بأنّ المرأة سينتهي بها الأمر إلى دخول السّجن ذات يوم ـ لسوف ينتهي بهم الأمر جميعاً إلى هناك. ولكن طرائد سهلة؟ صيد طبيعي؟ «لست أحسب ذلك. لست أحسب ذلك».

خلال السّهر عند الجثّة، أطلعتها مالفوني على التّفاصيل، حاولت ذلك على أي حال. أشاحت أليس عن المرأة، وكفّت عن التّنفس، كأنّما لتبعد الكلمات عنها.

قالت لها أليس:

ـ أقدّر لك اهتمامك. تفضّلي. هناك الكثير.

أشارت نحو الموائد المثقلة بالطّعام وقد تحلّق حولها المعزون.

قالت مالفوني:

ـ إنّني في حالة سيئة، كأنّما وقع الأمر لي.

ـ شكراً لك.

ـ تربّين أطفال الآخرين، ويؤلمك الأمر تماماً كما لو كانوا من صلبك. إنّك تعرفين بأمر سويتنس، ابن أخي. .؟

ـ عفواً!

ـ فعلت كلّ شيء من أجله، كلّ ما يمكن لأمّ أن تقوم به.

ـ أرجوك، تفضّلي، هناك الكثير، الكثير جدّاً.

ـ هذان الشّريران العجوزان، إنّهما يقطنان في البناية الّتي أقيم فيها، كما تعلمين.

ـ مرحباً، يا فيليسيا! جميل منك أن تبادري بالحضور.

لم ترغب في سماع أو معرفة أكثر ممّا ينبغي في ذلك الوقت، ولم ترغب في رؤية تلك المرأة الّتي بدأوا يدعونها فيوليت كذلك. وقد ضايقتها الرّسالة الّتي دفعتها من أسفل بابها، ثمّ جعلت الخوف يداخلها. ولكن بعد فترة، وعقب سماعها بمدى تمزّق الرّجل، ولدى قراءة العناوين في صحف «إيج» و«نيوز» و«زاميسنجر»، وبحلول شهر شباط (فبراير) كانت قد استعادت رباطة جأشها، وأدخلت المرأة دارها.

ـ آسفة. ليس بمقدوري التّفكير في الخير الّذي يمكن أن يجيء من وراء هذا.

قالت فيوليت واضعة أصابعها على أعلى قبعتها:

twitter @baghdad_library

ـ إنّني أعاني بعض المتاعب فيما يتعلق برأسي.
ـ راجعي طبيباً. لِمَ لا تفعلين ذلك؟

مضت فيوليت في سيرها متجاوزها إيّاها، وكأنّما اجتذبها مغناطيس إلى منضدة جانبية صغيرة.
ـ أهي تلك؟

لم يكن على أليس إلقاء نظرة لتعرف ما الّذي كانت تحدّق فيه.
ـ بلى.

أثار الصّمت الطّويل الّذي أعقب ذلك، فيما فيوليت تمحص الوجه المطلّ من الإطار، شعور أليس بالعصبية. وقبل أن تستجمع أطراف شجاعتها لتطلب من المرأة مغادرة الدّار، ابتعدت الأخيرة عن الصّورة قائلة:
ـ لست بالّتي تحتاجين إلى الشّعور بالخوف منها.
ـ لا أعرف وهذا هو ما يؤلم رأسي.
ـ لم تحضري إلى هنا لتعربي عن أسفك. حسبت أنّك قد تفعلين ذلك، وإنّما جئت لتنفثي جانباً من شرك.
ـ ليس في جوانحي شرّ.
ـ أعتقد أنّ من الأفضل أن تنصرفي.
ـ دعيني أسترح للحظة. ليس بمقدوري العثور على مكان يمكنني فيه الجلوس، أهي المطلّة هناك؟
ـ قلت لك لتويّ إنّها كذلك.
ـ سبّبت لك الكثير من المتاعب؟
ـ لا، إطلاقاً، طيّب، بعض المتاعب.

ـ كنت فتاة طيبة في مثل عمرها، لم أحدث قطّ أدنى قدر من المتاعب. ونفذت كلّ ما قال لي الجميع إنّ عليّ القيام به، إلى أن وصلت إلى هنا، فالمدينة تجعلك تتوترين.

حدّثت أليس نفسها بأنّ المرأة غريبة الأطوار، ولكنّها ليست سيئة التّفكير، وقبل أن تحدّث نفسها بأنّها ينبغي ألاَّ تدع ذلك يحدث صدر عنها السّؤال:

ـ لِمَ أتى شيئاً كهذا؟

ـ لِمَ أتته هي؟

ـ لِمَ أتيته أنت؟

ـ لست أدري.

لدى مجيئها للمرّة الثّانية، كانت أليس ماتزال تتأمّل حال أولئك النّسوة الوحشيات بدلائهن المليئة بمحلول القلي، ومَواسيهنّ المشحوذة، وجدراتهنّ المتناثرة هنا، وهنا، وهناك. كانت تجذب السّتارة لتسدلها لتحجب الضّوء المنهلّ على عيني زائرتها مباشرة، عندما قالت:

ـ زوجك، هل يؤذيك؟

ـ يؤذيني؟

قالتها فيوليت وقد بدت عليها الحيرة.

ـ أقصد أنّه بدا لطيفاً للغاية، وهادئاً تماماً، هل يضربك؟

ـ جو. لا لم يحدث أن ألحق الأذى بأحد قطّ.

ـ باستئناء دوركاس.

ـ والسّناجب.

twitter @baghdad_library

ـ ماذا؟

ـ الأرانب كذلك. الغزلان. الأبوسوم. التدرّج. كنا نأكل جيداً في موطننا.

ـ لماذا غادرتماه.

ـ لم يكن مالك الأرض يريد الأرانب، وإنّما المال بلا كدّ.

ـ إنّهم يريدون المال هنا أيضاً.

ـ ولكن هناك سبيل للحصول عليه هنا. لقد قمت بالعمل بالمياومة لدى وصولي إلى هنا، وعاد العمل عليّ في ثلاثة منازل كلّ يوم بمبلغ جيد وعمل جو بتنظيف الأسماك ليلاً، واستغرق حصوله على عمل في فندق بعض الوقت. وعملت بتصفيف الشّعر، وجو.

ـ لست أرغب في الاستماع إلى كلّ ذلك.

لزمت فيوليت الصّمت، وراحت تحدّق في الصّور. أعطتها أليس إيّاها لتبعدها عـن الدّار.

عادت في اليوم التالي، وبدت في حالة مزرية إلى حدّ أنّ أليس أرادت أن تصفعها لتفيقها ممّا هي فيه. وبدلاً من ذلك قالت:

ـ اخلعي ذلك الثّوب، وسوف أصلح من شأن طرف كمك.

كانت فيوليت ترتدي الثّوب نفسه في كلّ مرّة، وقد تضايقت أليس من الخيط الّذي تفكّك في كمّها، ومن تمزّق البطانة في ثلاثة مواضع على الأقل كان بمقدورها رصدها.

جلست فيوليت مرتدية قميصها التّحتي وفوقه سترتها، بينما راحت أليس ترفو الكمّ بأصغر الغرز، ولم يحدث في أي وقت أن نزعت فيوليت قبعتها.

ـ في البداية حسبت أنّك جئت إلى هنا لإيذائي، ثمّ حدّثت نفسي بأنّك جئت لتقديم التّعازي، ثمّ ظننت أنّك ترغبين في شكري لعدم توجيهي الاتهام لكما، ولكن الأمر ليس منطبقاً على أي من هذه الأفكار. أهو كذلك؟

ـ كان عليَّ الجلوس في مكان ما. وحسبت أنّ بمقدوري الجلوس هنا، وأنّك ستسمحين لي بالدّخول، وقد سمحت لي. أعرف أنّني لم أقدّم لجو الكثير من المبررات للابتعاد عن الشّارع، لكنّني أردت أن أرى أي نوع من الفتيات كان يفضّل أن أكون.

ـ حمقاء. كان يفضّل أن تكوني في الثّامنة عشرة. ذلك هو كلّ ما هنالك.

ـ لا، هناك ما هو أكثر.

ـ إنّك لا تعرفين أي شيء عن زوجك. وليس من المتوقع أن أساعدك.

ـ لم تكوني أكثر منّي معرفة بأنهما يلتقيان، وكنت ترينها كلّ يوم كما كنت أرى جو. إنّني أعرف أين غاب ذهني. فأين غاب ذهنك أنت؟

ـ لا تؤذيني! لن أسمح لك بالقيام بذلك.

* * *

كانت أليس قد انتهت من كي الملاءات، وشرعت في كي أوّل بلوزة، عندما طرقت فيوليت بابها. منذ سنوات وسنوات كانت تمضي بطرف المكواة إلى طيّات قميص رجالي أبيض، مبلّل بالرّذاذ بما يكفي لفرد النّسيج وتصليبه باستخدام النّشاء. والآن غدت تلك

twitter @baghdad_library

القمصان مزقاً، غدت مماسح، وقماشاً ممّا يتّقى به أثر الدّورة الشهريّة، وخرقاً ملفوفة حول وصلات أنابيب المياه لعرقلة التّجمد، وقطعاً تمسّك بها الآنية السّاخنة وتختبر عليها المكواة المتقدة، وتلفّها حول مقبضها، بل وفتائل للمصابيح وأكياس ملح لدعك الأسنان بها. والآن ها هي بلوزاتها تحظى بعنايتها اليدوية الحاذقة.

كان زوج من أغطية االوسائد. مايزال دافئاً من لمسة المكواة قد وضع مرتباً على المنضدة. وكذلك وضعت الملاءتان، وقد يحلّ دَوْر الستائر في الأسبوع المقبل.

بحلول ذلك الوقت كانت قد أصبحت تتعرف طرقة الباب، ولم يقدّر لها قطّ أن تعرف ما إذا كان ما ينتابها لدى سماعها هو الشغف أو الحنق. ولم تكترث للأمر.

عندما كانت فيوليت تأتي لزيارتها (ولم تكن أليس تعرف قطّ متى يحدث ذلك) كان شيء ما ينجلي.

جعلت القبعة القاتمة وجهها أكثر سواداً، وكانت عيناها مستديرتين، كأنّهما دولاران فضيان، ولكن بمقدورهما التّحول إلى شقّين طوليين على حين غرّة كذلك.

كان الأمر الجوهري هو الكيفية الّتي يكون عليها شعور أليس وحديثها في صحبتها، وهي كيفية مختلفة عن نظيرتها في حالة الآخرين. فمع فيوليت تكون مجردة من الاحتشام ومتقلبة ومقلّة في الحديث. ولم يبد أنّ من الضّروري أن يكون بينهما اعتذار أو مجاملة. ولكن كان من الضّروري وجود شيء آخر، هو الوضوح، ذلك النّوع من الوضوح الّذي يقتضيه المجانين من غير المجانين.

ولم تكن فيوليت، الّتي تم إصلاح بطانة سترتها كذلك الآن، مع رفو كمّيها، بحاجة إلاَّ لإبداء الاهتمام بجوربها وقبعتها لتبدو بمظهر الشّخص العادي. تنهدت أليس تنهيدة قصيرة، وتعجبت من نفسها فيما هي تفتح الباب للزائرة الوحيدة الّتي تتطلع لزيارتها.

ـ إنّك تبدين متجمدة.

قالت فيوليت:

ـ أوشكت على ذلك.

ـ بحلول آذار (مارس) ستكونين قد لزمت الفراش بفعل المرض.

ردّت فيوليت:

ـ سيكون ذلك من دواعي سروري. وسوف تنتهي كلّ متاعبي إذا كان من الممكن أن يحلّ المرض بجسمي بدلاً من رأسي.

ـ من سيقوم بتصفيف شعر النّساء المدلّلات عندئذٍ؟

ضحكت فيوليت:

ـ لا أحد. قد لا يقوم أحد بتصفيفه، ولن يلحظ أحد الاختلاف.

ـ الاختلاف يتجاوز تسريحة الشّعر.

ـ لسن إلاَّ نساء، مثلنا.

قالت أليس:

ـ لا لسن مثلنا. لسن مثلي.

ـ لست أقصد عملهن، وإنّما أقصد النّساء.

قالت أليس:

ـ آه، أرجوك، دعينا ننتهي من ذلك. إنّني أعدّ لك بعض الشّاي.

ـ كنّ طيبات معي عندما لم يكن هناك غيرهن يعاملنني على هذا

twitter @baghdad_library

النّحو. أنا وجو نأكل خبزنا بسببهن.

ـ لا تحدّثيني بهذا الأمر!

ـ في أي وقت أوشك فيه على الاقتراض، أو احتاج لبعض النّقود الإضافية، يمكنني العمل طوال اليوم، وفي أي يوم، في تصفيف شعرهن.

ـ قلت لك لا تحدّثيني عن هذا الأمر، فلست أرغب في سماعه، ولا معرفة مصدر نقودهن. هل تريدين الشّاي أم لا؟

ـ نعم، ليكن. لِمَ لا؟ لِمَ لا يمكنك سماع حديثي عن هذا الأمر؟

ـ أوه، الرّجال، الحياة المقيتة. ألا يتشاجرن طوال الوقت؟ عندما تقومين بتصفيف شعرهن، ألا تخشين أن يبدأن بالشّجار؟

ابتسمت فيوليت:

ـ عندما لا يكن ثملات فحسب.

ـ أوه. طيّب.

ـ إنّهن يتقاسمن الرّجال، ويتشاجرن معهم، وبسببهم كذلك.

ـ لا ينبغي لامرأة أن تعيش على هذا النّحو.

مرّت أليس بطرف لسانها على أسنانها:

ـ قتل النّاس يثير فيّ الغثيان.

صبّت الشّاي، ثمّ رفعت الطّبق والقدح، وأبقتهما قريباً منها، فيما هي تنظر إلى فيوليت.

ـ لو أنّك علمت بأمرهما قبل أن يقتلها، هل كنت اقترفت هذه الفعلة؟

ـ إنّني أتساءل عن ذلك.

قدّمت لها أليس الشّاي.

ـ لست أفهم النّساء من نوعيتك، النّساء الّلاتي يحملن السّكاكين.

انتزعت بلوزة ذات أكمام طويلة، وفردتها فوق طاولة الكيّ.

ـ لم أولد بسكّين.

ـ لا، ولكنّك امتشقت سكيناً.

نفخت فيوليت في الشّاي فتحوّل سطحه إلى تموجات دائريّة:

ـ ألم يحدث لك ذلك قطّ؟

ـ كلا. لم أمتشق سكّيناً أبداً، حتّى عندما هجرني زوجي لم أفعل ذلك قطّ. وأنت. لم تكن لك عدوّة جديرة بهذا الاسم، عدوة جديرة بالقتل، وإنّما امتشقت سكيناً لتدنيس جثّة فتاة.

ـ ولكن ذلك أفضل. أليس كذلك، فقد وقع الضّرر بالفعل.

ـ لم تكن العدو.

ـ أوه، نعم، إنّها العدو، إنّها عدوتي، وقتها عندما لم أكن أعرف بالأمر، والآن كذلك.

ـ لماذا؟ لأنّها كانت شابّة وجميلة وانتزعت زوجك منك؟

راحت فيوليت تحتسي شايها، ولم تحر رداً. وبعد صمت طويل، وبعد أن تحوّل حديثهما إلى الأمور العابرة، ثمّ إلى ضيق نطاق الحياة، قالت فيوليت لأليس مانفريد:

ـ أما كنت تحاربين؟ أما كنت تحاربين من أجل رجلك؟

إنّ الخوف الّذي غرس في الطّفولة، وتمّ ريه كلّ يوم منذ ذلك الحين، قد نما على امتداد عروقها طوال حياتها. وفي غمار التّفكير في الأفكار العدائيّة الّتي جمعها ازدهر متحولاً إلى شيء آخر. الآن

twitter @baghdad_library

وفيما أليس تنظر إلى هذه المرأة سمعت سؤالها وكأنّه فرقعة مسدّس ممّا يلهو به الصّغار.

في مكان ما من سبرنجفيلد لم يَبْقَ إلاَّ الأسنان، وربّما الجمجمة، وربّما لم تبق. ولو أنّها حفرت بالقدر الكافي في العمق، وانتزعت القمّة، لكان بمقدورها التّيقن من أنّ الأسنان ستكون هناك بالتأكيد، ما من شفتين لتتقاسمهما مع المرأة الّتي قاسمتها إيّاهما، ما من أصابع لترفع ردفيها على نحو ما رفعت أرداف الأخريات. الأسنان وحدها متجردة الآن، لا شيء يشبه الابتسامة الّتي جعلتها تقول: «عليك بالاختيار!». وقد اختار.

كان ما حدّثت به فيوليت صحيحاً، فهي لم تمتشق سكّيناً قطّ. وما أهملت قوله ـ ما تدفّق كالفيضان عائداً إلى ذهنها الآن ـ كان صحيحاً كذلك: في كلّ نهار وكلّ ليلة، كانت هي أليس مانفريد، تتوق إلى الدّم. ليس دمه، أوه، لا، فبالنّسبة له راحت تخطّط لوضع السّكر في محرّك سيّارته، وإعمال المقصّ في ربطة عنقه، وحرق حلله، وتمزيق أحذيته وجواربه، أفعال ضارية وطفوليّة قوامها العنف تستهدف مضايقته وإعادة الذّكريات إليه، ولكن لا دماء. جثم توقها على السّائل الأحمر المتدفق في عروق غريمتها، ملقاط للثلج يغرس وينتزع فيجلبه. هل من شأن حبل غسيل يلفّ حول عنقها ويجذب بكلّ قوّة «أليس» أن يجعلها تبصقه؟ غير أنّ أسلوبها المفضّل، الحلم الّذي كان يسقط وسادتها خلال اللّيل، كان رؤية نفسها وهي تمتطي صهوة جواد ثمّ تنطلق به، وتعثر على المرأة وحيدة على طريق، وتنطلق مسرعة إلى أن تدهسها تحت السّنابك الحديديّة الأربعة، ثمّ تكرّ، وتعود، إلى أن يطلّ هناك فحسب تراب الطّريق الّذي داسته السّنابك

والّذي يشير إلى الموضع الّذي كانت فيه الفتاة المنكودة.

لقد اختار، ولسوف تختار بدورها. وربّما بعد الانطلاق عدواً عبر سبعة أشهر من اللّيالي على صهوة جواد لم تمتلكه ولم تعرف كيف تركبه، فوق الجسم الممتلئ المنتفض لامرأة كانت تنتعل حذاء أبيض في الشّتاء وتضحك عالياً كأنّها طفلة، ولم يقدّر لها أن ترى وثيقة زواج قطّ ـ ربّما تكون قد اقترفت شيئاً وحشياً. ولكن بعد سبعة أشهر اضطرت لاختيار شيء آخر. الحلة، رباط العنق، القميص الأثير لديه، لقد اقترحوا ألاَّ تضيع الحذاء هدراً، فما من أحد سيراه. ولكن الجورب. يقيناً لابدّ من وضع الجورب في قدميه؟ قال القائمون بتجهيز الجثمان: بالطّبع. الجورب، بالطّبع. وأي فارق أن يكون من المعزّين غريمتها المقيتة البغيضة، الّتي وضعت ورداً بيضاء على النّعش، والتقطت واحدة منها في لون فستانها. وعلى امتداد ثلاثين عاماً راح يتحوّل إلى أسنان في سبرنجفيلد. وما كان بمقدورها ولا بمقدور المعزّية الّتي ارتدت فستاناً لا يليق بالحداد القيام بشيء حيال ذلك.

لطمت أليس المنضدة بمكواة الضّغط، وقالت:

ـ إنّك لا تعرفين معنى الخسارة.

وأصغت بانتباه لما كانت تقوله، انتباه يضاهي انتباه المرأة الجالسة إلى جوار منضدة الكي، وقد اعتمرت، في الصّباح، قبعة.

twitter @baghdad_library

القبعة، الّتي أرختها فيوليت على جبينها، أضفت عليها مظهر الإغواء. لم يدم التّأثير المهدئ للشاي الّذي قدّمته لها أليس مانفريد طويلاً. وجلست في وقت لاحق في متجر العقاقير ترتشف مشروب الملت، من خلال أنبوبة امتصاص، وهي تتساءل عمن كانت بحقّ السّماء فيوليت الأخرى تلك الّتي مضت تضرب في أرجاء المدينة في جليدها، وتحدّق من خلال عينيها وترى أشياء أخرى. وحيث رأت مقعداً وحيداً ترك كاليتيم في بقعة معشبة من حديقة تواجه النّهر شاهدت فيوليت الأخرى تلك كيف أنّ طبقة الجليد الهشّة أضفت على أعمدة الحاجز السّوداء بريق السّلاح. وحيث لاحظت، هي الّتي كانت آخر الواقفين في طابور اصطفّ في محطّة الحافلة، رسغ طفل مطلّ وقد عمّه البرد من كمّ سترة جاهزة بالغ القصر، فإنّ فيوليت تلك ارتطمت بامرأة بيضاء متجاوزة إيّاها لتظفر بمقعد في العربة الّتي أقبلت متأخّرة عن موعدها بأربع دقائق. وإذا أشاحت عن الوجوه النّاظرة متجاوزة إيّاها عبر نوافذ مطعم، فإنّ فيوليت تلك تسمع قرقعة ارتطام الأطباق في رياح آذار (مارس) الشّرسة. لقد نسيت إلى أي جانب تدير المفتاح في القفل، أمّا فيوليت تلك فإنّها لا تعرف فحسب أنّ السّكين كانت في قفص الببغاء، وليست في جارور المطبخ، بل لقد تذكّرت ما لم تتذكّره هي: إزالة الزّوائد من مخالب الببغاء ومنقاره. وقد بحثت عن تلك السّكين طوال شهر، ولم تستطع

تذكّر ما فعلته بها. ولكن فيوليت تلك كانت تعرف، وقد مضت إليها مباشرة، وعرفت كذلك أين تتواصل مراسم الجنازة، على الرّغم من أنّها ما كان يمكن إلاَّ أن تقام في أحد مكانين. ومع ذلك فإنّ فيوليت تلك عرفت أي المكانين تقام فيه مراسم الجنازة، والوقت المناسب للذهاب إلى هناك، قبيل إغلاق التّابوت، عندما يكون أولئك الّذين سيفقدون الوعي قد فقدوه والنّساء اللّواتي يرتدين الأثواب البيضاء يجلبن الهواء إليهم. وقد تجمع حملة التّابوت ومرافقوه، وهم شبان في مثل عمر المتوفاة، ومن صفّها بالمدرسة الثّانويّة، حلقت رؤوسهم حديثاً ووضعت أيديهم في قفازات بيضاء تذكّر بالأشباح، تجمّعوا أولاً في حلقة محكمة مؤلّفة من ستّة أشخاص، ثمّ انفصلوا إلى صفّين، يضمّ كلّ صفّ ثلاثة منهم، وتحرّكوا من خلفيّة الممشى حيث كانوا قد تجمّعوا وأحاطوا بالتّابوت. كانوا هم الأشخاص الّذين اضطرت فيوليت تلك إلى دفعهم. ربّما كانت إحدى المقربات لدى الرّاحلة وأقبلت في اللّحظة الأخيرة، قبل أن يستحيل عليها أن ترى الوجه الغالي وربّما أن تنساه. ورأى المرافقون السّكين قبل أن تراها. قبل أن تدرك ما يجري، امتدّت أيدي الفتية المرافقين للتابوت، الصّلبة كأنّها كلّها أشاجع، من التّعامل مع الرّخام والصّلب، من كرات الثّلج الّتي تجمع فتصبح في حدّة الطّلقات، من سنوات من إطلاق الكرات الصّلبة بالعصيّ فوق أغطية السّيارات إلى الساحات الّتي تحيط بها أسوار عالية، بل وإلى النّوافذ المفتوحة والموصدة الخاصّة بالمقيمين في الطّابق الرّابع، الأيدي الّتي حملت ثقل الجسم بأسره فيما الفتية يتدلّون من الحواجز الحديديّة لجسور إل ـ كانت تلك الأيدي تمتدّ نحو النّصل الّذي لم تره منذ شهر على الأقل والّذي

twitter @baghdad_library

دهشت لرؤيته الآن مشهراً إزاء وجه الفتاة المتعالي الّذي حجب عنها.

ارتد النّصل محدثاً انبعاجاً صغيراً تحت شحمة أذنها، كأنّها طيّة في الجلد ليست بالتّشويه على الإطلاق. كان يمكن أن تدع الأمر عند هذا الحدّ، الطّيّة تحت شحمة الأذن، لكن فيوليت تلك، الّتي لم تشعر بالرّضا تشاجرت مع الفتية ذوي الأيدي الصّلبة، وأوشكت أن تكون نداً لهم، وقد اضطروا تواً لنسيان أنّ تلك امرأة في الخمسين من عمرها ترتدي معطفاً ذا ياقة من الفراء وتعتمر قبعة أدنت على نحو مبالغ فيه طرفها على عينها اليمنى حتّى بدا من العجيب أنّها تبينت طريقها إلى باب الكنيسة، دع جانباً المكان الصّحيح لتوجيه السّكين إليه، وقد ارغموا على التّخلي عن التّعاليم الّتي لقّنوها طوال حياتهم حول احترام كبارهم، الدّروس الّتي تعلموها من الكبار الّذين راقبت عيونهم الدّامعة كلّ ما يأتونه، وعلّقت عليه، وتحازرت بشأنه، الدّروس الّتي تعلّموها من الكبيرات الأقل إيغالاً في السنّ (مثلها) اللاتي يمكن أن يكنّ عمّتهم، أو جدّتهم، أو أمّهم، أو صديقة أمّهم الأثيرة الّتي لا يمكن أن تشي بهم فحسب، ولكن بمقدورها مواجهتهم، وإيقافهم بكلمة واحدة، بصيحة «كفّوا عن ذلك!» الّتي تطلق من أي نافذة أو دهليز أو رصيف في دائرة تتسع لبنايتين، ولسوف يكفّون عن ذلك، أو يمضون به بعيداً وراء جذوع الأشجار أو في حديقة مهملة، أو ما هو أفضل من ذلك، إلى ظلّ أحد جسور إل حيث لا يسقط الضّوء على ما لم تسمح به أولئك النّسوة، بغضّ النّظر عن هوية الطّفل. ولكنّهم يأتون ذلك الأمر رغم

ذلك. نسوا دروس العمر وركّزوا تفكيرهم على النّصل العريض الملتمع، لأنّه من يدري؟ ربّما كانت قد عقدت العزم على إحداث أكثر من قطع واحد، أو ربّما كان بمقدورهم تصوّر أنفسهم في وضع حقير بائس علّى مائدة العشاء، وهم يحاولون أن يشرحوا لأولئك النّسوة أو حتّى، يا ليسوع! للرجال، للآباء والأعمام وأبناء الأعمام الكبار والأصدقاء والجيران السّرّ في أنّهم قد وقفوا هنالك فحسب كأعمدة الإنارة، وتركوا هذه المرأة المرتدية المعطف ذي الياقة المصنوعة من الفراء تخدعهم وتقضي على المهمّة الشّرفيّة الّتي وضعوا أيديهم في قفازات بيضاء لأدائها، اضطّروا لمصارعتها وإلقائها أرضاً قبل أن تستسلم، وبدا أنّ الصّوت الّذي ند عن فمها ينتمي إلى رجل يتمنطق بحزام رياضي، لا عن امرأة تتدثر بمعطف.

وقتذاك، انضمّ إلى الفتية المرافقين للتابوت كبار بدا التّجهم على أساريرهم، حملوا فيوليت تلك وهي تركل بقدميها وتغمغم إلى الخارج بينما راحت هي تتطلع في دهشة. لم تكن على مثل هذا القدر من القوّة منذ أيّام فرجينيا، منذ كانت تحمل القشّ وتدير أمر العربة الّتي تجرّها البغال كأنّها رجل في سمت النّضج. ولكنّ عشرين عاماً من تصفيف الشّعر في المدينة قد أضعفت ذراعيها، وصهرت الدّرع الّتي كست ذات يوم راحتيها وأصابعها. وشأن حذاء ذهب بالجلد الخشن الّذي كان يكسو قدمها العارية، انتزعت المدينة قوّة الظّهر والذّراع الّتي اعتادت التّباهي، القوّة الّتي لم تفقدها فيوليت تلك لأنّها جعلت الفتية المرافقين، والكبار أيضاً، يواجهون وقتاً عصيباً.

twitter @baghdad_library

كان ينبغي على فيوليت تلك ألاَّ تدع الببغاء تذهب، فقد نسيت كيفيّة الطّيران، وراحت ترتجف فحسب على قاعدة النّافذة، ولكنّها عندما انطلقت عدواً عائدة من الجنازة بعد أن ألقاها الفتية ذوو الأيدي الصّلبة والرّجال المتجهمين خارجاً لم يكن ممّا تستطيع هي أو فيوليت تلك احتماله أن يقال لهما «أحبّك». حاولت ألا تنظر إليها فيما هي تذرع الحجرات، ولكنّها رأتها وراحت تقعقع: «أحبّك» من خلال زجاج النّافذة.

لم يعد جو، الّذي غاب منذ أوّل أيّام العام الجديد، إلى الدّار في تلك اللّيلة، أو في اللّيلة التالية لتناول الفاصوليا، أقبل جيستان وستوك للسؤال عنه، وليقولا إنّهما لم يستطيعا لعب الورق يوم الجمعة، وليتوقفا متمهلين في حرج في الدّهليز بينما فيوليت تحدّق فيهما. هكذا عرفت أنّ الببغاء هناك، لأنّها واصلت صعود ونزول الدّرج من باب شقّتها إلى الباب الأمامي لتبين ما إذا كان جو مقبلاً في الشّارع. وفي الثّانية من بعد منتصف اللّيل ثمّ في الرّابعة فجراً قامت بهذه الرّحلة، وتطلعت إلى الشّارع المظلم، الخالي إلاَّ من اثنين من رجال الشّرطة ومن قطط تبول على الجليد. وفي كلّ مرّة كانت الببغاء تقول لها، مرتجفةً ومحولةً نحوها رأسها الأخضر والأشقر: «أحبّك».

قالت لها:

ـ ابتعدي! امضي بعيداً إلى مكان آخر!

وفي الصّباح الثّاني كانت قد فعلت ذلك. وكلّ ما رأته، هناك في القبو، تحت الشّرفة الصّغيرة عند مدخل المبنى، ريشة صفراء خفيفة

خضراء الطّرف. ولم تكن قد أطلقت عليها اسماً قطّ. كانت قد دعتها كلّ هذه السّنوات بـ «يا ببغائي!». «أحبّك». «أحبّك». ترى هل ظفرت بها الكلاب؟ هل انتزعها أحد جوابي اللّيل ومضى بها إلى دار ليست بها مرايا أو لا تضمّ مخزوناً من رقائق الزّنجبيل لإطعامها؟ أم قد بلغتها الرّسالة ـ إنّها قالت «يا ببغائي!» وقالت «أحبّك» ولم تقلها لها قطّ في معرض الرّد أو تتكلف عناء إطلاق اسم عليها ـ وأفلحت على نحو من الأنحاء في التّحليق بجناحين لم يحلّقا على امتداد ستّ سنوات، جناحين تصلبا من جرّاء عدم الاستخدام والتّبلد في ضوء المصباح الكهربائي في شقّة ليس لها ما تطلّ عليه ويستحقّ الذّكر.

نفد شراب الملت، وعلى الرّغم من أنّ معدتها قد بدا أنّها يوشك أن ينحسر عنها ألمها الموضعي الحادّ، فقد طلبت شراباً آخر ومضت به لتشربه، فيما وراء رفّ المجلات القديمة، إلى إحدى الموائد الصّغيرة الّتي وضعها «دوجي» هناك مخالفاً القانون الّذي ينص على أنّه إذا فعل ذلك فإنّ من شأنه أن يحيل المكان إلى مطعم. وهناك كان بمقدورها الجلوس ومراقبة الزّبد وهو يتبدّد وكرات الآيس كريم وهي تفقد صلابتها وتتحوّل إلى كرات لينة، ملتمعة، كأنّها قطع صابون تركت في حوض ملئ بالماء.

كانت قد اعتزمت جلب لفافة من عقار دكتور دي للأعصاب وزيادة الوزن لكي تخلطه مع مخفوق الحليب والفواكه المضاف إليه الملت، لأنّ المخفوقات وحدها لم يبد أنّها تجديها نفعاً، وقد انحسر عنها الرّدفان اللّذان جاءا بها إلى هنا كذلك، تماماً كالقوّة الّتي كانت في ظهرها ويديها، ربّما كانت فيوليت تلك، الّتي عرفت

twitter @baghdad_library

أين كانت سكين الجزّار وكانت من القوّة بحيث تستخدمها، تحظى بالردفين اللّذين فقدتهما، ولكن إذا كانت فيوليت تلك قويّة وتحظى بالردفين فلماذا تباهت بمحاولة قتل فتاة ميتة ولماذا تفاخرت بذلك. عندما كانت تفكّر في فيوليت تلك وفيما رأته من خلال عينيها كانت تعرف أنّه ليس هناك ما يجلب العار، ولا الاشمئزاز، ذلك كان من شأنها وحدها، ولذلك اختبأت خلف الرّفّ، جالسة إلى مائدة من موائد دوجي الصّغيرة غير المشروعة. وراحت تعبث بالماصّة في ملت الشّيكولاته. كان يمكن أن تكون هي نفسها في الثامنة عشرة، تماماً كالفتاة عند رفّ المجلّات، تقرأ مجلّة «كولييرز» وتمضي الوقت في المتجر. هل كانت دوركاس، خلال حياتها، تحبّ «كولييرز»؟ «ليبرتي مجازين»؟ هل اجتذبتها السّيدات الشّقراوات ذوات الشّعر القصير؟ هل اجتذبها الرّجال الّذين ينتعلون أحذية الجولف والصّدريات ذات العنق على شكل رقم سبعة؟ كيف أمكن أن يجتذبوها إذا كانت قدألفت نفسها منجذبة إلى رجل موغل في العمر بما يكفي لكي يكون في عمر أبيها؟ رجل لا يحمل عصا جولف وإنّما حقيبة عينات لمنتجات كليوباترا. رجل لم تكن مناديله من القطن الخفيف يطلّ طرفها من جيب السّترة، وإنّما هي مناديل حمراء كبيرة منقّطة بنقاط بيضاء. هل طلب منها أن تدفئ بجسمها مكانه في الفراش في ليالي الشّتاء الباردة قبل أن يدلف إليه؟ أم فعل هو ذلك لها؟ ربّما كان قد تركها تضع ملعقتها في وعائه البااينتي المليء بالقشدة وتتناول الجزء الذّائب ذوباناً، وعندما جلسا في ظلام مسرح لنكولن ما كان ليكترث البتّة لو أنّها دسّت يدها في علبته المليئة بالفشار وأخرجتها بملء قبضة منه، ابن الكلبة! وعندما تبثّ

أغنية «جناحان عبر نهر الأردن» ربّما خفض الصّوت لكي يتاح له أن يسمعها تردّد «اطرح جسمي أرضاً!». وحول فكّه باتجاه ضوء المصباح الكهربائي، لكي تنتزع بأظافرها جذر شعرة في إحدى المسام، يا للكلب! وشيء آخر لعين (أصبح الملت حساء الآن، ليِّناً وبارداً) الجائزة الّتي تبلغ قيمتها خمسة وعشرين دولاراً والمتمثِّلة في المصباح المغطّى بظلّة زرقاء لغرفة النّوم أو الرّداء النّسائي السّحلبي اللّون الّذي يشبه السّاتان والّذي فاز به والّذي استحقّه عن بيع كلّ تلك السّلع في شهر واحد ـ هل أعطاه لها تلك البقرة الصّغيرة؟ هل اصطحبها إلى «إنديجو» في يوم سبت، وجلسا بعيداً في المؤخّرة لكي يتاح لهما سماع الموسيقى وهي تندفع ملء القاعة وتعمّهما الظّلمة في الوقت نفسه، إلى إحدى هاتيك الموائد ذات السّطح الأسود الأملس الّذي يعلوه غطاء مائدة شاهق البياض، يحتسيان الجنّ الثّقيل مع تلك المادة الحمراء الحلوة الموضوعة فيه بحيث تبدو كما لو كانت كستناء الصّودا الّتي كان حرياً بفتاة مثلها أن تطلبها بدلاً من المشروب الرّوحي الّذي كان بمقدورها أن ترتشفه من حافة كأس أكثر اتّساعاً عند أعلاها منها عند قاعدتها ذات عنق يشبه الزّهرة، بينما يدها، اليد الّتي لا تمسك بالكأس الّتي تشبه الزّهرة، تحت المائدة تقرع إيقاعاً راقصاً على باطن فخذه، فخذه، فخذه، فخذ، فخذ، وابتاع لها ملابس داخليّة ذات درزات قصد بها أن تبدو كما لو كانت براعم وردات وبنفسجات، بنفسجات، ألا تعلمين، وترتديها من أجله فتبدو ناحلة وتشعر ببرد شديد لا يتفق مع غرفة لا سبيل إلى الاعتماد فيها على جهاز تدفئة يعمل طوال الأصيل، بينما كنت أنا أين؟ أنزلق على الجليد محاولة الوصول إلى مطبخ إحداهن

twitter @baghdad_library

لتصفيف شعرها؟ متكومة في رواق احتماء من الرّيح في انتظار الحافلة؟ حيث يسود البرد، يسود البرد، واستشعره، وما من أحد دلف إلى ملاءات الفراش في وقت سابق ليدفئ لي بقعة أو يمدّ يده فوق كتفي ليسحب عليه الدّثار حتّى ما تحت ذقني أو حتّى أدنى أذنيّ لأنّها وصلت إلى الحدّ البالغ البرودة الّذي تصل إليه أحياناً، وربّما لهذا أصابت السّكين الحادّة خطّ العنق تحت شحمة الأذن. ذلك هو السّبب، وذلك هو السرّ في أنّ الأمر اقتضى الكثير من المصارعة لطرحي أرضاً، وإبقائي على أن أظلّ في موضعي، وإبعادي عن ذلك التّابوت، حيث كانت تلك البقرة الصّغيرة الّتي انتزعت مني ما هو لي، ما اخترته، ما التقطته وصمّمت على امتلاكه والتّشبث به. لا، فيوليت تلك ليست شخصاً يضرب في المدينة وعبر الشّوارع مرتدياً جلدي ومستخدماً عينيّ. خراء. فيوليت تلك هي أنا! الأنا الّتي حملت القشّ في فرجينيا وتسيطر على مجموعة من أربعة بغال شدّت معاً. لقد وقفت في حقول القصب في قلب اللّيل عندما كان صوت حفيفه يغطّي على صوت انسياب الثّعابين، وتجمّدت في موضعي في انتظاره، دون أن أتحرّك قيد أنملة خشية أن يكون قريباً ويفوتني سماعه، واللّعنة على الثّعابين فرجلي مقبل من أجلي ومَن أو ما الّذي سيمنعني من لقائه؟ ومرّات عديدة، مرّات عديدة حملت آثار الضّرب النّاجمة عن سوط ذي فرعين لأنّني تأخّرت في صفّ العاملين المتّجهين إلى الحقل في صباح اليوم التالي. مرّات عديدة، مرّات عديدة قطعت ضعف الخشب الّذي تمسّ الحاجة إليه إلى كتل قصيرة وقطع لإضرام النّار للتأكد من أنّ المعتوهين لديهم ما يكفي منه، ولن يمضوا متذمرين عندما أكون في طريقي للقاء جو ترسي

ولست أكترث بالعاقبة، وافعلوا ما بدا لكم، أو لعلّه جو تريسي الخاصّ بي. ملكي. التقطه من بين الآخرين جميعاً، ولم يكن هنا أحد مثل جو، ومن شأنه أن يجعل أي شخص يقف وسط القصب في منتصف اللّيل، يجعل أي امرأة تحلم به أحلام يقظة محتدمة حتّى لتفقد أثر الدّولاب في الأرض اللّينة وترغم على العمل بجدّ لإعادة البغال إلى الدّرب المطروق، أي امرأة، ولست أنا وحدي، ربّما كان هذا ما رأته وليس العجوز الخمسيني الّذي يحمل حقيبة عينات، ولكن جو تريسي الخاصّ بي، جو تريسي الخاصّ بي الآتي من فرجينيا الّذي حمل ضياء بين جوانحه، والّذي كانت كتفاه من الحدّة بحيث تشبهان الموسى، والّذي نظر إليّ بعينين مزدوجتي الألوان، ولم ير أحداً غيري قطّ. أترى كان بمقدورها النّظر إليه وإدراك ذلك؟ تحت المائدة في «إنديجو» هل كانت تقرع على فخذ لدنة كفخذ طفل، ولكنّها تتحسَّسها طوال الوقت مستشعرة بشرة مشدودة للغاية بحيث أنّها تمزّقت تقريباً وبرزت منها العضلة الحديديّة؟ هل أحسّت بذلك هل عرفت ذلك؟ ذلك والأشياء الأخرى، الأشياء الّتي كان ينبغي أن أعرفها لكنّني ما عرفتها؟ الأشياء السرّيّة الّتي حجبت عني أم الأشياء الّتي لم ألحظها؟ هل هذا هو السبب في أنّه تركها تغترف الجانب الذّائب من حول حواف آيس كريمه وتدسّ يدها في فشاره المخلوط بالزّبد، والملح. ما الّذي رأته فتاة كتلك لم تكد تنهي دراستها الثّانويّة، بشعر نشرت جدائله، ومسّت شفتيها بالأحمر للمرّة الأولى وانتعلت حذاء عالي الكعبين؟ وما الّذي رآه هو كذلك؟ هل رأى ذاتي الشّابّة ببشرة وجنة صفراء بدلاً من سوداء؟ ذاتي الشّابّة وقد استرسل شعرها بدلاً من الشّعر القصير؟ أم لم ير ذاتي على الإطلاق. ذاتي

twitter @baghdad_library

الّتي أحبّها في فرجينيا لأنّ الفتاة دوركاس لم يكن لها وجود هناك. أهذا ما كان عليه الأمر؟ من كانت؟ فيمن كان يفكّر عندما انطلق تحت جنح الظّلام للقائي في حقل القصب؟ شخص ذهبي مثل فتاي الذّهبي الّذي لم أره قطّ ولكنّه مزّق عذريتي يقيناً كما لو كنا خير العاشقين؟ عونك، ربّي، إذا كان الأمر كذلك، لأنّني عرفته وأحببته أكثر من أيّ شخصٍ باستثناء ترو بيل التي شغفتني حبّاً في المقام الأوّل. هل ذلك هو ما حدث؟ كان يقف في القصب محاولاً الإمساك بفتاة لم يرها بعد ولكن فؤاده عرف كلّ شيء عنها، وأنا أتشبث به، ولكنّني أتمنّى لو كان الفتى الذّهبي الّذي لم أره كذلك، الأمر الّذي يعني أنّني من البداية ذاتها كنت بديلة، وكذلك كان هو.

عمّني الهدوء لأنّ الأمور الّتي لم أستطع الإفصاح عنها كانت تخرج من فمي على أيّة حال. عمّني الهدوء لأنّني لم أدر بما قد تقع عليه يداي عندما ينتهي عمل اليوم. حسبت أنّ الشّأن الّذي يعتمل بداخلي ليس من شأني، وليس من شأن جو كذلك، لأنّني كان علي الإمساك به بأيّة طريقة أستطيع وكان السّقوط في هوّة الجنون من شأنه أن يجعلني أفقده.

جعلها الجلوس في ضوء متجر العقاقير المتميز بالحدّة والمباشرة، وهي تعبث بملعقة طويلة في كأس عالية، تفكّر في امرأة أخرى تجلس إلى منضدة متظاهرة بالشّرب من قدح. أمّها. لم ترغب في أن تكون على تلك الشّاكلة. أوه، ليس على تلك الشّاكلة قطّ. أن تجلس إلى المائدة، وحيدة في ضوء القمر، تشرب قهوة مغليّة، تحسو منها حسوات بينما هي قد فرغت، تنتظر مقدم الصّباح عندما يأتي الرّجال، يتحدّثون بأصوات خفيضة، كأنّما لم يكن هناك أحد

غيرهم، ويلتقطون أغراضاً من أشيائنا، رافعين ما يريدون، وما هو ملك لهم، حسبما قالوا، على الرّغم من أنّنا طهونا طعامنا فيه، وغسلنا ملاءتنا فيه، وجلسنا عليه، وتناولنا طعامنا منه. وكان ذلك بعد أن مضوا بعيداً بالمحراث، المنجل، البغل، الخنزيرة، ممخضة اللّبن، مكبسة الزّبد. ثمّ دلفوا إلى داخل الدّار، ووضعنا نحن الأطفال قدماً في موضع الأخرى متداخلين أحدنا في الآخر، ورحنا نرقب ما يجري. عندما انتزعوا المنضدة الّتي كانت أمّنا تجلس إليها متأملة قدحاً فارغاً، مضوا بها من تحتها، ثمّ بينما هي تجلس هناك وحيدة، وكأنّما لا أحد هناك سواها، وقدحها في يدها، عادوا، قاموا بإحالة المقعد الّذي تجلس عليه، فلم تقفز ناهضة منه في التوّ؛ ولذا هزّوه قليلاً، وبما أنّها ظلّت جالسة ـ متطلعة إلى الأمام، إلى لا أحد ـ فقد أمالوه حتّى انزلقت منه، مثلما تبعد القطّة عن المقعد إذا لم ترد لمسها أو التقاطها بين ذراعيك، تميله قليلاً إلى الأمام فتهبط على الأرض، وما من ضرر يقع لو أنّها كانت قطّة لأنّ لها أربع قوائم، ولكن الشّخص، المرأة، قد يسقط إلى الأمام ويظلّ ساكناً هناك لحظة، ناظراً إلى القدح، الّذي هو أقوى ممّا هي عليه، لم يكسر فيه شيء على الأقل، وقد جثم بعيداً عن يدها قليلاً لا سبيل إلى أن تطوله.

كانوا خمسة أطفال. فيوليت ثالثتهم، ودلفوا جميعاً إلى الدّار، في نهاية المطاف، وقالوا: أمّاه، دلف كلّ منهم، وقالها، إلى أن قالت أوه هه. لم يسمعوها تقول أي شيء آخر قطّ في الأيّام الّتي أعقبت ذلك، عندما التمّوا في كوخ هجره أصحابه، وكانوا يعتمدون كلّ الاعتماد على الجيران القلائل المتبقين من ١٨٨٨، الجيران الّذين

twitter @baghdad_library

لم يرحلوا غرباً إلى كنساس سيتي أو أوكلاهوما، أو شمالاً إلى شيكاغو أو بلومنجتون في أنديانا. وعن طريق إحدى آخر العائلات رحيلاً، وكانت في طريقها إلى فيلادلفيا، وصلت رسالة عن محنة روز دير إلى ترو بيل. أمّا أولئك الّذين بقوا فقد جلبوا أشياء: حشية قشّ، قدراً، بعض الخبز، ودلواً من الحليب، ونصيحة أيضاً: «لا تدعي هذ يقضي عليك، يا روز، نحن موجودون، يا روز دير. فكّري في الصّغار، يا روز. لِمَ يحمّلك شيئاً لا تطيقين حمله، يا روز!». ولكن أتراه فعل ذلك؟ ربّما هذا هو ما حدث هذه المرّة. ربّما أساء الحكم على صلابة عزمها ولم يدرك جليّة الأمر، في هذه المرّة، صلابة العزم المحدّدة هذه.

جاءت ترو بيل، أمّ روز، عندما علمت بالأمر. تركت وظيفتها المريحة في بلتيمور، وعادت إلى بقعة صغيرة يقال لها روم في مقاطعة فيسبر لتتولى المسؤولية، وقد خاطت عشر قطع من ذوات الدّولار الّذي يحمل صورة النّسر كلاًّ منها على حدة في تنوراتها لمنعها من إحداث قرقعة. وقعت الفتيات الصّغيرة في هواها توّاً، وعادت الأمور إلى مجراها معاً مرّة أخرى. على مهل، ولكن بصورة مطّردة طوال أربع سنوات، نظمت ترو بيل الأمور، ثم قفزت روز دير في بئر وفاتتها كلّ الأمور الطّريفة بعد أسبوعين من دفنها، وصل زوجها محملاً بقوالب من الحلوى على شكل سبائك الذّهب للصغار، وقطع من ذوات الدّولارين للنساء، وزيت ثعبان للرجال. وجلب لروز دير وسادة حريريّة مطرزة لتريح عليها ظهرها خلال جلوسها على أريكة لم يمتلكها أحد، ولكنّها كان يمكن أن تكون لطيفة حقاً تحت رأسها في التّابوت الصّنوبري، لو أنّه جاء في الوقت

المناسب. تناول الأطفال الشّيكولاته من السّبائك الذّهبيّة وقايضوا فيما بينهم الورق السّماوي مقابل الصّافرات المصنوعة من البوص وخيط صيد الأسماك. وعجمت النّسوة بأسنانهن قطعة الفضّة قبل أن يعقدن عليها بإحكام أطراف ملابسهن، باستثناء ترو بيل، فقد تلمست القطعة النّقدية بأصابعها، وراحت تنقل النّظر ما بينها وبين زوج ابنتها وهزّت رأسها وضحكت.

قال عندما سمع بما فعلته روز:

ـ اللّعنة. أوه. اللّعنة!

بعد واحد وعشرين يوماً كان قد مضى مجدّداً، وكانت قد تزوَّجت من جو، وأفاقت في نيويورك عندما سمعت من أخت لها بأنّه قد فعلها مرّة أخرى: وصل إلى روم بكنوز تنوء بها جيوبه وطويت تحت غطاء رأسه. كانت رحلات عودته جريئة وسرّيّة معاً، لأنّه اختلط بدوائر حزب إعادة المواءمة، وعندما لم تُجْدِ فتيلاً الرّسائل الكلاميّة الّتي بعث بها ملاّك الأراضي، أحدثت الرّسائل البدنية تأثيرها وتم إقناعه بالانتقال إلى مكان آخر، أي مكان آخر. ربّما كان قد اعتزم العثور على سبيل لإبعادهم جميعاً، وفي غضون ذلك عاد على امتداد السّنوات عدّة مرّات رائعة ومحفوفة بالمخاطر والأطر الأسطوريّة. على الرّغم من أنّ الفترات الّتي تخلّلها ازدادت طولاً، وبينما قلّ احتمال كونه مازال حياً، فإنّ الأمل لم ينحسر قطّ. في أي وقت، أي وقت، في يوم اثنين بارد آخر سريع الرّحيل، أو في الحرّ الضّاري لليل أحد، قد يكون هناك، مطلقاً من الطريق صفيراً يشبه صيحة البوم، والأوراق الّتي تحمل تقليداً ساخراً وجريئاً للدولار تبرز من غطاء رأسه، وقد لاحت محشورة في ثنية سرواله وأعلى حذائه،

twitter @baghdad_library

ودسّت الحلوى في جيب معطفه جنباً إلى جنب مع تقليد لدهان شعر المصريّة فريدة، وأحدثت زجاجات الجاودار والماء المطهّر وماء التّواليت الخاصّ بأي غرض يمكن تصوّره قعقعة متساوقة في حقيبته القماشيّة البالية.

لسوف يكون في السّبعينيات من عمره الآن، وبالتأكيد أبطأ في حركته، وربّما فقد الأسنان الّتي جعلت الأخوات يغتفرن له سلوكه. ولكن بالنّسبة لفيوليت (وكذلك أخواتها وأولئك الّذين بقوا في المقاطعة) فإنّه كان هناك في مكان ما في البعيد يجمع ويحفظ الطّرف ليوزعها على أهل بلدته، فمنذا الّذي يستطيع أن ينحي بعيداً هذا الرّجل المليء بالتحدّي الّذي يجعل من كلّ الأيّام أعياد ميلاد والّذي يوزّع الهدايا والحكايات الّتي تبقيهم في حالة من النّشوة ينسون معها لبعض الوقت الدّار الخالية من الطّعام والتّربة المجهدة، أو يعتقدون أنّ ساق طفل سوف تستقيم شيئاً فشيئاً من تلقاء ذاتها، ينسون السرّ في أنّه غادر بلدته في المقام الأوّل واضطر إلى أن ينسل عائداً إليها، ففي صحبته كان النّسيان يتساقط كأنّه حبوب اللّقاح. ولكن بالنّسبة لفيوليت فإن حبوب اللّقاح لم تُزِلْ بلدة روم من موضعها قطّ. وفي غمرة الانبعاث البهيج لهذا الأب الشّجي الّذي يستشعر السّرور في توزيع غنائمه الحقيقيّة والزّائفة لم يُقدَّر لفيوليت أن تنسى روز دير قطّ أو الموضع الّذي ألقت بنفسها فيه، موضع بالغ الضّيق، وشديد الظّلام، إلى حدّ أنّها استشعرت ارتياحاً خالصاً لرؤيتها وقد تمدّدت في تابوتها الخشبي.

قالت ترو بيل:

ـ شكراً للربّ على الحياة، وشكراً للحياة على الموت.

روز! عزيزتي روز دير!

إنّني أتساءل ماذا كان ذلك الشيء، الشيء المحدّد والأخير، الّذي لم تتمكن من احتماله أو تكراره؟ هل أدّت عملية الغسيل الأخيرة إلى تمزّق البلوزة بشدة بحيث لم تعد تحتمل إصلاحاً آخر وتغيّر اسمها إلى خرقة؟ ربّما بلغها نبأ عمليات الشّنق الّتي استمرت أربعة أيّام في روكي ماونت، حيث شنق الرّجال يوم الثّلاثاء والنّساء بعدهم بيومين. أم تراه نبأ المغنّي الشّاب الصّادح في الجوقة الّذي تمّ التّمثيل به وتقييده إلى كتلة خشبيّة، ورفضت جدّته التّخلي عن سرواله المليء بفضلاته، وراحت تغسله مراراً وتكراراً على الرّغم من أنّ اللّطخة قد اختفت في الغسيل الثّالث، ودفنوه في سروال أخيه، وضخّت المرأة العجوز سطلاً آخر من الماء الصّافي. أتراه الصّباح الّذي أعقب اللّيل الّذي لم تعد هناك سيطرة فيه على التّوق (الّذي كان في العادة أملاً)؟ اللّيل الّذي اعتصرها فيه الحنين ثمّ ألقاها قبل أن يهرب مبتعداً واعداً بالعودة ثمّ ألقاها ثانية كأنّها كرة من المطّاط الهندي؟ أم ترى الأمر راجع إلى ذلك المقعد الّذي أمالوه لينتزعوه منها؟ هل سقطت على الأرض ورقدت هنالك عاقدة العزم وقتذاك على أنّها ستقدم على الأمر؟ ذات يوم. أخّرته أربعة أعوام أقبلت ترو بيل خلالها وسيطرت على مقاليد الأمور، ولكنّها راحت تتذكّر عوارض الأرضيّة باعتبارها باباً مغلقاً وموصداً. أتراها رأت الحقيقة القاتمة في قدح خزفي لا يكسر؟ استغرقت وقتاً إلى أن عادت اللّحظة. بألمها الصّارخ أو غضبها الجائح ـ واستطاعت الابتعاد عن الباب، عن القدح، لتخطو نحو اللّامحدوديّة الّتي راحت تومئ من البئر. إنّني لأتساءل ما الّذي كان يمكن أن يكون عليه الأمر.

twitter @baghdad_library

كانت ترو بيل هناك، تضحك بصوت خافت، قادرة على المواجهة، تضيف درزة وراء الأخرى على الضّوء المنبعث من النّار، وتعنى بالحديقة وتعمل بالحصاد نهاراً، تصبّ شاي الخردل على خدوش البنات وجروحهن، وتدفعهن إلى مواصلة القيام بمهامهن بحكايات ساحرة عن أيّامها في بلتيمور، والطّفل الّذي كانت تعنى به هناك. ربّما كان هذا هو قوام الأمر، أن تعرف أنّ بناتها في أيد طيبة، أيد خير من يديها، على الأقلّ، وكانت روز دير متحرّرة من قبضة الوقت الّذي لم يعد ينطلق منساباً، ولكنّه وقف جامداً، ثقيلاً عندما أمالوا المقعد فسقطت عنه. وهكذا ألقت بنفسها في البئر، وغابت عنها كلّ الطّرائف.

وكان أهمّ شيء، وأكبر شيء، خرجت به فيوليت من ذلك هو ألاَّ يكون لها أطفال أبداً، أبداً. أيّاً كان ما يحدث لن تستقرّ أقدام سوداء إحداها فوق الأخرى، بينما يقول فم جائع: أمّاه؟

فيما كبرت فيوليت، لم تستطع البقاء حيث هي ولا الانطلاق بعيداً، فقد امتصّت البئر نومها، ولكن فكرة المغادرة أخافتها. وكانت ترو بيل هي الّتي أرغمتها. كانت هناك محاصيل قطن وفيرة في بالستاين، وكان النّاس من مسيرة عشرين ميلاً يمضون لجمعه، وأفادت الشّائعات أنّ الأجر كان عشرة سنتات للنساء في مقتبل العمر وربع دولار للرجال، وقضت ثلاثة محاصيل مزدوجة هزيلة على التّوالي على كلّ الآمال الكبار، ثمّ حل اليوم الّذي تقافزت فيه اللّوزات سخية وناعمة. حبس الجميع أنفاسهم، بينما المالك ينظر شرزاً ويبصق، وسار مساعداه الأسودان بين الصّفوف، يمسّان الزّهور الرّقيقة، ويتلمسان التّربة بالأصابع محاولين تخمين ما سيكون عليه

حال الطّقس، ولاحت بالسّتاين بأسرها زغباء بأنظف قطن قدّرت لهم رؤيته على الإطلاق، أنعم من الحرير، وتفتحت لوزاته بسرعة بالغة بحيث أنّ الدّودة، الّتي هجرت الحقول منذ سنوات، لم يتح لها الوقت للعودة إلى هناك.

ثلاثة أسابيع. ينبغي لكلّ شيء أن يتمّ إنجازه في ثلاثة أسابيع أو أقلّ. وظهر كلّ من له أصابع في دائرة اتّساعها عشرون ميلاً، وتمّ تشغيله على الفور. قال البعض تسعة دولارات للبالة إذا انفردت بمسؤولية الزّراعة، وأحد عشر دولاراً للبالة إذا كان لك صديق أبيض ليمضي بالمحصول لتسعيره، أمّا بالنّسبة للجامعين فالأجر عشرة سنتات للنسوة وربع دولار للرجال.

بعثت ترو بيل بفيوليت واثنتين من أخواتها في العربة الرّابعة. وقد انطلقوا طوال اللّيل وتجمّعوا عند الفجر، وتناولوا ما قدّم إليهم. وتقاسموا السّهول والنّجوم مع أبناء المنطقة الّذين لم يروا مبرراً لقطع الطّريق الطّويل كلّه إلى الدّار لنيل خمس ساعات من النّوم.

لم تتمتّع فيوليت بموهبة القيام بهذا العمل. كانت في السّابعة عشرة من عمرها، ولكنّها سارت على مهل مع من هنّ في الثّامنة عشرة من أعمارهن، بحيث كانت الأخيرة في الصّف أو قابلت الأخريات وهن في طريق عودتهن من الصّفوف المزروعة، ومن أجل هذا فقد خصّصت للنفض، أي لجمع اللوزات من الشجيرات التي بها لوزات محدودة أقلّ قيمة بقيت على الأغصان بعد أن مرّت بها أياد أسرع من يديها. وإذ داخلها شعور بالتّعرض للإذلال، وأغاظها الآخرون إلى حدّ انخرطت معه في البكاء، فإنّها كانت توشك على اتخاذ قرار بالتوسل لإعادتها إلى روم عندما سقط رجل من الشّجرة

twitter @baghdad_library

فوق رأسها، واستقرّ إلى جانبها، وكانت قد رقدت ليلة واحدة، وقد استبدّ بها الضّيق والعناد، بعيداً قليلاً عن أخواتها، ولكن دونما إيغال في الابتعاد. ليس بعيداً للغاية بحيث لا تستطيع الزّحف عائدة إليهن مسرعة إذا ما اتضح أنّ الأشجار مليئة بالأرواح الّتي تقضي اللّيل بعيداً في تكاسل. وكانت البقعة الّتي اختارت أن تنشر بطّانيتها فيها تحت شجرة جوز سوداء فارهة تشمخ عند حافة الأجمات المجاورة للفدادين المزروعة قطناً.

لم يكن من الممكن أن يكون ماو مع راكونا لأنّه قال: أوه! وقد تدحرجت فيوليت مبتعدة عنه، واشتدّ بها الخوف إلى حدّ ألهاها عن الحديث، لكنّها نهضت على قدميها ويديها استعداداً للانطلاق عدواً.

قال الرّجل:

ـ لم يحدث هذا من قبل، كنت أرقد في الأعالي هناك كلّ يوم. وهذه هي المرّة الأولى الّتي أسقط فيها.

كان بمقدور فيوليت أن ترى هيكله الخارجي في وضع الجلوس، وأنّه راح يمسّد ذراعه، ثمّ رأسه، ثمّ ذراعه مرّة أخرى.

ـ أتنام على الأشجار؟

ـ إذا وجدت لنفسي شجرة جيدة.

ـ لا أحد ينام على الأشجار.

ـ أنا أنام عليها.

ـ يبدو لي هذا نابعاً من رأس سقيم، فالثّعابين يمكن أن تكون هناك.

ـ الثّعابين هنا تنسلّ على الأرض ليلاً. من الّذي يتّسم بسقم الرّأي؟

ـ كان يمكن أن تقتلني.

ـ ربّما قتلتك إن لم تكن ذراعي قد كسرت.

ـ آمل أن تكون قد كسرت، فلن تجمع شيئاً في الصّباح، ولن تتسلق أشجار النّاس أيضاً.

ـ أنا لا أجمع القطن. وإنّما أعمل في دار صنع الجنّ.

ـ ماذا تفعل هنا، إذن، أيّها المتشامخ المدلّ بقوّته، وأنت تنام على الأشجار كالوطواط؟

ـ أليس لديك كلمة لطيفة واحدة لرجل مصاب؟

ـ أجل: ابحث لنفسك عن شجرة أحد غيري!

ـ تتحدثين وكأنّك تملكينها.

ـ وأنت تتحدّث كأنّك تملكها.

ـ لنقل إنّنا نتقاسمها.

ـ لا دخل لي بالأمر.

انبعث واقفاً، وهزّ ساقه، قبل أن يجرّب تحميل ثقله عليها، ثمّ مضى يعرج باتجاه الشّجرة.

ـ لن تعود إلى هناك فوق رأسي.

قال:

ـ سأستعيد قماشي الواقي. انقطع الحبل، وذلك هو ما تسبّب في الأمر.

مسح بنظره امتداد اللّيل، بحثاً عن الأطراف العليا للأغصان، وأضاف:

twitter @baghdad_library

ـ أترينه؟ ها هو. يبدو متدلياً هناك، نعم.

جلس، عندئذٍ، مسنداً ظهره إلى جذع الشّجرة. قال:

ـ رغم ذلك يتعين عليّ الانتظار إلى أن يطلّ الضّوء.

وقد اعتقدت فيوليت على الدّوام أنّه بسبب بدء حوارهما الأوّل في الظّلام (عندما لم يكن بمقدور أي منهما أن يرى من الآخر سوى خطوطه العامّة الغارقة في الظّلام) ونهايته في الفجر الّذي يجمع بين اللّونين الأخضر والأبيض فإنّ الكابوس لم يعد على نحو ما كان عليه. ولن يقدر لها أبداً أن تستيقظ وهي تقاوم جذب بئر ضيقة لها، أو ترقب إطلالة أول ضوء بالحزن الّذي خلفه العثور على روز دير في الصّباح منكفئة في ماء أكثر ضحالة من أن يغمرها.

كان اسمه جوزيف، وحتّى قبل أن تشرق الشّمس، عندما كانت ماتزال محتجبة في الغابات، وإن كانت تضفي الانتعاش على خضرة الدّنيا وعلى الفدادين المتألقة من القطن الأبيض في مواجهة جرح الأفق العقيقي، اعتبرته فيوليت ملكاً لها، ألم يسقط عملياً في حجرها؟ ألم يمكث؟ وطوال اللّيل، تلقّى ردودها الوقحة، ومضى يشكو ويغيظها ويوضح مواقفه، ولكنّه راح يحادثها، يحادثها عبر الظّلام. ومع إطلالة النّور تخايلت ملامحه أمامها، ابتسامته وعيناه النجلاوان الفضوليتان. كشف قميصه المجرّد من الأزرار والمعقود عند خصره عن صدر ادعته ملكاً لها ليكون وسادتها النّاعمة. قصبة ساقيه، لوح كتفيه، الخطّ الخارجي لفكّه، أصابعه الطّويلة، كلّ ذلك ادعته ملكاً لها. وعرفت أنّها محدّقة به لا محالة، وحاولت أن تشيح بناظريها، ولكن لون عينيه الّذي يحمل عناصر المفارقة جعل نظرتها

تعود إليه في كلّ مرّة. وزاد قلقها عندما سمعت العاملين في جمع القطن يتحرّكون توقعاً لطعام الإفطار، وينطلقون بين الأشجار للتخلص من فضلاتهم وقد ندت عنهم الأصوات الصّباحيّة، لكنّه قال، عندئذٍ، لها:

ـ سأعود إلى شجرتنا اللّيلة. أين ستكونين؟

ـ تحتها.

قالتها ونهضت من وسط البرسيم، مثل امرأة لديها مهام تؤدّيها.

لم يقلقها ما يمكن أن يحدّث في غضون ثلاثة أسابيع، وهو الموعد الّذي يفترض أنّها ستأخذ فيه أجرها وقدره دولاران وعشرة سنتات وتعود به إلى ترو بيل، فما حدث هو أنّها بعثت به مع أختيها وبقيت في المنطقة بحثاً عن عمل، ولم يكن المشرف يقدّرها كثيراً بعد أن رأى العرق ينسال منها غزيراً وهي تحاول ملء جوالها بسرعة تضاهي سرعة الأطفال، لكنّها فجأة امتلأت إلى حدّ كبير بالإصرار.

انتقلت للإقامة مع عائلة مؤلفة من ستّة أشخاص في تايريل والتحقت بأي عمل يتيح لها البقاء مع جو حينما كان ذلك بمقدورها. وهناك أصبحت الشّابة القويّة على نحو ملحوظ الّتي كان بمقدورها تولّي أمر البغال وبالة القشّ وقطع الخشب على نحو جيّد كأي رجل. وهناك اكتسبت راحتاها وباطنا قدميها جلوداً سميكة لا تناظرها القفازات ولا الأحذية. وكلّ ذلك من أجل عيني جو تريسي، الفتى ذي التّسعة عشر عاماً، والعجيب العينين الّذي يقيم مع عائلة تبنته صغيراً، والّذي عمل في محالج القطن ومناشر الأخشاب وقطع أعواد القصب وجمع القطن وحصاد الذّرة، والّذي كان يقوم بذبح الحيوانات لدى الحاجة إلى من يقوم بهذه المهمّة وبالحراثة وصيد

twitter @baghdad_library

السّمك وبيع الجلود والصّيد، والّذي كان راضياً بما قدّر له. وقد أحبّ الغابات، عشقها. وهكذا كانت صدمة لعائلته وأصدقائه لا عندما وافق على الزّواج من فيوليت، وإنّما بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً عندما وافق على المضي بها إلى بلتيمور، حيث قالت إنّ كلّ الدّور بها غرف منفصلة، والماء يجيء إليك، وليس العكس، حيث الملونون يعملون في المرافئ مقابل دولارين ونصف الدّولار يومياً، يفرغون الحمولة من سفن أضخم من الكنائس، وآخرون يقودون السّيارات حتّى باب دارك ذاته ليصحبوك إلى حيث تحتاج الذهاب. كانت تصف بلتيمور على نحو ما كانت قبل ربع قرن، وحيّاً لا تستطيع ولا جو الاستئجار فيه، ولكنّها لم تعلم ذلك، ولم يقدّر لها أن تعلمه؛ لأنّهما مضيا بدلاً من ذلك إلى مدينة نيويورك. وحلّت محل أحلامها عن بلتيمور أحلام أقوى. كان جو يعرف أناساً يقطنون في نيويورك، وبعض الّذين كانوا هناك وعادوا حاملين في جعبتهم حكايات جعلت بلتيمور تتوارى. المال الّذي يمكن كسبه لقاء القيام بعمل يسير ـ الوقوف أمام باب، حمل الطّعام على صحفة، أو حتّى تنظيف حذاء شخص غريب ـ يراكم لديك في يوم ما يفوق ما كسبه أيّ منهم في موسم حصاد بأسره. البيض يلقون المال عليك إلقاء ـ لمجرد وجودك في الجوار، أو فتح باب سيارة الأجرة، أو حمل بعض الأمتعة. وأي شيء لديك أو تصنعه أو عثرت عليه تستطيع بيعه في الشّوارع. وفي حقيقة الأمر كانت هناك شوارع يمتلك الملونون كلّ حوانيتها، ومجموعات بنايات بكاملها تحفل برجال ونساء ملونين يتمتعون بالأناقة ويضحكون طوال اللّيل ويكسبون المال طوال النّهار. سيارات من الصّلب تنهب الشّوارع،

ويقولون إنّك إذا ادخرت نقوداً فيمكنك الحصول على إحداهما والانطلاق بقدر ما يمتدّ الطّريق.

أصغى جو لهذه القصص طوال أربعة عشر عاماً، وكان يضحك، لكنّه قاومها كذلك إلى أن غيّر رأيه على حين غرّة، ولم يعرف أحد، ولا حتّى فيوليت، ما الّذي سمح له بأن يغادر حقوله وغاباته وأوديته الوحيدة الّتي تحفل بالأسرار، وبالتخلّي عن قصبة صيده، وسكّين السّلخ الخاصّة به، كلّ قطعة من معداته باستثناء واحدة، وأن يستعير حقيبة لحاجياتهما. لم يقدّر لفيوليت أن تعرف قطّ ما الّذي أثار حميته وجعله يرغب ـ فجأة ولكن متأخّراً عن معظم النّاس ـ في الانتقال إلى نيويورك. وقد افترضت أنّ مأدبة العشاء الّتي دغدغت مشاعر الجميع قد لعبت دوراً حاسماً في تغيير جو لرأيه. وإذا كان بوكر تي. قد جلس لتناول شطيرة لحم دجاج في دار الرّئيس في مدينة تدعى بالعاصمة، قرب ذلك المكان الّذي أمضت فيه ترو بيل وقتاً طيباً للغاية، فلابدّ أنّ الأمور تجري على ما يرام. وقد مضى بعروسه في رحلة بالقطار مشحونة بقدر من الكهرباء يكفي لجحوظ عيونهما، وانطلقا رقصاً إلى المدينة.

حسبت فيوليت أنّها ستخيب ظنّهما، وأنّها ستكون أقلّ جمالاً من بلتيمور. واعتقد جو أنّها ستكون الكمال بعينه. وعندما وصلا، حاملين كلّ أمتعتهما في حقيبة واحدة، علما معاً في التوّ أن الكمال ليس الكلمة المناسبة، وأن الوضع أفضل من ذلك.

لم يرغب جو بدوره في أن ينجبا، وهكذا فإنّ كلّ مرّات الإجهاض تلك ـ مرّتان في الحقل ومرّة واحدة في الفراش ـ كانت عناصر ضيق

twitter @baghdad_library

وقلق أكثر منها خسارة، ونمط الحياة في المدينة سيكون أفضل كثيراً بدون صغار. ولدى وصولهما إلى محطّة القطار في ١٩٠٦ فإنّ الابتسامات الّتي ابتسماها كلاهما حيال مشهد المرأة ذات الأطفال الصّغار الّذين تناثروا كحبّات عقد فوق الحقائب، قد صحبها الإشفاق. لقد أحبّا الصّغار، بل وأوغلا في حبّهم، وخاصّة جو الّذي كان له أسلوبه الخاصّ في التّعامل معهم، ولكن أياً منهما لم يرغب في تجشم العناء. غير أنّه بعد ذلك بسنوات، وعندما بلغت فيوليت عامها الأربعين راحت بالفعل تحدّق في الصّغار، وتتردد أمام الألعاب المعروضة في أعياد الميلاد، ويستبدّ بها الحنق إذا وجّهت كلمة حادّة أمامها لطفل، أو إذا أمسكت امرأة بطفل صغير بارتباك أو دون عناية. وكان أسوأ حرق تسبّبت فيه قد تعرض له صدغ زبونة تمسك بطفل ممدّد على ركبتيها، فقد شردت في تتبعها لتربيت يد المرأة على الصّغير وأرجحتها له بركبتها، ونسيت أمر يدها الممسكة بمكواة تجعيد الشّعر. وارتدت الزّبونة منزعجة وتغيّر لون البشرة في الحال. انبعث أنين فيوليت حاملاً اعتذاراتها، واستكانت المرأة إلى أن اكتشفت أنّ التّجعيد قد تبدّد بتأثير الحرارة اللاّهبة. وقد شفيت البشرة، ولكن أصبحت هناك بقعة خالية في الخطّ المحدّد لشعرها. واضطرت فيوليت إلى التخلّي عن مستحقاتها لتشتري سكوتها.

وشيئاً فشيئاً غدا الحنين أكثر ثقلاً من الجنس، أصبح توقاً لاهثاً، لا سبيل إلى تدبّر أمره. وكانت تمضي واهنة الخطى في إثره، أو متصلبة في محاولة لنفضه عنها. كان ذلك عندما ابتاعت لنفسها هدية، وأخفتها تحت الفراش، لتستخرجها سرّاً عندما لا تعود هنالك

مندوحة من ذلك. وشرعت تتخيّل كم يبلغ عمر ذلك الطّفل الّذي فقدته في الإجهاض الأخير لو أنّه قد عاش حتّى الآن. ربّما كانت طفلة. من المؤكّد أنّها طفلة. من الّذي سيكون أثيراً لديها؟ بأي نغمة كان صوتها سيتردّد؟ وبعد وقت الفطام راحت فيوليت تنفخ في طعام الطّفلة لتبرده من أجل الفم الرّقيق، وفي وقت لاحق سيغنّيان معاً، حيث تغنّي فيوليت بصوت الألتو الخفيض، وتغنّي الطّفلة بصوت السوبرانو العالي ذي العذوبة الّتي تشبه العسل: «ألا تذكّرين، قبل وقت طويل، انطلق صغيران، لست أذكر اسميهما، ذات نهار صيفي متوهِّج، وصلا إلى الطّريق في الغابات، وأسمع النّاس يقولون إنَّ الشّمس غربت وأنّ النّجوم توهجت بسناها. يا للطفلين المسكينين، رقدا في الغابة وماتا. وعندما حلّ بهما الموت. وضع عصفور أبو حناء بالغ الحمرة وريقات الفراولة فوق رأسيهما». أوه! أوه! وفيما بعد سترجل فيوليت لها شعرها على نحو ما تفعل الفتيات الآن، ستجعله قصيراً ويتدلّى على الحاجبين بفاصل دقيق كالورقة؟ خصلات على الأذن؟ جزء رفيع كحدّ الموسى على الجنب؟ شعر ينزلق إلى مويجات معدة بدقّة تنداح صانعة حرف تي؟

راحت فيوليت تغرق في مثل هذا، منداحة إلى حلم عميق. وعندما تسطح ثدياها أخيراً بما يكفي لزوال حاجتها إلى مشدّات الصّدر الّتي تستخدمها الشّابات لدعم صدور تشبه صدر صبيّ لدن، وعندما فقدت حلمتاها طرفيهما المستدقين، هوى عليها جوع الأمّ إلى الأبناء كالمطرقة، فقضى عليها قضاء مبرماً. وعندما استفاقت كان زوجها قد قتل بالرّصاص فتاة صغيرة بما يكفي لتكون تلك الابنة الّتي ارتدت ملابسها لتجتزّ لها شعرها. من تلك الّتي ترقد ممدّدة في

twitter @baghdad_library

ذلك التّابوت؟ من تلك الّتي تقف أمام الكاميرا مستيقظة في الصّورة؟ الكلبة المتآمرة الّتي لم تكترث أدنى اكتراث بمشاعر فيوليت والّتي اقتحمت حياةً وانتزعت ما أرادته واللّعنة على العواقب؟ أم هي فتاة أمّها المدلّلة؟ أهي المرأة الّتي انتزعت الرّجل أم الطّفلة الّتي هربت من رحمها؟ اكتسحها مدّ من الصّابون والملح وزيت القندس، ربّما استشعرت الفزع من مثل هذه الدّار العنيفة. ودون أن تدرك أنّه لو مني الأمر بالإخفاق، لو أنّها واجهت السّموم الّتي أعدتها الأمم وقبضتي الأمّ المنهالتين، لكان بمقدورها التّمتع بأفضل شعر يلقى العناية في المدينة. وبدلاً من ذلك راحت تتسكّع للنّظر في الرُّكَب البدينة لأطفال الغرباء، في واجهات المحال، وعربات الأطفال الّتي تركت للحظة في الشّمس دون أن تدرك سواء أكانت كلبة أم طفلة مدلّلة، أنّهما معاً، الأمّ والابنة، كان بمقدورهما التّنزه معاً في برودواي وتأمّل الملابس بإعجاب، كان يمكن أن تجلسا معاً، في جو عائلي بالمطبخ، بينما فيوليت تصفّف لها شعرها.

قالت لأليس مانفريد:

ـ في وقت آخر، في وقت آخر، كان يمكن أن أحبّها بدوري، تماماً على نحو ما فعلت، وتماماً كما فعل جو.

كانت تمسك بسترتها وقد ثنت طيتي صدرها، حيث اشتدّ بها الشّعور بالحرج، بحيث لم تدع مضيفتها تعلّقها خشية أن ترى البطانة.

قالت أليس:

ـ ربّما، ربّما، الآن لن تعرفي جليّة الأمر قطّ. هل سيقدّر لك ذلك؟

ـ حسبت أنّها ستكون جميلة، جميلة حقاً، ولم تكن كذلك.
ـ أقول إنّها كانت جميلة بما فيه الكفاية.
ـ تقصدين الشّعر، لون البشرة.
ـ لا تحديثني بما أقصده!
ـ ماذا إذن؟ ما الّذي رآه فيها؟
ـ عار عليك. امرأة راشدة مثلك تطرح عليَّ ذلك القول!
ـ يتعيّن عليّ أن أعرف.
ـ إذن، فسلي من يعرف، وأنت ترينه كلّ يوم.
ـ لا تغضبي!
ـ سوف أغضب إذا أردت ذلك.
ـ ليكن، ولكنّني لا أريد سؤاله. لا أريد سماع ما لديه في هذا الصّدد. إنّك تعرفين ما تطلبينه.
ـ الصّفح هو ما تطلبينه، وليس بمقدوري منحك إياه، فهو ليس بمقدوري.
ـ لا، ليس ذلك، ليس ذلك هو جوهر الأمر، الصّفح.
ـ ماذا إذن؟ لا تتحوّلي إلى مخلوق جدير بالشّفقة، فلن أتحمّل تحولك إلى مثل هذا المخلوق. أتسمعينني؟

قالت فيوليت:
ـ لقد ولدنا، أنا وأنت، في وقت واحد تقريباً، نحن المرأتين، أنا وأنت. حدّثيني بجليّة الأمر. لا تقولي إنّني ناضجة وينبغي أن أعرف الأمر، فلست أعرفه. إنّني في الخمسين من عمري، ولست أدري شيئاً. ما رأيك؟ هل أظلّ معه؟ إنّني أرغب في ذلك، أعتقد أنّني

twitter @baghdad_library

أرغب فيه. طيّب، لم أرغب في ذلك على الدّوام. الآن أرغب فيه، أريد بعض الامتلاء في عمري هذا.

ـ أفيقي! امتلاء أو نحول. لن تنالي إلاَّ نصيبك. وهذا هو الأمر.

ـ لست تعرفين بدورك. أتراك تعرفين؟

ـ أعرف ما فيه الكفاية لمعرفة كيفية التّصرف.

ـ أهذا هو الأمر؟ أهذا هو كلّ ما في الأمر؟

ـ أهذا هو كلّ ما في الأمر؟

ـ آه، هذا هو المقتل! أين النّاضجون؟ هل يعود الأمر إلينا؟

ـ آه، أمّاه!

قالتها أليس مانفريد دونما تفكير، ثمّ غطت فمها.

راودت الفكرة نفسها فيوليت: أمّاه! أمّاه؟ أهذا هو المدى الّذي وصلت إليه ثمّ لم يعد بمقدورك بعد إنجاز الأمر؟ ذلك الموضوع الظّليل بلا أشجار الّذي تعلمين أنّك لست فيه وأنّه ما من أحد يمكنه اختيار القيام بالأمر سيحبّك من جديد؟ الموضع الّذي انتهى فيه كلّ شيء إلاَّ الكلام؟

عندئذٍ راحت كلّ منهما تنظر إلى الأخرى. وتواصل الصّمت ممتداً إلى أن قالت أليس مانفريد:

ـ أعطيني هذه السّترة، فليس بمقدوري النّظر إلى تلك البطانة لحظة أخرى!

نهضت فيوليت، وخلعت سترتها، مستلة ذراعيها المحتجزتين في الحرير المنتسل، ثمّ جلست وراحت ترقب عاملة الرّفو وهي تعكف على عملها.

ـ كلّ ما استطعت التّفكير فيه هو أنّ أخونه كما خانني.

ـ حمقاء.

قالتها أليس، وقطعت الخيط.

ـ ليس بمقدوري البوح باسم من خنته معه حتّى لو توقفت حياتي على ذلك.

ـ أراهن أنّ بمقدوره البوح باسمك.

ـ فليبح به.

ـ أي طائل ظننته وراء ذلك؟

لم تحر فيوليت ردّاً.

ـ هل جعلك ذلك تحظين بانتباه زوجك؟

ـ لا

ـ هل فتح قبر ابنة أختي؟

ـ لا

ـ هل يتعين عليّ قولها مرّة أخرى؟

ـ حمقاء؟ لا، لا ولكن خبّريني، أقصد اسمعيني. كلّ من كبرت معهم موجودون هنالك في الدّيار. وليس لدينا أطفال. إنّه كلّ ما لدي، هو كلّ ما لدي.

ـ لا يبدو الأمر كذلك.

قالتها أليس وقد بدت درزاتها لسرعتها خفية ومحتجبة عن العين.

في أواخر آذار (مارس)، جلست فيوليت في متجر دوجي، وراحت تعبث بملعقة، متذكّرة الزّيارة الّتي قامت بها لأليس في ذلك الصّباح. كانت قد أقبلت في وقت مبكر، وقت القيام بالأعمال المعتادة، ولم تكن فيوليت تقوم بأي منها.

twitter @baghdad_library

قالت:

ـ الأمر مختلف عمّا ظننت، مختلف.

قصدت فيوليت عشرين عاماً من العيش في مدينة الوضع فيها أفضل من الكمال، ولكن أليس لم تسلها عمّا قصدته. لم تسلها عمّا إذا كانت المدينة بشوارعها الممهدة كافّة قد أثارت الغيرة في وقت متأخّر للغاية لا يتيح المجال إلاَّ للحماقة، أو ما إذا كانت المدينة هي الّتي أفرزت نوعاً ملتوياً من الحداد على منافسة هي من القلّة في سنوات عمرها بما يكفي لجعلها ابنة لها.

كانتا تتحدّثان عن العاهرات، والنّسوة المتشاجرات، أليس عاكفة على العمل بإبرتها وفيوليت سيطرت عليها اللاّمبالاة، ثمّ ساد الصّمت فيما كانت فيوليت تحتسي الشّاي وتصغي إلى هسيس المكواة. ولكن هذه المرّة كانت كلّ من المرأتين تشعر بالارتياح نحو الأخرى بحيث أنّ الحديث لم يكن ضرورياً. عكفت أليس على كيّ الملابس، وراحت فيوليت ترقبها. وبين الفينة والأخرى كانت إحداهما تغمغم بشيء ما، لنفسها أو للأخرى.

قالت فيوليت:

ـ لطالما أحببت تلك المادة.

ابتسمت أليس، مدركة، دون أن ترفع رأسها، أنّ فيوليت قد قصدت النّشاء. قالت:

ـ وأنا كذلك. كان هذا يدفع زوجي إلى الجنون.

ـ هل يرجع ذلك إلى صوت التواء القماش؟ لا يمكن أن يكون مردّه إلى.

هزّت أليس كتفيها:

ـ الجسم وحده هو الّذي يعرف.

أصدرت المكواة هسيساً لدى لمسها النّسيج الّذي رطَّبه رذاذ الماء. أسندت فيوليت خدّها على راحة يديها:

ـ تقومين بالكيّ مثل جدّتي، تاركة ما حول العنق والكتفين من الثّوب للنهاية.

ـ ذلك برهان الكي من الطّراز الأوّل.

ـ البعض يقوم بكيّ ما حول العنق والكتفين أولاً

ـ ويضطّر لكيّه مرّة أخرى، إنّني أكره الكيّ على نحو متراخ.

ـ أين تعلمت الانحناء للحياكة على ذلك النّحو؟

ـ كانوا يحرصون على شغلنا ونحن أطفال، لكرههم للأيدي الكسول، كما تعلمين.

ـ كنا نجمع القطن، ونقطّع كتل الخشب، ونحرث الأرض. ولم يقدّر لي أن أعرف كيف أطوي يدي في تكاسل. وهذا الوضع هنا يعد أقرب وضع تابعت منه يديّ، وهما بلا عمل.

التهام النّشاء، اختيار وقت كيّ ما حول الرّقبة والكتفين، الخياطة، جمع القطن، الطّهي، قطع الخشب. فكّرت فيوليت في كلّ ذلك وتنهدت:

ظننت الأمر سيكون أكبر من هذا، وكنت أعرف أنّه لن يدوم، ولكنّني ظننت أنّه سيكون أكبر من هذا.

أعادت أليس طيّ القماش حول يد المكواة الثّقيلة، وقالت:

ـ لسوف يكرّر القيام بذلك مرّة، وأخرى وثالثة.

twitter @baghdad_library

ـ في تلك الحالة يتعين عليّ التّخلص منه الآن.

ـ ثمّ ماذا؟

هزّت فيوليت رأسها، وقالت:

ـ أحدّق في عوارص الأرضيّة، كما أظنّ.

تساءلت أليس:

ـ أتريدين شيئاً حقيقيّاً، سأحدّثك بقول من هذا النّوع. خذي أي شيء بقي لك لتحبّيه، أيّ شيء على الإطلاق. قومي بهذا.

رفعت فيوليت رأسها:

ـ وعندما يخونني ثانية؟ ألا أهتمّ بما يفكّر فيه النّاس؟

ـ اهتمي بما بقي لك!

ـ هل تقولين تقبّلي الأمر؟ لا تقاتلي؟

وضعت أليس المكواة بحدّة:

ـ تقاتلين ماذا ومن؟ طفلة أسيء التّعامل معها شاهدت أبويها وهما يحترقان؟ والّتي تعرف خيراً مني أو منك أو من أي شخص مدى ضآله وسرعة انقضاء هذه الحياة الصّغيرة الضّئيلة؟ أو ربّما ترغبين في ركل امرأة لها ثلاثة أطفال وزوج واحد من الأحذية، امرأة ترتدي فستاناً ممزقاً تجرّ ذيله في الطّين، امرأة ترغب في ذراعين تماماً مثلما ترغبين فيهما وتريدين الذّهاب إلى هناك والإمساك بها. لكن الثّوب متّسخ الطّرف بالطّين والنّاس الواقفون هنالك عاجزون عن فهم كيف يمكن لعين أي شخص أن تفقد بريقها على هذا النّحو ومن أين لهم أن يفهموا؟ ما من أحد يطلب منك تقبل الأمر. إنّني أقول قومي بهذا، قومي بهذا.

اقتضى الأمر من أليس لحظة لتلاحظ أنّ فيوليت تحدّق في شيء

ما. وعندما تتبعت مسار نظرتها، رفعت المكواة، ورأت ما شاهدته فيوليت: شكل السّفينة الأسود الّذي ينبعث منه الدّخان، وقد احترق بوضوح في منطقة ما حول العنق والكتفين.

صاحت أليس:

ـ خراء! أوه، خراء!

كانت فيوليت هي الأسبق إلى الابتسام، ثمّ أعقبتها أليس، وسرعان ما اهتزتا معاً من جراء إغرابهما في الضّحك. ذكّر ذلك فيوليت بترو بيل، الّتي ولجت الغرفة الوحيدة الّتي يضمّها كوخها وضحكت حتّى ليفوق صوتها ما يندّ عن غرفة موسيقيّة. كنّ قد انكمشن كالفئران قرب مدفأة من الصّاج، ولم تكن فرناً، على الأرض، وقد استبدّ بهن الجوع والضّيق. تطلعت إليهن ترو بيل، واضطرّت إلى الاستناد لتحول دون جذب الضّحك لها وإلقائها أرضاً معهن. كان ينبغي عليهنَّ أن يكرهنها، أن ينهضن من الأرض ويكرهنها، ولكنهن شعرن بالتحسّن، وليس بالهزيمة، ولا بالضّياع. بالتحسّن، وقد ضحكن أيضاً، وحتّى روز دير هزّت رأسها وابتسمت، وفجأة استقام أمر الدّنيا. وتعلمت فيوليت عندئذٍ ما كانت قد نسيته حتّى هذه اللّحظة: أنَّ الضّحك أمر جاد، وأكثر تعقيداً وجديّة من الدّموع.

فكّرت فيوليت، وقد علت التّجاعيد ملامحها، واهتزت كتفاها، في كيف لاحت في الجنازة وما كانته مهمتها. مشهدها وهي تحاول إتيان شيء كئيب، شيء يعكس الإلمام بالتطورات، وتتلمّس السّكين، بعد أن فات الأوان على أية حال. راحت تضحك إلى أن غمرها السّعال، واضطرّت أليس إلى أن تعدّ لهما معاً قدحاً من الشّاي.

twitter @baghdad_library

ورغم حرص فيوليت على أن تحظى بعجيزة مدملجة إلاَّ أنّها لم تستطع احتساء الملت المتبقّي، والّذي غلب عليه الماء وغدا فاتراً، فاقد الطّعم. زرّرت سترتها، وغادرت المتجر، ولاحظت في الوقت الّذي لاحظت فيه فيوليت تلك أنّ الرّبيع قد حلّ بالمدينة.

وعندما يحلّ الرّبيع على المدينة، يلحظ النّاس أحدهم الآخر في الطّريق، يلاحظون الغرباء الّذين يشاركونهم الأروقة والموائد والفراغ الّذي تنظّف فيه الملابس الدّاخليّة. ولدى خروجهم ودخولهم، خروجهم ودخولهم من الباب نفسه فإنّهم يمسكون بالمقبض نفسه. وفي الحافلات ومقاعد الحدائق يريحون أفخاذهم على مقعد أراح المئات أفخاذهم عليه كذلك. والقطع النّقديّة النّحاسيّة الّتي تسقط في راحة اليد ابتلعها الأطفال وعجمها الغجر، لكنّها ماتزال نقوداً والنّاس يبتسمون حيال ذلك. إنّه الوقت من العام الّذي تستحثّ فيه المدينة التّناقض أكثر من أي وقت آخر، وتشجعك على شراء طعام ممّا يُعرض في الشّارع في وقتٍ لا تكون بك رغبة فيه على الإطلاق، وتمنحك الرّغبة في غرفة تشغلها وحدك وكذلك التّوق إلى السّكنى فيها مع شخص قابلته عرضاً في الشّارع. حقاً ليس هناك تناقض، وإنّما هي حالة، المدى الّذي يمكن أن تذهب إليه مدينة حاذقة في الإنجاز. ما الّذي يمكن أن ينافس الطّوب الّذي تلفّه أشعّة الشّمس؟ عودة الظّلات. إزالة البطانيات من ظهور الجياد. يلين القار تحت أعقاب الأحذية، وتتغيّر الظّلمة تحت الجسور من ظلّ كئيب إلى ظلّ يخفّف وطأة الحرّ. وغبّ المطر، عندما تبرز وريقات الشّجر، تبدو أطراف الأشجار كأصابع مبلّلة تعبث في شعر أخضر منفوش وتصبح السّيارات كصناديق فاحمة السّواد تنزلق وراء الأضواء الأماميّة الّتي أضعفها الغمام. وعلى الأرصفة الّتي تحوّلت إلى ما يشبه الأطلس تتحرك الشّخوص دافعة أكتافها أولاً، وتصنع تيجان

twitter @baghdad_library

رؤوسهم دروعاً تتقاطع زواياها في مواجهة قطرات المطر الّتي تشبه خرادق الأيائل. وتبدو وجوه الأطفال الّتي تلمحها العين في النّوافذ كما لو كانت تنخرط في البكاء، لكن زجاج النّوافذ الّذي تتقاطر عليه المياه هو الّذي يجعلها تبدو كذلك.

في ربيع العام ١٩٢٩، وفي أصيل مطير، كان يمكن لأيِّ عابر سبيل عبر الزّقاق المجاور لبناية سكنية في لينوكس أن يرفع رأسه ويرى لا وجه طفل وإنّما وجه رجل يبكي بإزاء زجاج النّافذة، وهو مشهد غريب قلّما تراه ينخرط فيه الرّجال في البكاء علانية على هذا النّحو، فهذا ليس من شيمهم، ورغم غرابة الأمر فقد اعتاده النّاس في نهاية المطاف، وألفوا رؤية الرّجل وهو يمسح وجهه وأنفه بمنديل مهندس أحمر بينما هو جالس، شهراً بعد آخر، بجوار النّافذة الّتي لا تطلّ على منظر يذكر أو في الشّرفة الصّغيرة عند مدخل المبنى، تحت الثّلج أولاً، ثمّ في وقت لاحق تحت الشّمس. وحري بي القول إنّ فيوليت كانت تغسل تلك المناديل وتقوم بكيّها، لأنّها رغم جنونها ورغم ما أصبحت عليه من افتقار للهندام لم يكن بمقدورها تحمُّل الغسيل القذر. ولكن الجميع سئم انتظار رؤية ما يمكن أن تقوم به كذلك إلى جوار محاولة قتل فتاة ميتة بالفعل وإمداد زوجها بمناديل مرتبة. وكان رأيي الشّخصي أنّها ذات يوم سترتب لك المناديل في صورة مجموعة مندمجة وتحملها إلى أحد أدراج منضدة الزّينة وتدسّها هناك، ثمّ تمضي لتشعل عود ثقاب في شعره. ولم تقم بذلك، ولكنّه كان يمكن أن يكون خيراً ممّا فعلت. وسواء أقصدت ذلك أم لم تقصده فقد دفعته إلى خوض الأمر من جديد، في الرّبيع

عندما يغدو الجو أصفى منه في أي وقت آخر بحيث تصبح حياة المدينة هي حياة الشّارع.

يداعب العميان أوتار الآلات الموسيقيّة ويدندنون في الهواء العليل وهم يمضون في الممشى على مهل وبثبات، إذ لا يرغبون في الوقوف قريباً والتّنافس مع الأعمام المسنِّين المتمركزين في منتصف مجموعة المباني للعزف على القيثارة ذات الأوتار الستّة.

رجل الأغاني المترعة بالحزن والحنين، أسود ومردّد لهذه الأغاني، الأسود من هنا يردّد هذا النّوع من الأغاني.

الجميع يعرف اسمك.

إلى أين انطلقت ولِمَ أيّها الرّجل. وحيد أنا حتّى إنّ بمقدوري أن ألقى حتفي.

الجميع يعرف اسمك.

يصعب أن يغيب عنك المغنّي، وهو يقتعد صندوقاً لحفظ الفاكهة في منتصف الرّصيف، ويمدّ ساقه الاصطناعيّة الّتي تشبه الوتد بحثاً عن الرّاحة، أمّا ساقه الحقيقيّة فتحمل ثقل كلّ من القيثارة وآلة الإيقاع. وقد يحسب جو أنّ الأغنية مؤلّفة عنه، وهو يحبّ الاعتقاد بذلك. إنّني أعرفه خير المعرفة، وقد رأيته يطعم الحيوانات الصّغيرة الّتي لا يبدي أحد غيره أي اكتراث بها، ولكنّني لم أخدع قطّ، وأذكر الطّريقة الّتي اعتاد بها تثبيت قبعته عندما يغادر البناية الّتي يقطنها، وكيف كان يحرّكها إلى الأمام وإلى اليسار قليلاً. وسواء أكان ينحني ليزيل ركاماً من فضلات جواد أو ينطلق مختالاً إلى فندقه المفعم بالحيويّة والنّشاط فإنّ قبعته كان ينبغي أن تكون على هذا النّحو

twitter @baghdad_library

تماماً، ليس ميلاً في القبعة على وجه الدّقّة وإنّما هو انحراف محدّد الزّاوية، كما يسعك أن تقول. وكان الصّديري الّذي يرتديه تحت سترة حلّته مزرّراً حتّى الزّر الأعلى، ولكنّني أعرف أنّ خواطره ليست كذلك، وإنّما هي متسيبة ومفكوكة، فهو يرخي عينيه على ذوات العجائز المدملجة الماضيات في تكاسل عند المنعطف، فهناك شيء لديهن ينشده. وليس هناك إلاّ القليل للغاية في حقيبة عيناته من منتجات كليوباترا ممّا يرغب الرّجال في شرائه باستثناء ذرور ما بعد الحلاقة، فمعظم ما بها مخصّص للنساء، وهنّ نساء بمقدوره محادثتهن والنّظر إليهن ومغازلتهن. ومنذا الّذي يعرف ماذا يدور في ذهنه غير ذلك؟ ولو أنّها منحته أكثر من النّهار بلمحة، لكانت عيون ذوات العجائز المدملجة الّتي ترقبه أكثر إرضاء من عينيها.

وإلاّ فإنّه سيشعر بالأسف لنفسه لإخلاصه في المقام الأوّل، وإذا لم تلق هذه الفضيلة التّقدير، ولم يقفز أحد ليهنئه عليها، فإنّ رثاءه لنفسه يتحوّل إلى مرارة لا يجد صعوبة في فهمها ولا في التّركيز على الشّبان من مجتذبي النّساء المتألقين والوحشيين الّذين يقفون في منعطفات الشّوارع. انتبه! انتبه لرجل مخلص يدنو من الخمسين من عمره. ولأنّه لم يعبث مع امرأة أخرى قطّ، ولأنّه اختار أن يحبّ تلك الشّابّة، فإنّه يعتقد أنّه حرّ. ليس حرّاً في توزيع الخبز وإطعام العالم من سمكة(*)، ولا في إنهاض قتلى الحرب، وإنّما هو حرّ في القيام بشيء وحشي.

(*) من الجلي أنّ الإشارة هنا هي إلى الكتاب المقدّس والمعجزة الّتي قام بها السّيّد المسيح (هـ .م).

خذ كلمتي مأخذ الجدّ، فهو مقيّد بالمسار، ويجتذبه شأن إبرة في مسار أسطوانة بلوبيرد، يدور، ويدور حول المدينة. تلك هي الطّريقة الّتي تجعلك المدينة تدور بها، تجعلك تقوم بما تريده منك، تجعلك تمضي في الطرق الّتي تقول لك لافتاتها إلى أين تسير، وتتركك في غضون ذلك تحسب أنّك حرّ، وأنّ بمقدورك أن تثب إلى الأجمات لأنّك تحبّ ذلك. وليس من أجمات هنا، وإذا كان النجيل المجزوز على ما يرام ويمكن السّير عليه فإنّ المدينة ستدعك تعرف ذلك. وليس بمقدورك الخروج عن المسار الّذي تحدّده المدينة لك، وأيّاً كان ما يحدث، وسواء أصبحت ثرياً أم ظللت فقيراً، وسواء أضعت صحتك أو عشت حتّى طعنت في السنّ، فإنّك ستنتهي دوماً حيث بدأت: جائعاً إلى الشيء الّذي يخسره الجميع ـ العشق المفعم بالشّباب.

ذلك الحبّ كان دوركاس بالفعل، مفعمة بالشّباب ولكنّها حكيمة، كانت حلوى جو الخاصّة، كالحلوى الّتي يسيل لها اللّعاب. كانت أفضل شيء، إذا كنت شاباً، ووصلت لتوك إلى المدينة. وكانت تشبه آلات الكلارنيت، فحتّى تلك الآلات كانت تسمّى بعصى عرق السّوس. ولكن جو كان قد أمضى في المدينة عشرين عاماً، ولم يعد شاباً، وأتصوره واحداً من أولئك الرّجال الّذين يتوقّفون عن سنّ السّادسة عشرة. في الأعماق. وعلى الرَّغم من أنّه يرتدي سترات جلديّة مزرة حتّى أعلاها، وينتعل أحذية دائريّة المقدّمة، إلاَّ أنّه صبي في مقتبل العمر، يضع حمالتين فوق قميصه، ويمكن أن تدفعه الحلوى للابتسام، وهو يحبّ تلك الأشياء المنكهة بالنّعناع وتدوم في حلقه طويلاً، ويعتقد أنّ الجميع يشاركه ذوقه هذا أيضاً، ويوزّعها على صبية آل جيستان المتقافزين في مرح عند

twitter @baghdad_library

حافة الرّصيف، وبمقدورك القول بأنّهم يؤثرون الشّيكولاته أو شيئاً بالفول السّوداني.

وذلك يجعلني أتساءل بشأن جو. كلّ تلك الأشياء الجيدة الّتي يحصل عليها من مؤسّسة وند رمير، وهو يدفع من النّقود مقابل النّعناع والحلوى بقدر ما يدفع لقاء الغرفة الّتي يستأجرها ليضاجع فيها، حيث يتفتح صندوق حلواه أمامه.

هراء. لا عجب أنّ الأمر انتهى على نحو ما صار إليه، ولكن ما كان يتعين أن يصل إلى ذلك، ولو أنّه توقّف عن اقتفاء أثر ذلك الشّيء الصّغير السّريع في كافّة أرجاء المدينة وقتاً طويلاً بما يكفي لإبلاغ ستوك أو جيستان أو أحد الجيران ممن قد يبدون اهتماماً فمنذا الّذي يدري ما سيصير إليه الأمر؟

«إنّه ليس بالشيء الّذي تُحدِّث به رجلاً آخر. أعرف أنّ معظم الرّجال لا يطيقون الانتظار ليحدّث أحدهم الآخر عمّا يقومون به على الهامش، يبرزون كلّ ما ينشغلون به على رؤوس الأشهاد، وهم يقومون بذلك لأنّ المرأة ليست لها كلّ تلك الأهمّية الكبرى، وهم لا يكترثون بما سيظنّه النّاس بشأنها. وكان أقصى ما فعلته هو المضي إلى منتصف الطّريق في إبلاغ مالفوني، ولم يكن هناك سبيل إلى تجنُّب ذلك. ولكن أين تبلغ رجلاً آخر؟ لا على أيّة حال فقد كان حرياً بجيستان أن يكتفي بالضّحك، وأن يحاول التّملص من سماع الأمر. أمّا ستوك فسوف ينظر إلى قدميه، ويقسم بأنّني قد وقعت في ورطة، ويبلغني بمدى الانتصاب الّذي احتاجه لعلاج نفسي، لن أحدّث أياً منهما عنها، فهو ليس بالأمر الّذي تتحدّث عنه إلاّ لصديق

حميم، شخص عرفته من قبل، أي منذ وقت طويل، مثل فيكتوري، ولكن حتّى لو أتيحت لـي الفرصة، فلست أعتقد أنّ بمقدوري إبلاغه بالأمر، وإذا لم يكن بمقدوري أن أحدّث فيكتوري به فذلك راجع إلى أنّه لم يكن بمقدوري أن أحدّث نفسي به، ولأنّني لم أعرف كلّ شيء عنه. وكلّ ما عرفته هو أنّني شاهدتها وهي تبتاع الحلوى، وكان الشيء كلّه حلواً. ليست الحلوى وحدها، وإنّما الشيء كلّه وصورته. الحلوى هي شيء تلعقه، تمتصّه، ثمّ تبتلعه، فينتهي أمره. لا، هذا شيء آخر، أقرب إلى ماء أزرق، وزهور بيضاء، وسكّر في الهواء. وقد احتجت إلى التّحليق هناك، حيث يمتزج كلّ شيء معاً على النّحو المناسب، وحيث ذلك ليس إلاَّ دوركاس.

عندما وصلت إلى الشّقّة لم أدر ما الاسم الّذي يرتبط بالمحيا الّذي رأيته في المتجر، ولم يكن محياها في ذهني وقتذاك على وجه التّحديد. ولكنّها فتحت الباب، فتحته لي. تناهت إليّ رائحة الكعك المخفوق والدّجاج المنكَّه. تجمعت النّسوة، وأطلعتهن على ما لديّ، بينما رحن يضحكن ويقمن بما تأتيه النّساء. ينفضن النّسالة عن سترتي، يضغطن على كتفي لدفعي للجلوس، إنّها طريقتهن في إصلاحك، وتقويم أمر ما يعتقدون أنّه بحاجة للإصلاح.

لم تنظر إليّ، ولم تقل شيئاً، ولكنّني عرفت أين تقف وعلى أي نحو في كلّ لحظة. أسندت عجيزتها على ظهر مقعد في غرفة الاستقبال، بينما كانت النّسوة يتدفّقن خارجات من غرفة المائدة لإصلاح أمرى ومداعبتي، ثمّ نطقت إحداهن باسمها. دوركاس. ولم أسمع الكثير بخلاف ذلك، ولكنّني بقيت هناك، وعرضت عليهن كلّ

twitter @baghdad_library

بضاعتي، مبتسماً، دون أن أقوم بالبيع، وإنّما تركتهن يقمن بالبيع لأنفسهن.

إنّني أبيع الثّقة، وأجعل الأمور يسيرة، وتلك هي أفضل طريقة، ولا أدفع الأمر دفعاً قطّ. شأن الحال في وندرمير عندما كنت أقوم بخدمة الجالسين إلى الموائد. إنّني هناك، ولكن عندما تريدني فقط، أو عندما أعمل في الغرف، فأجلب الويسكي مخفياً بحيث يبدو كالقهوة، هنالك على وجه الدّقّة عندما تحتاجني، وفي الوقت المناسب، ينبغي أن تعرف المرأة الّتي تريد أربعة أقداح من شيء ما، لكنها لا ترغب في طلبها أربع مرّات، وهكذا تنتظر إلى أن يصبح قدحها في مستوى الثّلثين وتقوم بملئه حتّى الحافة مجدّداً، وبتلك الطّريقة فإنّها تشرب قدحاً واحداً بينما تدفع الحساب أربعة أقداح. والنّقود الّتي تدسّ في هدوء تهمس مرتين، مرّة عندما تنزلق في جيبي، وأخرى عندما أخرجها منه.

كنت على استعداد للانتظار، ولتلقي تجاهلها لي. ولم تكن لديّ خطّة، ولو كانت لديّ لما كان بمقدوري تنفيذها، فقد شعرت بالدّوار وقد اعترت الخفّة رأسي، خفّة حسبتها جاءت من النكهة اللّيمونيّة الثّقيلة، ذرور الوجه، وعرق تلك المرأة الخفيف، الملحيّ، ولكن غير المتّسم بالمرارة شأن عرق الرّجل. ولست أدري حتّى اليوم ما الّذي جعلني أحادثها خلال خروجي من الباب.

بمقدوري أن أستحضر في ذهني ما يقوله النّاس، إنّني عاملت فيوليت كما لو كانت قطعة من الأثاث تؤثرها، على الرّغم من أنّها تحتاج إلى شيء ما يومياً لتواصل حضورها بشكل سليم. لست

أدري. ولكن منذ فيكتوري لم يقدّر لي قطّ الاقتراب على نحو وثيق من أحد. وبالنّسبة لستوك وجيستان فإنّنا متقاربون، ولكن ليس على نحو ما يكون عليه الحال مع شخص عرفك منذ مولدك واشتدّ عودكما وبلغتما مبلغ الرّجال في وقت واحد. وكان حرياً بي أن أحدّث فيكتوري بجليّة الأمر. أمّا جيستان وستوك فأيّاً كان ما أقوله لهما فسوف يكون شيئاً قريباً، ولكن ليس على نحو ما هو الأمر عليه حقاً. لم يكن بمقدوري أن أحدّث أحداً إلاَّ دوركاس، وقد أبلغتها بأمور لم أحدّث بها نفسي، فمعها كنت أحسّ بالنضارة وبالجدّة تعاودني مرّة أخرى. وقبل أن ألتقيها كنت قد تغيرت إلى شخص جديد سبع مرّات، وكانت المرّة الأولى عندما اتخذت لنفسي اسماً، إذ لم يسمّني أحد ولا عرف أحد ما يمكن أو ما ينبغي أن يكون عليه اسمي.

ولدت ونشأت في مقاطعة فيسبر بولاية فرجينيا، في العام ١٨٧٣ مكان صغير يدعى فينيا. تلقاني رودا وفرانك وليامز من فورهما، وربياني مع أطفالهما السّتة. كان طفل السّيّدة رودا الأخير في شهره الثّالث عندما تلقّتني، وكنت وإيّاه أكثر قرباً أحدنا من الآخر من كثير من الإخوة الّذين رأيتهم. كان اسمه فيكتوري. فيكتوري وليامز. وسمَّتني السّيّدة رودا باسم جوزيف تيمُّناً باسم أبيها، لكنها لم تفكّر لا هي ولا زوجها في منحي لقباً عائلياً، ولم يحدث أن تظاهرت قطّ بأنّها أمّي الّتي ولدتني، وعندما كانت تؤدّي لي عملاً، أو تمدّ لي يداً بيضاء كانت تقول: «إنّك كأطفالي تماماً». وأحسب أنّ تلك «الكاف» قد جعلتني أسألها ـ ولست أعتقد أنّني كنت قد بلغت الثّالثة بعد ـ عن مكان والدي الحقيقيّين. التفتت، وتطلّعت

twitter @baghdad_library

إليّ، ومنحتني أرق الابتسامات، لكنها ابتسامة حزينة على نحو من الأنحاء، وقالت لي: أوه، يا حبيبي، لقد اختفيا دونما أثر. والطّريقة الّتي فهمت بها كلمة أثر كان قوامها أنّني ذلك الأثر الّذي اختفيا من دونه.

في اليوم الأوّل الّذي التحقت خلاله بالمدرسة كان لابدّ من أن يكون لي اسم ولقب، فقلت للمدرسة أن اسمي هو جو تريسي. فالتفت فيكتوري بكيانه كلّه في المقعد.

سألني:

ـ لماذا تقول لها ذلك؟

ـ لست أدري. السبب.

ـ ستجنّ أمّي غضباً، وكذلك أبي.

كنّا في الخارج، في فناء المدرسة. وكان الفناء جميلاً، بأرضيّة ترابيّة نقلت من موضع آخر، ولكنها امتلأت بالكثير من الأظافر وأشياء أخرى. وكان كلّ منا حافياً، ورحت أبذل قصارى جهدي لانتزاع شظية زجاج من باطن قدمي؟ ولذا لم يكن عليّ التطلع إليه. قلت:

ـ لا، لن يغضبا، فأمّك ليست أمّي.

ـ إذا لم تكن كذلك فمن هي أمّك؟

ـ امرأة أخرى، وسوف تعود. ستعود لي. وأبي أيضاً.

كانت تلك هي المرّة الأولى الّتي عرفت فيها أنّني فكّرت في ذلك، أو رغبت فيه.

قال فيكتوري:

ـ إنّهما يعرفان الموضع الّذي تركاك فيه. وسيعودان إلى دارنا. دار آل وليامز هي المكان الّذي يعرفان أنّك مقيم فيه. كان يحاول السّير على أطراف قدميه، مثل أخته، وكانت تحذق ذلك، وتبالغ في التّفاخر به حتّى إنّ فيكتوري راح يتدرَّب عليه في كلّ فرصة تتاح له. وأذكر ظلّه وهو يندفع على تراب الفناء أمامي:

ـ إنّهما يعرفان أنّك في دار آل وليامز، ووليامز هو اللّقب الّذي ينبغي أن تحمله.

قلت:

ـ يتعين عليهما التقاطي، من بينكم جميعاً، ينبغي أن يلتقطاني، فأنا الأثر، ما مضيا دونه.

ـ أليس ذلك من فساد الرأي؟

ضحك مني فيكتوري، ولفّ ذراعه حول عنقي، محاولاً إرغامي على النّزول أرضاً، ولست أدري ما كان من أمر شظية الزّجاج، ولم يقدّر لي انتزاعها قطّ، ولم يأت أحد للبحث عني كذلك. ولم أعرف أبي أبداً. وأمّي، طيّب، لقد سمعت امرأة في قاعة الطّعام تقول أكثر الأشياء مدعاة لارتباك. كانت تحادث امرأتين أخريين بينما رحت أصبّ القهوة، قالت: «إنّني سيئة بالنّسبة لأطفالي، ولست أتعمد أن أكون كذلك، ولكن هناك شيئاً فيّ يجعل الأمر على ذلك النّحو. إنّني أمّ طيبة، ولكنّهم أحسن حالاً في بعدهم عنّي، ومادامو إلى جواري فلن يحلّ بهم شيء حسن، ومن يغادرون يزدهرون، فيما يبدو، أمّا من يبقون فيعرفون أشدّ العناء، بمقدوركما تصوّر مدى المرارة الّتي أشعر بها وأنا أعرف ذلك. أليس بمقدوركما تصوّر هذا؟

twitter @baghdad_library

تعيّن عليّ أن أختلس نظرة إليها، وأمدني ذلك القول بالقوّة. أعترف بذلك.

حلّ التّغير الثّاني عندما تمّ اختياري وتدريبي لأتحوّل إلى رجل ناضج، وأحيا مستقلاً، وأعول نفسي كائناً ما كان ما أتكبّده من أجل ذلك. لم أفتقد أبي لأنه في المقام الأوّل كان هناك السّيّد فرانك، الرّاسخ مثل صخرة، الّذي لم يميّز بين أي منّا نحن أبناءه. ولكن الحدث الكبير كان اختياري، وفيكتوري أيضاً، من قبل أفضل رجل في مقاطعة فيسبر للمضي معه إلى الصّيد. وبمناسبة الحديث عن الأمور الّتي تجعل المرء فخوراً بنفسه، كان هذا الرّجل هو الأفضل في المقاطعة وقد اختارني وفيكتوري ليعلّمنا الصّيد معه. وكان بارعاً إلى حدّ أنّهم يقولون إنّه يحمل البندقية لمجرّد حملها؛ لأنّه يعرف مسبقاً ما الّذي ستفعله الطّريدة، وكيف يخدع الثّعابين، ويثني أغصاناً وسلكاً لصيد الأرانب. ويوقع الخنزير أرضاً، ويطلق صوتاً لا يستطيع طير الماء مقاومته. قال البيض عنه إنّه من الأطباء السّحرة، ولكنهم قالوا ذلك حتّى لا يضطرُّوا إلى الاعتراف بأنّه حاذق، وقد كان صيّاداً، حاذقاً بقدر ما يمكن أن يكون الناس كذلك، وقد علّمني درسين عشت من خلالهما طوال عمري. كان أحدهما هو سرّ انتزاع الطّيبة والرّقّة من البيض ـ فهم لابدّ من أن يشفقوا على الشيء قبل أن يكون بمقدورهم أن يحبّوه. والدّرس الآخر ـ طيّب، لقد نسيته.

كان الأمر راجعاً له، لما تعلمته منه، فقد جعلني أحسّ بارتياح أكبر في الغابات منه خلال وجودي في المدينة. وإذا ما كان هناك

سور أو خطّ للسكك الحديديّة في أي مكان قريب فإنّ من شأنه أن يجعلني عصبياً. وقد أعتقد النّاس أنّ بمقدورهم الاعتماد عليّ في تأكيد وجود شخص لا يستطيع تحمّل مدينة. المباني الّتي تتكدّس طوابقها بعضها فوق بعض؟ الممرّات الأسمنتيّة؟ أنا؟ لا، لست أنا

تغيّرت للمرّة الثّالثة في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف. وكانت تلك هي السّنة الّتي احترقت فيها فينيا عن آخرها. وقامت النّيران الحمراء سريعاً بما استغرقت الأوراق البيضاء وقتاً طويلاً للغاية في القيام به: إلغاء كلّ صكوك الملكيّة، وإخلاء كلّ الحقول، وإخلاء دورنا منا على نحو بالغ السّرعة، حتّى إنّنا انطلقنا نعدو من منطقة في المقاطعة إلى أخرى، أو إلى لا مكان. وقد سرت وعملت، وعملت وسرت، أنا وفيكتوري، خمسة عشر ميلاً إلى بالستاين. وهنالك التقيت فيوليت. تزوجنا، واستقرّ المقام بنا في دار هارلون ريكس قرب تايرل. كان يملك أسوأ قطعة أرض في المقاطعة. وعملت وفيوليت في زراعة محاصيله لمدّة عامين. وعندما خذلتنا التّربة، وغدت الصّخور هي الحصاد الأكبر تحوّل ما اصطاده إلى طعام لنا، ثمّ ضاق العجوز ريكس بكلّ شيء، وباع المكان مع ما نحن مدينون به له لرجل يدعى كلايتون بيد. وارتفع الدّين من مائة وثمانين دولاراً إلى ثمانمائة دولار في كلّ إدارته للمكان. قال إنّ الفائدة وكلّ السّماد والمواد الّتي نحصل عليها هي من المتجر العام ـ وهي أشياء كان يدفع ثمنها ـ وقال إنّ الأسعار قد ارتفعت. اضطرت فيوليت للعناية بمكاننا وللحراثة في أرضه أيضاً، بينما مضيت من بير إلى كروسلاند إلى جوشين مواصلاً العمل. كنت

twitter @baghdad_library

أقطّع أشجار الصّنوبر بعض الوقت وأعمل في مكان لنشر الأخشاب معظم الوقت. واستغرق ذلك منا خمس سنوات، لكنّنا أنجزنا ما أردناه.

ثمّ حصلت على عمل أقوم فيه بمدّ خطوط السّكك الحديديّة لشركة ساوثرن سكاي. كنت في الثّامنة والعشرين من عمري، وأصبحت معتاداً على التّغير. وهكذا في العام ١٩٠١ عندما تناول بوكر تي. شطيرة في دار الرّئيس كنت قد بلغت حدّاً من الجرأة بحيث قمت بذلك من جديد، حيث قرّرت أن أبتاع لنفسي قطعة أرض. وحسبت، كالأبله، أنّهم سيدعونني أحتفظ بها. وسلبونا إيّاها برقعتين من الورق لم أرهما قطّ، ولا وقعتهما.

تغيّرت للمرّة الرّابعة في العام ١٩٠٦ عندما صحبت امرأتي إلى روم، وهي بقعة تقع قرب المنطقة الّتي ولدت بها فيوليت، وركبنا قطار ساوثرن سكاري للوصول إلى سماء شماليّة. نقلونا خمس مرّات في أربع عربات للالتزام بقانون الفصل العنصري.

أقمنا في شقّة تابعة للسكك الحديديّة في تندر لوين. وعملت فيوليت في الخدمة بالمنازل، وعملت في كلّ شيء، ابتداء من جلد أحذية البيض إلى السّيجار في قاعة يقرأون لنا فيها ونحن عاكفون على لفّ أوراق التّبغ. قمت بتنظيف السّمك ليلاً والمراحيض نهاراً إلى أن عملت مع القائمين على خدمة الموائد. وحسبت أنّني قد استقررت في ذاتي الدّائمة، الذّات الخامسة، عندما غادرنا أقذار شارع مولبري وليتل أفريكا، ثمّ الفئران آكلة اللّحوم في الشّارع الثّالث والخمسين غرباً، وانتقلنا إلى حي أرقى في المدينة.

بحلول ذلك الوقت كانت كلّ الخنازير والأبقار قد اختفت، وما كان عادةً مزارع صغيرة ذات أكواخ لا تقترب بحال من قطعة الأرض الّتي حاولت شراءها غدا بصورة متزايدة بيوتاً. وكثيراً ما كان يمكن أن يتعرَّض ملوَّن لإطلاق النّار عليه لمجرد تجوّله هناك. بنوا صفوفاً من الدّور، وأخرى مفردة ذات أفنية كبيرة وحدائق لزراعة الخضر ثمّ قبيل اندلاع الحرب تمّ تأجير مجمعات مباني بأسرها للملونين. جميل، ولم يكن حالها كما في وسط المدينة فهذه الدّور بها خمس أو ستّ غرف، وبعضها به عشر غرف، وإذا ما توافرت لك خمسون أو ستون دولاراً فإنّ بمقدورك استئجار إحداها. وعندما انتقلنا من الشّارع المائة والأربعين إلى مكان أكبر في لينوكس، حاول السّكان الأقرب في لون البشرة إلى البياض إبقاءنا بعيداً، وقد خضت وفيوليت غمار قتال ضدهم، تماماً كما لو كانوا من البيض. وقد انتصرنا. كانت أوقات صعبة قد حلَّت وقتذاك، وتنافس الملاّك من البيض والسّود على الملوّنين للحصول على الإيجارات العالية الّتي كانت مناسبة لنا لأنّنا أصبحنا نقطن في خمس غرف، حتّى ولو قام بعضنا بتأجير غرفتين من الباطن. كانت البنايات تشبه القلاع الّتي تبدو في الصّور، وعرفنا نحن الّذين نظّفنا ما يخلّفه الآخرون من فوضى وقذارة من البداية كيف نبقي عليها جميلة أكثر من أي شخص آخر. كانت لدينا في كلّ مكان طيور ونباتات، أنا وفيوليت، وقد جمعت الفضلات العضويّة من الشّارع بنفسي لتسميد النّباتات، وحرصت على التّيقن من أنّ الواجهة مرتبة كالدّاخل، وكنت في ذلك الوقت أعمل في أحد الفنادق، وكان ذلك أفضل من القيام بأمر الخدمة على الموائد في مطعم، لأنّه في الفندق هناك سبل أكثر للحصول على

twitter @baghdad_library

البقشيش، وكان الأجر محدوداً، لكن البقشيش تساقط في راحة يدي أسرع من تساقط جوز البقّان في شهر تشرين الثاني (نوفمبر).

عندما رفعت قيمة الإيجارات مرّة فأخرى، وضاعفت المتاجر سعر لحم البقر في الأحياء البعيدة عن وسط المدينة وتركت اللّحم الّذي يستهلكه البيض على حاله، حصلت على بعض الدّخل الإضافي من بيع منتجات كليوباترا في الحي، وبالإضافة إلى ما تحصل عليه فوليت من العمل في العناية بالشّعر بعد أن أوقفت عملها النّهاري كنا في خير حال.

ثمّ حلّ صيف طويل في العام ١٩١٧، وبعد أن نزع أولئك الرّجال البيض حزام حمل صندوق العينات من حول رأسي، أصبحت رجلاً جديداً تماماً على وجه اليقين، لأنهم كادوا أن يقتلوني، جنباً إلى جنب مع الكثيرين. وكان أحد أولئك البيض رحيم القلب ومنع الآخرين من القضاء عليّ هنالك توّاً.

لست أدري على وجه الدّقّة ما الّذي سبَّب الشّغب. ربّما كان ما قالته الصّحف، وما قاله النّدل الّذين عملت معهم، أو ما قاله جيستان ـ قال إنّه ذلك الحزب الّذي يرسل بالدّعوات إلى البيض للقدوم ومشاهدة رجل ملوّن وهو يحترق حياً. قال جيستان إنّ الألوف من البيض قد حضروا. قال جيستان إنّ ذلك جثم على صدر الجميع، وإذا لم يزحه القتل فإنّ شيئاً آخر كان لابدّ أن يزيحه. كانوا يجلبون حشوداً من السّود للعمل خلال الحرب. وجنّ جنون المعتوهين في الجنوب لأنّ الزّنوج يغادرون الجنوب، وجنّ جنون المعتوهين في الشّمال لأنّهم كانوا يتوافدون.

لقد رأيت بعض الأمور خلال الوقت الّذي عشته في فرجينيا. اثنان من إخوتي غير الأشقاء، أصيبا بضرر جسيم. جسيم. لقد أحبّوا أن يقتلوا السّيّدة رودا. كانت هناك فتاة أيضاً. تزور أهلها في كروسلاند. مجرّد فتاة. على أي حال، إذا ألقي القبض عليك هنا فإنّ مائة سيلقى القبض عليهم هناك.

رأيت بعض الصّبية الصّغار يركضون في الشّارع، سقط أحدهم، ولم ينهض في التوّ، وهكذا مضيت إليه. وكان ذلك كلّ ما هناك. تواصل الشّغب بدوني، وقامت فيوليت على تمريضي خلال علاج رأسي. ورغم ذلك فقد نجوت، وربّما كان ذلك هو ما جعلني أتغيّر مجدّداً للمرّة السّابعة بعد ذلك بعامين، في العام ١٩١٩ عندما سرت على امتداد الطّريق، كلّ خطوة لعينة منه مع الفرقة رقم ثلاثمائة وتسعة وستين. لا أستطيع تذكّر مرّة رقصت فيها في الشّوارع إلاَّ تلك المرّة الّتي رقص فيها الجميع. حسبت أنّ ذلك التّغيير هو الأخير، وكان يقيناً هو الأفضل لأنّ الحرب قد اندلعت وانتهت. وقد جعلتني القوّات الملوّنة المنخرطة في الفرقة رقم ثلاثمائة وتسعة وستين الّتي خاضت غمارها أتيه فخرا حتّى انشطر قلبي شطرين. حصل لي جيستان على عمل في فندق آخر كان البقشيش فيه ورقة نقد مطويّة أكثر ممّا هو قطعة معدنيّة. وحالفني التّوفيق. في العام ١٩٢٥ حالفنا التّوفيق جميعاً، وقتذاك شرعت فيوليت في النّوم وبين ذراعيها دمية على شكل عروس صغيرة. متأخّراً كثيراً، فهمت الأمر على نحو من الأنحاء، على نحو من الأنحاء.

لا تسئ فهمي! لم تكن تلك غلطة فيوليت، وإنّما هي غلطتي

twitter @baghdad_library

بأسرها. بكاملها. ولن أستطيع أبداً التّغلب على ما ألحقته بتلك الفتاة. أبداً. فقد تعدّدت مرّات تغيّري، وجدّدت نفسي مرّات أكثر ممّا ينبغي. بوسعك القول إنّني كنت زنجيّاً جديداً طوال عمري، ولكنّني تجاوزت كلّ شيء، ورأيت كلّ شيء، ولم يعدني تغيّر واحد من هذه التّغييرات لها، لم تعدني لدوركاس. كان في وسعك أن تظنّ أنّني في العشرين من عمري، أُرضي في بالستاين شهوتي للمرّة الأولى تحت شجرة حور.

أدهشت الجميع عندما رحلت، أنا وفيوليت. قالوا إنّ المدينة تجعلك تشعر بالوحدة، ولكن بما أنّني تلقّيت تدريبي على يد أفضل رجل غابات، فقد كانت الوحدة شيئاً لا يستطيع الدّنو مني. أطلق النّار! فتى ريفي. رجل ريفي. كيف لي أن أعرف ما يمكن أن تثيره فتاة في الثّامنة عشرة من عمرها في رجل ناضج تنام زوجته ومعها دمية؟ تجعلني أعرف وحدة لم أستطع قطّ تصوّرها في غابة تخلو من النّاس على امتداد خمسة عشر ميلاً، أو على حافة نهر ليس عليها من رفيق إلاّ الطّعم الحي. تقنعني بأنّني لم أعرف الجانب الحلو من أي شيء قطّ إلى أن تذوّقت شهدها. إنّهم يقولون إنّ الثّعابين يصيبها العمى لبعض الوقت قبل أن تغيّر جلدها للمرّة الأخيرة.

كان لها شعر مسترسل وبشرة معيبة. من شأن ربع جالون من الماء مرّتين يومياً أن يصفيها، بشرتها، لكنّني لم أقترح ذلك؛ لأنّني أحببتها على ما هي عليه، تجمّعت أهلة صغيرة تحت عظمتي وجنتيها، كأنّها آثار حدوات شاحبة. هناك وعلى جبينها. ابتعت

المواد الّتي طلبتها مني، ولكنّني سعيد لأنّ أيّاً منها لم يأت بنتيجة. أتزيل علامات الحدوة الصّغيرة الّتي أحبّها؟ تتركني بلا مسارات على الإطلاق؟ أفضل شيء في هذا العالم، بل الشيء الوحيد، هو العثور على المسار والالتزام به. وقد تتبعت مسار أمّي في فرجينيا فأفضى بي تواً إليها، وتتبعت مسار دوركاس من حي إلى آخر، بل لم أكن مضطراً لتدبّر أمر ذلك. لم أكن مرغماً على التّفكير فيه، يسيطر شيء آخر عندما يبدأ المسار بمحادثتك، ويرسل إشاراته بالغة القوّة بحيث يكاد يتعين عليك أن تنظر إليها. إذا لم يحادثك المسار، فربّما نهضت من مقعدك لتمضي لابتياع سيجارتين أو ثلاث سجائر، تمسك بالقطعة المعدنيّة المتواضعة القيمة في جيبك وتشرع في السّير، ثمّ في العدو وينتهي بك العدو إلى موضع في ستيتن أيلاند، لتصرخ عالياً، وربّما لونج أيلاند لتحدّق في الماعز. ولكن لو أنّ المسار يتحدّث، كائناً ما كان ما يعترض سبيل ذلك، فإنّ بمقدورك أن تمدّ نفسك في قاعة مزدحمة وأنت تصوب رصاصة إلى قلبها، غير مكترث بأنّه القلب الّذي لا يمكنك أن تحيا بدونه.

أردت المكوث هناك، بعد انطلاق المسدّس مباشرة: ثووه! ولم يسمعه أحد هناك سواي، وذلك هو السرّ في أن الجمع لم يتفرّق مثل سرب من طيور السّمانى المغردة الّذي بدا شبيهاً به، وإنّما ظلّ على تداخله والتصاقه من خلال حرارة الرّقص والموسيقى الّتي لم تتح له المجال للفكاك. أردت المكوث هناك مباشرة، والإمساك بها قبل أن تسقط وتؤذي نفسها.

لم أكن بصدد البحث عن الأثر المفضي إليها، وإنّما كان هو

twitter @baghdad_library

يبحث عني، وعندما بدأ بالحديث في بداية الأمر لم أستطع سماعه. كنت أمضي هائماً على وجهي، هائماً على وجهي فحسب في كلّ أرجاء المدينة. كان المسدّس لديّ، لكنه لم يكن المسدّس، وإنّما يدي هي الّتي أردت أن أمسك بها. خمسة أيّام مضيت خلالها هائماً على وجهي، مضيت أولاً إلى «هاي فاشون» في الشّارع المائة والحادي والثّلاثين؛ لأنّني حسبت أن لديك موعداً هناك لتصفيف شعرك يوم الثّلاثاء، كان الموعد هو أوّل يوم ثلاثاء من كلّ شهر. ولكنّك لم تكوني هناك. أقبلت بعض النّسوة بأطباق سمك من «سالم بابتست» وراح التّوأمان الضّريران يعزفان على الجيتار في الصّالون. وكان الأمر على نحو ما قلت، فأحدهما هو الّذي يعزف وحده، أمّا الآخر فيساير البرنامج. ولم يكونا أخوين، دعي جانباً أن يكونا توأميْن. كان شيء ما في عزفهما يتوق إلى قليل من التغيير الإضافي. وعلى الرّغم من ذلك فقد كانا يعزفان شيئاً شديد الرّداءة، وليس قداساً، على نحو ما يفعلانه عادة. وتجهَّمت النّسوة اللاّتي يبعن السّمك، وهن يتقوّلن عن أمّهن، ولكنّهن لم يحدّثن التّوأميْن بكلمة واحدة، وعرفت أنّهن سعيدات بالاستمتاع، لأنّ واحدة من أعلاهن صوتاً لم تستطع مقاومة مجاراة النّغم بقدمها. لم يكترثن بي. واستغرق مني بعض الوقت دفعهن لإبلاغي بأنّك لست مدرجة بدفتر المواعيد عن ذلك اليوم. قالت ميني إنّك قمت بتصفيف سريع لشعرك وحدّثتني كيف أنّها لا توافق على مثل هذا التّصفيف السّريع لا لأنّه يتم القيام به فقط لقاء خمسين سنتاً بدلاً من دولار وربع الدّولار لعمليّة التّصفيف الكاملة، وإنّما لأنّه يؤثّر سلباً على الشّعر. قالت إنّه تسخين للشعر وهو متّسخ، الأمر الّذي يلحق الضّرر بالشّعر أكثر من أي شيء آخر

تعرفه، باستثناء عدم تسخين الشّعر على الإطلاق، بالطّبع. لِمَ تعيّن عليك القيام بالتّصفيف السّريع؟ ذلك هو أوّل ما فكّرت فيه. السّبت الماضي. لقد حدّثتني بأنّك ذاهبة مع الجوقة إلى بروكلين للغناء في شيلو، وأنّك اضطررت للمغادرة في التّاسعة صباحاً ولن تعودي قبل مقدم اللّيل، وأنّ ذلك هو سبب اعتذارك، وأنّك قد فاتتك الرّحلة الماضية، وأنّ خالتك علمت بالأمر؛ ولذا تعيّن عليك الذّهاب في هذه الرّحلة، وذلك هو السّبب. وهكذا لم أنتظر مغادرة فيوليت والمبادرة بفتح شقّة مالفوني. لا حاجة لذلك. ولكن كيف أمكنك إجراء تصفيف سريع لشعرك يوم السّبت السّابق ورغم ذلك وصلت إلى محطّة القطار في التّاسعة صباحاً، بينما ميني لا تفتح أبوابها قبل منتصف النّهار في يوم السّبت، لأنّها تفتح الصّالون حتّى منتصف اللّيل عاكفة على مساعدة الجميع على التّأهب ليوم الأحد؟ ولم تكوني بحاجة للحفاظ على موعد الثّلاثاء المعهود. أكنت بحاجة إلى ذلك؟ نحيت الشرّ بعيداً عن خواطري؛ لأنّني لم أكن على يقين من أنّ الموسيقى السّيئة الّتي راح التّوأمان الضّريران يعزفانها لم تكن السّبب فيه. يمكن أن يفعل ذلك بك نوع معيَّن من العزف على البيانو. ليس على نحو ما هو الحال عليه مع آلات الكلارينت، وإنّما قريب منه. ولو أنّ تلك الأغنية كانت تتناهى من الكلارنيت لعرفت ذلك تواً. ولكن الجيتارات أثارت حيرتي وجعلتني أشكّ في نفسي، وفقدت الأثر. مضيت إلى الدّار، ولم ألتقطه مجدّداً إلاَّ في اليوم التّالي، عندما تطلعت إليّ مالفوني، وغطّت فمها بكفّها، غير أنّها لم تستطع أن تغطّي عينيها، فحلقت الضّحكة مقبلة من هناك.

إنّني أعرف أنّك لم تقصدي تلك الأمور الّتي قلتها لي. بعد أن

twitter @baghdad_library

عثرت عليك، ودفعتك للقدوم مجدّداً إلى غرفتنا مرّة أخرى. وما قلته أعرف أنّك ما قصدته، ومع ذلك فهو موجع. وفي اليوم التّالي وقفت متجمداً في الشّرفة الأماميّة دافعاً نفسي إلى القلق حتّى المرض على ما قلته. لا أحد هناك إلاَّ مالفوني تنثر الرّماد على بقع الجليد. عبر الشّارع رأيت ثلاثة من الشّبّان المتأنقين، مستندين إلى الحاجز الحديدي. ثلاثون درجة، ولم تصل السّاعة إلى العاشرة من ضحى النّهار وتألقوا كالجلد اللمّاع، مصقولين. ليس من الممكن أن تكون أعمارهم قد تجاوزت العشرين، أو الثّامنة والعشرين. شباب. ذلك هو ما تعنيه المدينة بالنّسبة لك. انتعل أحدهم طماقاً للكاحل، ودسّ أحدهم منديلاً في جيبه له لون ربطة عنقه وثنى سترته ملقياً إياها على كتفه. كانوا يستندون على الحاجز هنالك، ضاحكين وما إلى ذلك، ثمّ شرعوا في الغناء بصوت خفيض، مبالغين في الانحناء، وقد تقاربت رؤوسهم، وراحوا يطرقعون بأصابعهم. إنّهم من أبناء المدينة، ولعلّك تدرك ما أعنيه. منطوون على أنفسهم، متعقلون، شبان مختالون. لم تكن بهم حاجة للقيام بشيء ـ ينتظرون أن تمرّ بهم الصّبايا وأنّ يعثرن عليهم. سترات ذات أحزمة، ومناديل من لون ربطات عنقهم. أتحسب أنّ مالفوني من شأنها أن تحجب فمها بكفّها أمامهم؟ أو تجعل هؤلاء الشّبان المختالين كديكة في مقتبل العمر يدفعون لها مقدماً مقابل استخدام شقّتها في يوم من أيام الخميس؟ ما كان ذلك ليحدث أبداً لأنّ هؤلاء المختلين لا يحتاجون إلى مالفوني، فالدّجاجات تعثر على الدّيكة الفتية، وتجد المكان أيضاً، وإذا ما تعينّ القيام برصد المسار وتتبع الأثر فهن يقمن بذلك. إنّهن ينظرن ويقمن بالتّخمين، والدّيكة الفتية تنتظر لأنّ الانتظار يطول من أجلها.

وليست بحاجة إلى تتبع أثر أحد، أو يبدو عليها الجهل في صالون تجميل لدى السّؤال عن فتاة أمام نسوة لا يطقن صبراً كي أنصرف ليواكبن الموسيقى الرّديئة بأقدامهن، وليتحدثن عمّا أريد بحق الجحيم معرفته عن فتاة لم تخرج من المدرسة الثّانوية بعد. ثمّ ألست متزوجاً من فيوليت العجوز المجنونة؟ وحدها الدّيكة الّتي تقدَّمت بها السّنّ مثلي يتعيّن عليها النّهوض من الشّرفة الأماميّة، ومقاطعة مالفوني وسط جملة تتفوّه بها، وتحاول السّير لا العدو على امتداد الطّريق إلى إنوود، حيث جلسنا للمرة الأولى ووضعت ساقاً على الأخرى عند الرّكبتين، لكي أتمكن من رؤية الحذاء الأخضر الّذي حملته من الدّار في حقيبة ورقيّة، حتّى لا تعرف خالتك أنّك انطلقت به في شارع لينوكس والشّارع الثّامن بدلاً من حذاء أكسفور الّذي غادرت الدّار منتعلة إياه. وبينما كنت تنقرين بأصبعك على قدمك وتديرين كاحليك لتلقي الإعجاب بالكعبين، رحت أتطلع إلى ركبتيك، لكنّني لم أبادر باللّمس. حدّثتك من جديد بأنّك السّبب في أنّ آدم قد أكل التّفاحة ولبّها، وبأنّه عندما غادر جنّة عدن تركها رجلاً ثرياً، فهو لم يظفر بحواء فحسب، وإنّما حظي بطعم أوّل تفاحة في العالم في فمه طوال عمره، وكان أوّل من عرف مذاقها، وأوّل من مضغها، وابتلعها، وسمع صوت المضغ وترك القشر الأحمر يكسر فؤاده.

نظرت إليّ، عندئذٍ، كأنّك كنت تعرفينني، وحسبت أنّني في جنّة عدن حقاً، ولم أستطع التقاط نظرتك لأنّني كنت أهيم في عشق الآثار الّتي تشبه الحدوة على خدّيك.

عدت إلى هناك مجدّداً، إلى البقعة ذاتها. جعل الجليد القديم

twitter @baghdad_library

السّماء تبدو رقيقة، وسوّد لحاء الشّجر. تناثرت على الجليد آثار قوائم كلب، وأرنب أيضاً، جليّة، كأنّها نمط زخرفة في ربطة عنق ممّا يوضع أيّام الأحد. لابدّ أنّ وزن أحد هذه الكلاب قد بلغ رطلاً. أمّا الأخرى فكانت أصغر حجماً، وأحدها يظلع في مشيته. قلبت آثار أقدامي كلّ شيء رأساً على عقب. وعندما تطلعت ورائي إلى حيث سرت، رأيت نفسي واقفاً هناك منتعلاً حذاء ممّا يسار به في الشّوارع، دونما حذاء مطاطي فوقه، وقد نالني البلل حتّى كاحلي. عرفت بالأمر. ورغم ذلك لم أستشعر البرد لأنّني كنت أتذكّر الأمر على نحو ما جرى في وقتنا. تشرين الأول (أكتوبر) الدّافئ ذاك. أتذكرين؟ كانت شجرة ورد شارون ماتزال مثقلة بالورود. أشجار اللّيلج والصّنوبر بدت شجرة الخزامى الّتي تجمع الهنود حولها كالملك. في المرّة الأولى الّتي التقينا خلالها هناك وصلت قبلك. كان رجلان من البيض يقتعدان صخرة، جلست على الأرض بجوارهما مباشرة إلى أن أصابهما الاشمئزاز وابتعدا. يتعيّن عليك أن تكوني منهمكة في العمل، أو أن تتظاهري بالانهماك فيه لكي تقتربي مجرّد اقتراب من ذلك المكان، وذلك هو السرّ في أنّني جلبت صندوق عيناتي معي، لكي أبدو كأنّني أقوم بتوصيل شيء له أهمّيته. نعم، كان الاقتراب محظوراً، ليكن، ولكن أحداً لم يعنفنا في تلك المرّة، وأضفى ذلك على الأمر إثارة، وجودنا هناك، خطر يفوق وجودنا معاً هناك. حفرت الحرفيْن الأوّليْن من اسمينا على الصّخرة الّتي ابتعد عنها هذان الرّجلان. د. و. ج. وفي وقت لاحق، بعد أن أصبح لنا مكان ونمط سلوك مألوف جلبت لك الهدايا والطّرائف، مستشعراً القلق في كلّ مرّة على ما إذا كان ما سأحضره سيدفعك للابتسام ويجعلك تحضرين مجدّداً في المرّة التالية. كم من

أسطوانات الفونوغراف؟ كم من الجوارب الحريريّة؟ أدوات الحياكة لإصلاح الخيوط المنتسلة. أتذكرين؟ العلبة المعدنية الأرجوانيّة الّتي تعلوها الزّهور والمليئة بقطع شيكولاته شرافت. الكولونيا في زجاجة زرقاء تحمل رائحتها عبق الإثارة الدّاعرة. وجلبت الزّهور مرّة، لكنك أصبت بخيبة أمل حيال تلك الهديّة، فأعطيتك دولاراً لتشتري به ما تشائين. أجر يوم كامل في موطني عندما كنت يافعاً. من أجلك وحدك. أي شيء من أجلك وحدك، لكي أقضم بقوّة، وأمضغ اللّبّ، وأحظى بطعم قشر التّفاحة الأحمر، وأحمله معي طوال ما بقي من عمري. في غرفة ابن أخي مالفوني التي وضعت على نافذتها شارة رجل الثّلج. المرّة الأولى بالنّسبة لك، والمرّة الأولى بالنّسبة لي بمعنى من المعاني. ولأجل ذلك، سأقولها مرّة أخرى، سأمضي مختالاً في أرجاء الحديقة، أمضي مختالاً! مادمتُ أتأبّط ذراعك، يا فتاة! يا دوركاس! يا فتاة! مرّتك الأولى ومرّتي. لقد اخترتك. لم يمنحني إياك أحد. لم يقل أحد إنّ تلك هي الّتي تناسبك. وإنّما اخترتك. في الوقت الخطأ، نعم، وفعلت الخطأ وفقاً لما تراه زوجتي. ولكن الانتقاء، الاختيار. لا تظنّي قطّ أنّني سقطت في هواك أو سقطت فوقك. لم أسقط في الهوى، وإنّما تساميت فيه. رأيتك وحسمت أمري. أمري. وحسمت أمري لاتباعك أيضاً. وذلك أمر أعرف كيف أقوم به منذ عهد بعيد. ربّما لم أحدّثك بذلك الجانب المتعلق بي. هديتي في الغابات الّتي تطلع حتّى هو إليها، وكان أفضل من هناك قاطبة. الأفضل على الإطلاق. أولئك الّذين تقدَّم بهم العمر، كانوا يعرفون بالأمر كلّه، إنّني أتحدّث عن تحوّلي إلى شخص جديد سبع مرّات قبل أن أقابلك ولكن هنالك في ذلك الحين، هنالك في تلك البقعة، لو أنّك كنت ملونة أو زعمت أنّك كذلك لتعيّن

twitter @baghdad_library

عليك أن تكوني جديدة، وأن تظلّي على هذه الجدّة في كلّ يوم تطلع فيه الشّمس وكلّ ليلة تغيب فيها، ودعيني أقل لك، يا صغيرتي، بأنّه في هاتيك الأيام كان ذلك أكثر من مجرّد «حالة ذهنيّة».

من شأني القول بأنّه من قبيل المخاطرة محاولة تخمين الحالة الذهنية لأي شخص. ولكنّه أمر جدير بتحمّل عنائه، إذا كنت مثلي، فضولياً ومبتكراً وحافل الجعبة بالمعارف. إنّ جو يتصرّف وكأنّه عرف كلّ شيء عمّا فعله من تقدَّم بهم العمر لمواصلة المسير، ولكنّه ما كان ليعرف الكثير عن ترو بيل، على سبيل المثال، لأنّني أشكّ في أنّ فيوليت قد حدّثته عن جدتها قطّ، ولم تحدّثه عن أمّها قطّ. وهكذا فإنّه لم يعرف، ولم أعرف بدوري، على الرّغم من أنّه ليس من الصّعب تصوّر ما كان عليه الحال.

لابدّ أنّ حالتها الذّهنية عندما انتقلت من بلتيمور عائدة إلى مقاطعة فيسبر كان قوامها الذّهول. كانت قد تركت وردزورث، حاضرة المقاطعة، وهي من الأقنان، وعادت في العام ١٨٨٨ امرأة حرّة. وقد أقامت ابنتها وأحفادها في مكان وضيع صغير يدعى روم، على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشّمال من البلدة الّتي غادرتها. وقد تراوح الأحفاد في السنّ من الرّابعة إلى الرّابعة عشرة، وكانت إحداهن، وهي فيوليت، في الثانية عشرة من عمرها عندما وصلت ترو بيل. كان ذلك بعد أن أقبل الرّجال لأخذ الماشية وأوعية الطّعام، والمقعد الّذي جلست عليه ابنتها روز دير. وعندما وصلت إلى هناك كان كلّ ما بقي، بخلاف بعض الحصر المستعارة، والملابس الّتي تكسو عريهم، رقعة الورق الّتي وقّعها زوج روز دير، والّتي تفيد بأنّ بمقدورهم ـ أنّ للرّجال الحقّ في القيام بذلك، وأحسب أنّ عليهم

twitter @baghdad_library

واجب القيام بذلك، إنْ أبى المطر أن ينهمر، أو إذا انهمرت كتل جليديّة من السّماء بدلاً من المطر، وهوت بالمحاصيل إلى مستوى سوقها. وما من شيء في رقعة الورق عن انضمام الزّوج إلى حزب يحبّذ اقتراع الزّنوج. وإذ تجرّدت العائلة الصّغيرة الحزينة الّتي وجدتها ترو بيل من الدّار والأرض، فقد أقامت خفية في كوخ مهجور عثر بعض الجيران عليه، وتناولوا الطّعام الّذي كان بمقدور أولئك الجيران اقتسامه معهم وما تفلح الفتيات في العثور عليه. الكثير من الباميه والبقول المجفّفة، وثمار صغيرة من كلّ نوع حيث أظلّهم شهر أيلول (سبتمبر). غير أنّ ابن القسّ جلب لهم مرتين سنجاباً صغيراً لتحويله إلى وليمة. حدّثت روز النّاس بأنّ زوجها، الّذي سئم الطّماطم الخضراء المقليّة والبرغل، والّذي تضوّر على نحو لا يصدّق إلى لحم، بعض اللّحم، لا الجلد فحسب، واشتعل غضباً إزاء سعر البنّ، وشكّل ساقي كبرى بناته، فرحل، نهض ورحل. مضى بعيداً إلى مكان ما ليجلس ويفكّر في الأمر، أو ليجلس دون أن يفكّر فيه. وقد كان من الأفضل أن تصطنع الحديث من أن تفصح عمّا كانت تعرفه. قد يجيئون في المرّة المقبلة، وليس بحثاً عن قدورها ومقاليها ودارها. ومن حسن طالعها أنّ ترو بيل كانت تحتضر، وعلى استعداد لأن تلقى الموت في مقاطعة فيسبر، بعد أن منحت خير ما في عمرها بأسره لفيرا لويز في بلتيمور.

والموت الّذي كانت ترو بيل تحتضر وصولاً إليه استغرق أحد عشر عاماً، أي ما يكفي من الوقت بالنّسبة لها لكي تنقذ روز، وتدفنها، وترى عودة الزّوج أربع مرّات، وتصنع ستّة ألحفة، وثلاثة عشر قميصاً نسوياً تحتياً، وتملأ رأس فيوليت بالقصص عن سيّدتها

البيضاء، ونور حياتيهما معاً، فتى جميل كان اسمه، لأسباب جلية، جولدن جراي، كان لقبه جراي لأنّ ذلك كان لقب فيرا لوير (وفي وقت أعقب ذلك بوقت طويل لأنّ ذلك كان أيضاً لون عينيه) واسمه جولدن لأنّه بعد اختفاء جلد الولادة الوردي مع الزّغب على رأسه، كان لحمه ذهبياً على نحو متألق، وقد غطّت خصلات صفراء لينة رأسه وشحمتي أذنيه. ولم يكن شعره في شقرة شعر فيرا لوير، ولكن لونه المتألق كالشّمس وتجعده الّذي لا يلين حبّباه إليها. لم يحدث ذلك كلّه دفعة واحدة، وإنّما استغرق بعض الوقت، ولكن ترو بيل ضحكت عالياً لحظة وقوع عينيها عليه، وبعد ذلك كلّ يوم على امتداد ثمانية وعشرين.

عندما أقام ثلاثتهم في دار منيفة مبنيّة بالحجر الرّملي، في شارع أديسون في بلتيمور، بعيداً عن مقاطعة فيسبر، حيث ولدت كلّ من فيرا لويز جراي وترو بيل، كان ما أبلغت به السيّدة البيضاء جيرانها وصديقاتها صحيحاً في بعض جوانبه، إذ قالت إنّها لم تستطع تحمل طريقة الحياة الضّيقة الأفق في المقاطعة الّتي تنتمي إليها، وأنّها قد جلبت معها خادمتها ووليداً يتيماً حبّب لها إلى بلتيمور لتجرِّب طريقة حياة أكثر زخماً.

كان القيام بذلك بمثابة تمرّد على وجه التّقريب يشبه المناداة بحق الانتخاب للمرأة، وحرصت الجارات والصّديقات على أن يبقين على مسافة تعكس التحفّظ حيال فيرا لوير بقدر استطاعتهن. وإذا كن قد حسبن أنّ ذلك سوف يرغمها على تغيير أسلوبها والإقرار بأنّها بحاجة للبحث عن زوج لها فإنّ الصّواب قد جانبهن، فقد اكتفت الوافدة

twitter @baghdad_library

الجديدة غير العادية والثرية والشّديدة العناد بالتّرف وبقدر أقلّ من صحبتهنّ. وبالإضافة إلى ذلك فقد بدا أنّها مستغرقة تماماً في قراءة الكتب وكتابة الكتيبات والإعجاب البالغ بالطّفل اليتيم.

منذ البداية، كان كالمصباح في تلك الدّار الهادئة الظّليلة. وإذ أدهشهما مرآه كلّ صباح، فقد تنافستا في الحصول على الضّوء الّذي يمتدّ سناه منه إليهما. دلّلته فيرا لوير بمزيد من الكلف الصّاخب، وترو بيل بالانغماس الكامل في الاهتمام به، وكانت ترو بيل تقوم، وهي تضحك وتضحك، بتغذيته بالكعكات المنتقاة، وتلتقط كلّ بذرة من بذور البطيخ قبل أن تدعه يقوم بتناوله، وكانت فيرا لوير تخاطبه كما لو كان أمير ويلز وتقرأ له قصصاً مترعة بالحيويّة.

كان حرياً بترو بيل، بالطّبع، أن تعرف كلّ شيء في التوّ، لأنّه لم يكن بمقدور أحد في المقام الأوّل أن يحجب الكثير في وردزورث وما من شيء على الإطلاق يمكن إخفاؤه في البيوتات الكبيرة لملاّك الأراضي. ومن المؤكّد أنّ أحداً لم يكن بمقدوره الامتناع عن ملاحظة المرّات العديدة الّتي يتمّ فيها استدعاء فتى زنجي كلّ أسبوع من خارج فينيا لركوب الجياد بصحبة الآنسة فيرا، وأي جزء من الغابات كانت تؤثر التّريض فيه. وعلمت ترو بيل بما كان كلّ الزّنوج يعرفونه، وعلمت ما هو أكثر لأنّها كانت المكلّفة دون غيرها بالاهتمام بكلّ ما ترغب فيه الآنسة فيرا لوير أو تحتاجه، بما في ذلك غسل وكيّ ملابسها الّتي كان بعضها ينقع طوال اللّيل في الخلّ مرّة كلّ شهر. وهكذا فإنّها إن لم تحتج إلى ذلك، إذا كانت الملابس

التحتانيّة الحميمة يمكن أن تغسل مع باقي الملابس، فإنّ ترو بيل قد عرفت السّبب في ذلك، وعرفت فيرا لويز أنّها تعرف. ولم تكن هناك حاجة للحديث عن هذا الأمر قطّ. والوحيدان اللّذان لم يعرفا هما الأبوان. وبقدر ما يمكن أن تحدّد ترو بيل فإنّ الفتى الأسود الّذي يوشك على أن يغدو أباً لم يكتشف الأمر قطّ؛ لأنّ فيرا لويز لم تأتِ على اسمه قطّ أو تقترب منه ثانية. ولم يعرف الأب العجوز، الكولونيل وردزورث جراي بشيء على الإطلاق.

لابدّ أنّ زوجته هي الّتي أبلغته في نهاية المطاف. أبلغته في نهاية المطاف على الرّغم من أنّها لم تحادث ابنتها عن الأمر قطّ، وبعد أن اكتشفته لم تحادث ابنتها على الإطلاق، وقد كانت هي من تعيّن عليها أن تطلع الكولونيل على جلية الأمر، وعندما اكتشفه وقف، ثمّ جلس ثمّ وقف مجدّداً. دفت يده كالخفّاش في الهواء باحثة عن شيء ما، جرعة من الويسكي، غليونه، سوط، بندقية، برنامج الحزب الديمقراطي، قلبه ـ لم يقدر لفيرا لويز قطّ أن تعرف. لثوان قلائل بدا كمن حلّت به ضربة، ضربة غاصت في أعماقه، ثمّ انسال حنقه إلى الغرفة، فلفّ الثّريا في سحابة وألان غطاء المائدة المنشَّى. جعل إدراكه للشيء الرّهيب الّذي حلّ بابنته العرق يعلوه، فقد كان هناك سبعة من الأطفال الخلاسيين على أرضه، انسال العرق من صدغيه وتجمع تحت ذقنه، وبلّل إبطيه وظهر قميصه، فيما الحنق يجتاح الغرفة ويغرقها كالفيضان. تطاول اللّبلاب على المائدة، وغدت الفضيّة زلقة لدى الإمساك بها في الوقت الّذي مسح فيه حاجبه وجمع شتات نفسه للقيام بما يقتضيه المقام، فصفع فيرا لوير فألقاها على المائدة.

twitter @baghdad_library

غير أنّ اللّطمة الأخيرة وجّهتها أمّها. كان حاجباها ساكنين تماماً، لكنّ النّظرة الّتي رمقت بها فيرا لوير فيما هي تحاول جاهدة النّهوض من الأرض كانت مفعمة بالازدراء حتّى إنَّ الابنة استطاعت الشّعور بطعم اللّعاب اللاّذع المتجمِّع تحت لسان أمّها، وهو يملأ فمها. وحدها التّربية، التّربية المترعة بالعناية، لم تسمح لها بأنّ تبصق. لم تفه ببنت شفة، في ذلك الحين أو في أي وقت آخر، في معرض الحديث مع ابنتها. وكانت حقيبة الملابس النّسائيّة المليئة بالنّقود الّتي وضعت على وسادة فيرا في يوم الأربعاء التالي مثقلة، من خلال سخائها، بالاحتقار. نقود تفوق ما يحتاجه أي إنسان في العالم لقضاء سبعة أشهر أو نحو ذلك بعيداً عن الدّار. نقود كثيرة للغاية بحيث أنّ الرّسالة الّتي تنقلها لم يكن هناك سبيل للمماراة فيها: فلتقضي نحبّك أو فَلْتنقضِ حياتك في مكان آخر.

كانت ترو بيل هي من أرادت اصطحابه، ومن مضت به. ولست أدري كم كان صعباً على جارية أن تغادر دار زوج حال العمل والمسافة دون أن تراه كثيراً على أية حال، وأن تترك وراءها ابنتين مع عمّة عجوز لتعنى بهما ـ كانت روز دير في الثّامنة من عمرها وماي في العاشرة، في ذلك الوقت. كانتا خير عون في ذلك العمر لأي شخص يمتلكهما، ولم تكونا مصدر عون على الإطلاق للأمّ الّتي أقامت وردزورث، على بعد أميال من زوجها، في دار مترفة ترعى ابنة رجل ثري آناء اللّيل وأطراف النّهار. وربّما لم يكن أمراً متعذِّراً للغاية أن تطلب من أخت أكبر منها سنّاً أن ترعى الزّوج والطّفلتين لأنّها ماضية إلى بلتيمور مع الآنسة فيرا لويز لبعض الوقت. كانت

ترو بيل في السّابعة والعشرين من عمرها ومتى سيقدّر لها أن ترى مدينة كبرى على نحو آخر؟

أمّا الأمر الأكثر أهمّية فهو أنّ الآنسة فيرا لويز قد تساعدها في شراء حريتهم جميعاً بالنّقود الورقيّة، لأنّها يقيناً قد تلقت الكثير من هذه النّقود. ثمّ مرّة أخرى قد لا تقوم بذلك. ربّما تجهَّمت وهي جالسة في العربة الّتي أقلَّت الأمتعة، متقلقلة من الصّناديق والحقائب الكبيرة، عاجزة عن رؤية الأرض الّتي تنطلق عبرها. ربّما كانت مشاعر سيئة قد سيطرت عليها. على أي حال مضت دون أن يكون لها الخيار تاركة وراءها زوجاً وأختاً وروز دير وماي. وإذا كانت قد استشعرت القلق فإنّ الوليد الأشقر قد ساعد في تهدئة مشاعرها، وسرى عنها طوال ثمانية عشر عاماً، إلى أن غادر الدّار.

وهكذا، في العام ١٨٨٨ وبأجور عن اثنتين وعشرين سنة بدأت الآنسة فيرا بتجميعها بمجرّد أن وضعت الحرب أوزارها ولكنّها احتجزتها في حساب مخصّص لذلك الغرض حتّى لا تساور خادمتها أفكار خاطئة، أقنعت ترو بيل نفسها وسيّدتها بأنّها تحتضر، وحصلت على النّقود ـ من فئة العشرة دولارات ذات صورة النّسر، وتمكّنت من الاستجابة لاستغاثات روز دير بالعودة إلى مقاطعة فيسبر، حاملة حكايات من بلتيمور للأحفاد الّذين لم ترهم قطّ. واستأجرت منزلاً صغيراً، وابتاعت له فرناً للطهي، وأدخلت البهجة على نفوس الفتيات بأوصاف الحياة مع جولدن جراي العجيب. كيف كانتا تحممانه ثلاث مرّات كلّ يوم وكيف أنّ حرف ج على ملابسه الدّاخلية كان مطرّزاً بخيط أزرق. وشكل مغطس الحمام، وما الّذي

twitter @baghdad_library

كانتا تضعانه في الماء لجعله يفوح برائحة شجيرة صريمة الجدي أحياناً، ورائحة الخزامى أحياناً أخرى. كم كان حاذقاً وكيف كان سيداً شريفاً بكلّ معاني الكلمة، والتّعليقات الطّريفة القريبة ممّا يقوله الكبار الّتي كان يبديها في طفولته وشجاعة الفرسان الّتي أظهرها عندما غدا شاباً في مقتبل العمر وذلك عندما مضى للعثور على أبيه ثمّ قتله إذا حالفه التّوفيق.

لم تره ترو بيل ثانية قطّ بعد أن انطلق بعيداً، ولم تعرف ما إذا كان حظّ فيرا لويز خيراً من حظّها في هذا الشّأن. وكانت ذكرياتها عن الفتى أكثر من كافية.

لقد فكّرت فيه طويلاً، وتساءلت عمّا إذا كان هو ما أحبّته ترو بيل وفيوليت أيضاً، أم أنّ ما أحبتاه كان القلق العبثي الغامر والموجع على سترته والأزرار العاجيّة في صدارته؟ لقد قطع كلّ تلك المسافة لا ليسيء إلى أبيه وإنّما إلى العِرْق الّذي ينتمي إليه.

والشّعر الجميل لا يمكن أن يكون بالغ الطّول، حسبما حدّثته فيرا لوير ذات يوم، ولأنّه بدا أنّها على علم بمثل هذه الأمور فقد صدّقها. وكان نصف ما قالته على وجه التّقريب كاذباً، ولكنّه اعتقد أنّ تلك المعلومة الأخيرة صحيحة بصورة مطلقة، وهكذا فإنّ الخصلات المجعدة الشّقراء غطّت ياقة سترته كأنّها خصلات مزارع، على الرّغم من أنّ مدى صحة طوله في بلتيمور الّتي يصعب إرضاؤها قد حدّدته المرأة الّتي كذّبت عليه في كلّ شيء عملياً، بما في ذلك مسألة ما إذا كانت مالكته أو أمّه أو جارة طيِّبة. أمّا الشيء الآخر الّذي لم تكذب بشأنه (على الرّغم من أنّ الأمر اقتضى ثمانية عشر عاماً للوصول إليه) فهو أنّ أباه زنجي أسود البشرة.

أراه في مركبة جياد ذات مقعدين. وجواده أسود بديع، وقد شدّت حقيبته الضّخمة إلى مؤخّرة العربة، وبدت كبيرة الحجم وغاصّة بما فيها من قمصان جميلة وملابس كتانيّة ومفارش منفوشة وأكياس وسائد، وصندوق للسيجار وأدوات حلاقة من الفضّة. معطف سابغ في لون الفانيليا بأساور وياقة بنية قاتمة وقد طوي بعناية بجواره. إنّه على بعد مسافة كبيرة من الدّار وقد بدأ المطر بالهطول بشدّة، ولكنّه لم يستشعر برداً لأنّه كان في شهر آب (أغسطس).

تلطم العجلة اليسرى حجراً، ويسمع أو يتصور أنّه يسمع ارتطاماً قد يكون صوت انتزاع حقيبته من موضعها. يكبح جماح الجواد ويترجَّل من العربة ليرى ما إذا كان ثمّة ضرر قد أصاب حوائجه، ويكتشف أنّ الحقيبة قد فقدت التصاقها المحكم بالعربة؛ فقد انزلق الحبل وتدلّى. ويقوم بفكّ كلّ شيء وإحكام ربط الحبل بقوّة أكبر.

أحسّ بالرّضا عن جهوده، ولكنّه ضاق ذرعاً بالمطر المنهمر، وبالضّرر الّذي أحدثه لملابسه، ولسرعة رحلته، ويتلفت حوله. يرى في وسط الأشجار إلى يساره امرأة عارية، سوداء في لون التّوت. الطّين يكسوها ووريقات الشّجر تستقرّ على شعرها. عيناها نجلاوان ورهيبتان. وما إن يراها حتّى تبدأ بالرّكض وتنعطف فجأة للقيام بذلك، ولكنّها في انعطافها قبل أن تنظر إلى ما أمامها يصطدم رأسها بالشّجرة الّتي كانت تستند إليها؛ فقد كان رعبها هائلاً إلى حدّ أن جسمها كان يهرب قبل أن تستعد عيناها للعثور على طريق للهرب. وتؤدي الصّدمة إلى سقوطها مغشياً عليها.

يتطلع إليها، ويمسك بحافة قبعته، ويتحرّك مسرعاً للعودة إلى العربة، فهو لا يريد أن يكون له شأن بما رآه. وفي حقيقة الأمر فإنّه

twitter @baghdad_library

على يقين من أنّ ما يهرب منه ليس امرأة حقيقيّة وإنّما «طيف». وعندما يلتقط الأعنة لا يملك إلاَّ أن يلاحظ أن جواده أسود كذلك، وعار، ومبتلّ إلى حدّ الالتماع. ومشاعره حيال الجواد قوامها الأمن والإعزاز. ويخطر بباله أنّ هناك شيئاً غريباً فيما يتعلق بذلك: فخره بالجواد، والغثيان الّذي تثيره المرأة. ويساوره شعور واهن بالخجل، ويقرّر التّيقن ممّا إذا كان ما رآه طيفاً، وأنّه ليست هناك امرأة سوداء عارية ترقد وسط الأعشاب.

يشدّ جواده إلى شجيرة، ويخوض طريقة عائداً وسط مطر منهمر إلى الموضع الّذي سقطت فيه المرأة. كانت لاتزال متمدّدة هناك، وقد انفتح فمها وساقاها. راح ورم صغير يتشكّل في رأسها، وبدت بطنها ضخمة ومشدودة العضلات. ينحني، متوقفاً عن التّنفس تحسباً للعدو أو للرائحة الكريهة أو لشيء من هذا القبيل، شيء قد يمسّه، أو يخترقه. تبدو ميتة، أو فاقدة للوعي بشدّة. وهي في مقتبل العمر. ليس ثمّة ما يمكنه القيام به من أجلها، وهو يشعر بالارتياح لذلك، ثمّ يلاحظ حركة متمعجة في معدتها. ثمّة شيء يتحرّك بداخلها.

لا يتصوّر نفسه وهو يلمسها، ولكن الصّورة الّتي يتخيلها هي لنفسه وهو يبتعد عنها للمرّة الثّانية، صاعداً إلى عربته وتاركاً إيّاها للمرّة الثّانية. يساوره الشّعور بعدم الارتياح إزاء هذه الصّورة لنفسه، ولا يرغب في قضاء أي وقت مستقبلاً وهو يتذكّر قيامه بذلك. وكذلك هناك شيء حول المكان الّذي قدم منه وسرّ قدومه، والمكان الذي يمضي إليه وسرّ مضيّه إليه، يشجّع فيه رعونة متعمدة لا ترعوي. يغدو المشهد ترياقاً، عملا سيثقل على أعصاب فيرا لوير، ويحميه من النّزوع إلى قتل الأب. ربّما.

يقوم بفرد معطفه السّابغ الّذي كان موضوعاً على المقعد إلى جواره ويلقيه على المرأة، ثمّ يضمّها رافعاً إيّاها بين ذراعيه ويحملها، متعثراً، إذ كانت أثقل ممّا افترض، إلى العربة. وبصعوبة كبيرة يضعها في وضع الجلوس في العربة. تميل رأسها بعيداً عنه، وتمسّ قدماها فردة من حذائه الرّائع وإن علاه الطّمي، وهو يأمل في أنّ ميلها لن يتحوّل باتّجاهه، رغم أنّه ليس هناك ما يمكنه القيام به حيال القدمين المجرّدتين من النّعال والمتسختين القريبتين من حذائه، فلو أنّه أعاد ميلها إلى وضعه الأوّل فقد تنحرف إلى جانبه من العربة وليس إلى جانبها. وفيما هو يستحثّ الجواد على المضي قدماً، يأخذ انفعاله في الانحسار فاسحاً المجال للخوف من أنّ الأخاديد والطّريق الموحل قد تجعلها تسقط إلى الأمام أو تحتك به بشكل من الأشكال.

إنّه ينطلق نحو دار تبعد قليلاً عن بلدة تدعى فينيا. وهي الدّار الّتي يقطنها أبوه. وهو يعتقد الآن أنّها فكرة مثيرة للاهتمام بل طريفة أن يقابل هذا الزّنجي، الّذي لم يره من قبل قطّ (والّذي لم يحاول رؤيته قطّ) وبين ذراعيه أنوثة سوداء سائلة، يفرض أنّها، بالطّبع، لن تستيقظ، وأنّ التّمعج في معدتها سيظلّ خفيفاً. ويثير ضيقه أنّها قد تسترد وعيها، وتصبح شيئاً أكثر من هدفه الأسود.

لم ينظر إليها منذ بعض الوقت. وهو الآن يلقي نظرة عليها ويلاحظ خيطاً من دم ينثال على فكّها وصولاً إلى رقبتها. والورم الّذي نجم عن ارتطامها بالشّجر لم يكن هو سبب إغمائها، فلابدّ أنّ رأسها قد ارتطم بصخرة أو بشيء عندما سقطت. ولكنّها ماتزال

twitter @baghdad_library

تتنفس. وهو الآن يأمل في أنّها لن تموت، ليس بعد، ليس قبل أن يبلغ الدّار الّتي وصفت له وحدّدت معالم خريطتها له في صور واضحة وطفوليّة من صنع ترو بيل.

بدا كما لو أنّ المطر يتبعه، وما إن يحسب أنّه سيتوقّف حتّى يتفاقم بعد أمتار قلائل. لقد ارتحل ستّ ساعات على الأقل، وقد أكّد له القائم على أمر النّزل أنّ الرّحلة ستنتهي قبل أن يحل الظّلام. ولكنّه ليس على يقين من ذلك الآن، ولا يشعر بالابتهاج لمقدم اللّيل وهو مع تلك الرّاكبة. ويسري إليه الشّعور بالهدوء إزاء مشهد الوادي المترامي أمامه، الوادي الّذي ينبغي أن يقضي ساعة في اجتيازه قبل أن يصل إلى الدّار على بعد ميل أو ميلين في هذا الجانب من فينيا. وفجأة تقلع السّماء. إنّها السّاعة الأطول، والحافلة بتذكارات التّرف والألم. وعندما يصل إلى الدّار، يدلف إلى الفناء ويجد حظيرة بها موضعان في الخلف، فيأخذ جواده إلى أحدهما ويجفّفه بعناية، ثمّ يلقي بطانية عليه، ويبحث عن ماء وعلف له. ويقضي وقتاً طويلاً في القيام بذلك، فهو مهمّ بالنّسبة له، وهو ليس على يقين من أنّ أحدهم لا يراقبه في الدّار. وفي حقيقة الأمر فإنّه يأمل أن يكون موضع مراقبة، يأمل في أنّ الزّنجي يراقبه وقد فغر فاه من شقّ في الكتل الخشبيّة المتخذة جداراً.

ولكن ما من أحد يخرج لمحادثته، ومن ثمّ فربّما لم يكن هناك أحد. وبعد العناية بالجواد (وقد لاحظ أنّ إحدى الحدوات بحاجة إلى إصلاح) يعود إلى العربة لإنزال حقيبته الكبيرة، ويحلّ الحبل عنها، ويحملها على كاهله، الأمر الّذي يفاقم من سوء حالة صداره وقميصه الحريري، فيما هو يحملها إلى الدّار. وفي الرّواق الصّغير لا

يبذل أي محاولة للطرق، والباب مغلق لكنّه ليس موصداً بدعامة من الدّاخل. يلج الدّار، ويتطلع حوله إلى مكان مناسب لحقيبته. ويضعها على الأرضيّة التّرابيّة، ويفحص الدّار. إنّها تضمّ غرفتين، في كلّ منهما سرير خفيف نقال، ومنضدة، ومقعد، ومدفأة وفرن للطهي في إحداهما. دار متواضعة، تمّت الإقامة فيها، توحي بجو ذكوري، ولكن بخلاف ذلك لم يكن فيها مؤشّر لشخصيّة صاحبها. والفرن بارد، وبالمدفأة كومة من الرّماد، ولكن لا جمر فيها. وربّما مضى ساكنها منذ يوم أو يومين.

بعد أن اطمأن إلى وضع حقيبته في موضع مناسب، مضى إلى العربة لاحضار المرأة. كانت إزالة الحقيبة قد قلبت توازن الثّقل، ومالت العربة قليلاً على محورها. يمدّ يده ويجذبها إلى خارج العربة، تبدو بشرتها أكثر سخونة من أن تمسّها يد. يجرّ المعطف الطّويل في الطّين، فيما هو ينقلها إلى الدار. يضعها في سرير نقّال، ثمّ يكيل لنفسه اللّعنات لعدم جذبه بطانيته إلى الوراء أولاً، فهي ترقد الآن فوقها، والمعطف هو كلّ ما يبدو هناك لتغطيتها به. وقد يكون ما حاق به من ضرر مستمرّاً. يمضي إلى الغرفة الثّانية، ويفحص هناك صندوقاً خشبياً، ويجد ثوباً نسائيّاً. وبحذر شديد يستردّ معطفه، ويغطّي المرأة بالثّوب النسّائي الغريب الرّائحة. يفتح الآن حقيبته ويختار قميصاً قطنياً أبيض وصداراً من نسيج صوفي ناعم. يضع القميص النّظيف على الكرسي الوحيد بالغرفة بدلاً من المخاطرة بالإضرار به من خلال تعليقه على مسمار دقّ في الحائط. يفحص الأشياء الجافّة بعناية، ثمّ يعكف على إشعال النّار. وهناك خشب في الصّندوق المخصّص لذلك وفي المدفأة. وهناك في أكثر أركان

twitter @baghdad_library

الغرفة عتمة صفيحة كيروسين يرشّها على الخشب، ولكن لا وجود لعيدان الثّقاب. ويبحث لفترة طويلة عن العيدان، وأخيراً يجد بعضها في علبة من الصّفيح ملفوفة في قطعة من قماش أغلفة الوسائد، وعلى وجه الدّقّة خمسة أعواد. تبخّر الكيروسين من الخشب في الوقت الّذي عثر فيه على الثّقاب. وهو ليس حاذقاً في مثل هذه المهمّة؛ فقد أشعل الآخرون على الدّوام النّار في المدافئ له طوال عمره. ولكنّه يواصل المحاولة بإصرار، وفي النّهاية يندلع لهب طيب مضطرم. الآن بمقدوره الجلوس وتدخين السّيجار وإعداد نفسه لعودة الرّجل الّذي يقطن هنالك، الرّجل الّذي يفترض أنّه يدعى هنري ليز تروي، على الرّغم من أنّ الاسم، من خلال الطّريقة الّتي نطقته ترو بيل بها يمكن أن يكون شيئاً آخر. رجل بلا مناقب، باستثناء بعض الشّهرة في اقتفاء الأثر، وهي شهرة تقوم على أساس حادث هرب أو حادثيْن، ممّا أوضح خبرته في اقتفاء الأثر. وذلك قبل وقت طويل بحسب ما قالته، وقد كانت هي الّتي قدّمت له كلّ التّفاصيل، لأنّ فيرا لوير كانت تغلق غرفتها على نفسها أو تشيح جانباً عندما يحاول انتزاع المعلومات منها. هنري ليز تروي، أو ليز تروي، أو شيء من هذا القبيل. ولكن منذا الّذي يكترث باسم ذلك الزّنجي، باستثناء المرأة الّتي ندمت على أنّها عرفته على الإطلاق، والّتي آثرت أن توصد غرفتها عليها بدلاً من النّطق باسمه عالياً، وكان يمكن أن تندم على الوليد الّذي منحها إياه أيضاً، وتتخلص منه، لولا أنّه كان ذهبياً، ولم يسبق لها أن رأت هذا اللّون من قبل قطّ إلاّ في السّماء صباحاً وفي زجاجات الشّمبانيا. حدّثته ترو بيل بأنّ فيرا لوير قد ابتسمت، وقال: «لكنّه ذهبي اللّون. ذهبي اللّون

تماماً!» وهكذا دعوه بذلك الاسم، ولم يمضوا به إلى مستشفى التّأسيس الكاثوليكي، حيث تودع النّساء البيض ثمرات عشقهن المحرم.

عرف ذلك كلّه قبل أسبوع أو ثمانية أيّام، وعرف اسم أبيه والمكان الّذي يقيم فيه من يومين. وهي معلومات استمدّها من المرأة الّتي طهت لفيرالوير وقامت بتنظيف دارها، والّتي كانت ترسل له سلالاً من الخوخ المجفّف ولحم الخنزير وأرغفة خبز كلّ أسبوع وهو في المدرسة الدّاخلية، والّتي كانت تعطي قمصانه المنتسلة للمساكين بدلاً من تركه يستخدمها إلى أن تبلى، المرأة الّتي كانت تبتسم وتهزّ رأسها كلّما نظرت إليه. وحتّى عندما كان صبياً صغيراً، له رأس تحيط به خصلات منفوشة من الشّعر في لون الشّمبانيا، ويلتهم قطع الكعك الّتي تمسكها أمامه كانت ابتسامتها ابتسامة من يرى شيئاً طريفاً أكثر ممّا هي ابتسامة حبور. وعندما كانتا، المرأة البيضاء والطّاهية، تحمّمانه كانتا تتبادلان في بعض الأحيان نظرات قلقة حيال مظهر راحتيه وملمس شعره الآخذ بالجفاف. طيّب. كانت فيرا لويز تشعر بالقلق، أمّا ترو بيل فتكتفي بالابتسام، وهو الآن يعرف ما الّذي كانت تبتسم بسببه: الزّنجي. ولكنّه كذلك زنجي. لقد اعتقد على الدّوام أنّ هناك نوعاً واحداً هو النّوع الّذي تنتمي إليه ترو بيل. الأسود ولا شيء غيره. مثل هنري ليز تروي، مثل المرأة المتسخة الّتي يعلو شخيرها فوق السّرير النّقّال. ولكن كان هناك نوع آخر، مثل نوعه.

كانت السّماء قد أقلعت نهائياً، فيما يبدو. وتطلع حوله بحثاً عن

twitter @baghdad_library

شيء من الطّعام لا يتعين القيام بطهيه، طعام جاهز، ولم يجد شيئاً إلاَّ زجاجة مشروب. واصل تذوقها وهو يجلس أمام المدفأة.

في الصّمت الّذي خلّفه المطر وراءه بعد أن توقف يسمع وقع حوافر جواد. ويرى فيما وراء الباب راكباً يحدّق في عربته. يدنو. مرحباً! هل أنت من أقارب ليز تروي؟ هنري ليز تروي أو أياً كان الاسم؟ لا يطرف للراكب جفن:

ـ لا، يا سيدي! فينيا. سيعود مبتسرة.

لا يفهم ممّا قاله شيئاً. وقد غلبه السّكر الآن على أيّة حالة. وبدا على حال يوحي بالسّعادة. ربّما بمقدوره أن يغفو الآن. ولكنّه لا ينبغي أن يغفو، فصاحب الدّار قد يعود، والمرأة السّوداء الرّاقدة قد تستيقظ أو تلقى حتفها أو تلد، أو.

عندما أوقف العربة، ومضى ليربط الجواد، وليعود تحت المطر، ربّما كان ذلك لأنّ الشيء الفظيع الرّاقد في الأعشاب المبتلّة كان كلّ شيء مفارق له وكذلك كان حماية مناسبة مما اعتقد أنّ أباه عليه ومسكّناً ضدّه، وبالتالي (إذا أمكن أن يتمّ احتواؤه والتّعرف عليه) كان ذاته. أم كان القوام، الطّيف كما حسبه، شيئاً لمسه قبل سقوطه؟ الشيء الّذي رآه في النّظرة المنحاة بعيداً في عيون الخدم في المدرسة الدّاخليّة، ماسح الأحذية الّذي يرقص رقصاً إيقاعياً مقابل فلس. طيف بدا كذلك، في اللّحظة الّتي كان فيها خوفه على أشدّه، مثل دار مريحة للغاية بحيث يمكنه أن يتمرغ فيها؟ ربّما كان الأمر كذلك. ولكن منذا الّذي يستطيع أن يحيا بذلك الشّعر المكسو بأوراق الشّجر؟ تلك البشرة الّتي لا يسبر لها غور؟ لكنّه عاش بالفعل به

ومعه: فقد كانت ترو بيل حبّه الأوّل والكبير، وذلك هو السّبب في أنّه بعد قامتين عدواً وراء ذلك الشّعر وتلك البشرة كان غيابهما أمراً لا يخطر على البال. ولو أنَّ الرّجفة قد أخذته حيال إمكانية ميلها عليه، أو انزلاقها إلى اليسار قليلاً واستقرارها بالفعل بينما هي غافية على كتفه فإنّ من الصّحيح كذلك أنّه قد تغلب على الرّجفة، وابتلع ريقه، ربّما، واستحثّ الجواد للانطلاق.

إنّني أودّ التّفكير فيه على ذلك النّحو، جالساً في العربة، والمطر يمسّد الشّعر فوق ياقته، مشكلاً بريكة في الفراغ بين فردتي حذائه، يضيّق بؤبؤي عينيه الرّماديتين فيما هو يحاول تبين ما أمامه عبر المطر المنهمر، ثمّ دونما إنذار، وفيما الطّريق يلج وادياً، تقلع السّماء، وتلوح الشّمس وكأنّها قالب زبد أبيض يقدح هنالك في السّماء. الآن بمقدوره أنّ يسمع أشياء خارج ذاته. أوراق شجر مبتلّة تتباعد إحداها عن الأخرى. صوت سقوط ثمار الجوز. واصطفاق أجنحة الحجلان وهي تبعد مناقيرها عن قلوبها. والسّناجب بعد أن تسابقت إلى الأطراف المكسورة في فروع الأشجار تتوقّف هناك لتقويم الخطر، يحرّك الجواد رأسه بشدّة ليبعد عنه سحابة من البعوض الصّغير. إنّه يصيخ السّمع بعناية حتّى لتفوته رؤية علامة الطّريق الدّالة على مسافة الميل والّتي تحمل كلمة فينيا محفورة رأسياً في الحجر يمرّ بها، ثمّ يرى سقف كوخ لا يبعد خمسة فرلنجات(*) أمامه. ربّما كان ملكاً لأي شخص، أي شخص على الإطلاق. ولكن ربّما، وعلى امتداد سوره الصّغير الّذي يحيط بفناء ترابي فيه مقعد هزّاز بلا مسندين

(*) الفرلنج: مقياس للطول يعادل ٢٢٠ ياردة أو ثُمْن الميل. (هـ .م.).

twitter @baghdad_library

للذراعين ملقى على جنبه يبدو الباب موصداً بحبل صغير اتخذ بديلاً للقفل لكنّه متباعد عن الجدار عند مفصّلاته، وربّما كان يُؤوي أباه.

يكبح جولدن جراي جماح جواده. وهذا شيء يجيده. أمّا الشيء الآخر الّذي يجيده فهو العزف على البيانو. يترجّل من العربة ويمضي بالجواد مقترباً بما يتيح له أن يلقي نظرة. الحيوانات منتشرة في كلّ مكان، وبمقدوره أن يشمّ رائحتها. لكنّ الدّار الصّغيرة تبدو خاوية، إن لم تكن مهجورة كلّيّة. من المؤكّد أنّ صاحبها لم يتوقع قطّ وصول جواد وعربة، فبوابة السّور تتسع لمرور امرأة بدينة، ولكن لا أكثر من ذلك. يزيل عن الجواد عدّته، ويمضي به إلى اليمين، ويكتشف، وراء الكوخ وتحت شجرة لا يعرف لها اسماً، مربطين للجياد، أحدهما مليء بأشكال غامضة. يمضي الجواد، ويسمع خلفه أنيناً يصدر عن المرأة، ولكنّه لا يتوقف ليتبين ما إذا كانت تستيقظ أو تحتضر أو تسقط من المقعد. وغير بعيد عن المربطين يتبين أنّ الأشكال الغامضة هي مغاطس وأجولة وكتل من الخشب وعجلات ومحراث مكسور ومقشدة وحقيبة معدنية. وهناك وتد كذلك، فيشدّ الجواد إليه. ينصرف ذهنه إلى الماء. ماء للجواد. وما يحسب أنّه مضخّة في البعيد ليس إلاّ مقبض فأس مايزال منغرساً في كتلة خشب متخذة من جذع شجرة. كان هناك المطر رغم ذلك، وقد تجمّع قدر منه في مغطس لغسيل الملابس بالقرب من كتلة تقطيع الأخشاب. وهكذا يمكنه أن يسقي جواده، ولكن أين الحيوانات الأخرى الّتي يشتمّ رائحتها ولكنّه لا يراها ولا يسمع لها صوتاً؟ وإذا خرج الجواد من عريش العربة فإنّه يعل من الماء، وتميل العربة على نحو خطر بالتّوزيع غير المتعادل لثقل المرأة وحقيبته. يفحص الحقيبة

ومغاليقها قبل أن يمضي إلى باب الدّار الصّغيرة الموصد بالحبل.

ذلك هو ما يقلقني عليه. النّحو الّذي يفكّر به أولاً في ثيابه، لا في المرأة، والكيفيّة الّتي يفحص بها مغاليق الحقيبة لا تنفّس المرأة. من الصّعب تجاوز ذلك، ولكنّه يزيل بعدئذٍ الوحل عن حذائه المصنوع في بلتيمور قبل أن يلج كوخاً ذا أرضيّة ترابيّة. ولم أعد أكرهه كثيراً.

في الدّاخل ينسلّ الضّوء وئيداً، وإذ يناله التّعب بعد أن شقّ طريقة عنوة عبر الورق الملوث بالزّيت الملصق حول النّافذة في الجدار الخلفي، يستقرّ على الأرضيّة التّرابيّة عاجزاً عن الوصول إلى ما فوق خصر جولدن جراي. الشيء الأكثر فخامة في الغرفة يتمثّل في المدفأة، فهي نظيفة، ومعدّة لإشعال النّار مجدّداً، ومستندة إلى أحجار مصقولة، تمتدّ منها ذراعان معدنيتان تثبت عليهما الغلّايات. أمّا فيما يتعلق بالباقي: سرير، أدوات خشبيّة، بطّانية صوفيّة في لون الصّدأ وضعت بصورة مرتبة فوق حشية رقيقة ذات نوابض. لا قوالح ذرة، وبالتأكيد لا وجود للريش أو لأوراق الشّجر. خرق. قطع من نسيج غير قابل حقاً للاستخدام دسّت في كيس. ذكرت جولدن جراي بالوسادة الّتي صنعتها ترو بيل لـ «كينج» ليرقد عليها عند قدميها. وقد أطلق عليها اسم كلب قوي، ولكنّها كانت قطّة بلا شخصيّة مميزة، وذلك هو السّرّ في أنّ ترو بيل قد أحبّتها، وأرادتها أن تكون قريبة منها. وتبيّن أنّ هناك سريرين ومقعداً. والشّخص الّذي يقيم هنا يجلس إلى المائدة وحيداً، ولكن لديه سريرين، أحدهما في غرفة ثانية، يدخل إليها من خلال باب أقوى وأفضل صنعاً من باب الدّار ذاته. وفي الغرفة، الغرفة الثّانية، هناك صندوق. ورداء نسائي أخضر

twitter @baghdad_library

مطوي على محتويات بداخله. يتطلع بنظرة عابرة كيفما شئت، ويرفع الغطاء عن الصندوق ويرى الرّداء، وكان حرياً به أن يتعمّق في البحث، ولكن الرّداء يذكّره بما كان ينبغي أن يشغل ذهنه: المرأة الّتي تتنفّس من فمها في الغرفة الأخرى. هل يعتقد أنّها ينبغي أن تستيقظ وتنطلق هاربة فتريحه من عبء الخيار، إذا تركها وشأنها؟ أم أنّها ستموت وهو ما يعني الأمر نفسه؟

إنّه يتجنبها، أعرف ذلك. بعد أن قام بالشيء الكبير، بالأمر العسير، من خلال العودة ورفع الفتاة من الأعشاب الّتي علقت بسرواله، بعدم التّطلع ليرى أنّ بمقدوره مشاهدة أعضائها الحميمة، وصدمه معرفة أنّ الشّعر هنالك عند تلك الأعضاء كان من الغزارة بحيث أنّه إذا جفّ يمكن أن يفرّق بالأظفر، وحاول ألا ينظر إلى شعر رأسها أيضاً، أو إلى محياها الّذي استحال إلى لون النّجيل. كان قد رأى بالفعل عيني الغزالة اللّتين استقرتا عليه خلال المطر، استقرّتا عليه، وهي تتراجع مبتعدة، استقرتا عليه فيما كان جسمها يشرع في الالتفات تمهيداً للهرب. أمر مؤسف للغاية أنّها لم تكن لديها حساسيّة غزالة، ولم تنظر في الاتجاه الّذي كانت تمضي فيه بسرعة كافية لرؤية شجرة القيقب العملاقة في الوقت المناسب. الوقت المناسب. وعندما مضى عائداً إليها لم يعرف ما إذا كانت ماتزال هناك ـ كان يمكن أن تكون قد نهضت وهربت بعيداً ـ ولكنّه اعتقد، وساوره الأمل في أنّ عيني الغزالة ستكونان مغمضتين. وفجأة لم يعد متأكداً من مشاعره. ربّما تكونان مفتوحتين، وقد منحه العرفان بالجميل لأنّهما لم تكونا مفتوحتين القوّة الّتي مسّت حاجته إليها ليرفعها.

بعد تلمّس حقيبته في عصبية، يمضي إلى الفناء، يلطم ضوء الشّمس عينيه فيضطّر إلى إغماضهما ويظلّلهما بكفّه، مطلاً عبر أصابعه إلى أن يغدو النّظر مأموناً. يتنهد تنهدة عميقة، يستوعب الهواء بحثاً عن القوّة والحفاظ على الحياة بأسرها، ولكن بصفة خاصّة حياته حسبما يقتضي الأمر. أيمكنك رؤية الحقول في البعيد تتشقّق وتجفّ تحت جنح الرّيح؟ ريش المروحة في الطّيور السّوداء الّتي تنطلق من المجهول وتدفّ بأجنحتها ثمّ تمضي؟ رائحة حيوانات خفية تتكاثف في الحرّ مختلطة الآن برائحة نعناع خارجة عن السّيطرة وشيء أقرب إلى رائحة فاكهة تتوق للقطاف. لا أحد يراه، ولكنّه يتصرّف كأنّما هناك من يراه. ذلك هو الأسلوب. تصرّف على النّحو الّذي ستتصّرف به كما لو كنت دائماً تحت النّظرة الفاحصة لمعارف عابرين لكنّهم يمكن أن يتلقوا انطباعاً عنك.

إنّها ماتزال هناك، لا يمكن تمييزها عن كلّ غطاء العربة الّذي ترقد تحته. كلّ ما يحيط بها عنيف، أو يبدو أنّه كذلك، ولكن ذلك يرجع إلى أنّها عارية تحت ذلك المعطف الطّويل، وما من شيء يمنع جولدن جراي من الاعتقاد بأنّ امرأة عارية من شأنها أن تنفجر بين ذراعيه، أو ما هو أسوأ من ذلك أن ينفجر هو بين ذراعيها. ينبغي أن يتمّ دفعها في الحشية جنباً إلى جنب مع قطع من الخرق وأن تحاك الحشية عليها لإخفاء أعضائها الجسيمة والمتحركة. ولكنّها هنالك، وهو يتطلع إلى الظلّ للعثور على محياها وعينيها الغزلانيّتيْن أيضاً إذا ما اضطرّ لذلك. عينا الغزال مغمضتان، ولن تنفتحا، شكراً للرب، بسهولة؛ لأنَّ الدّم يغلقهما. تتدلّى شريحة من الجلد من جبينها، وقد غطّى الدّم السائل منها عينيها وأنفها وأحد خدّيها قبل

twitter @baghdad_library

أن يتجلّط. ومع ذلك فقد كانت شفتاها أكثر قتاماً من الدّم، ولاحتا ثقيلتين بما يكفي للضحك منهما ولكسر فؤاده.

أعرف أنّه مُراءٍ، وأنّه يصوغ لنفسه قصّة ليحكيها لأحدهم، ومن الطّبيعي أن يحكيها لأبيه. كيف كان يمضي بالعربة على الطّريق، فرأى هذه الفتاة السّوداء وأنقذها: لست أشعر بوخزات الضّمير، لا أعاني من وخزات الضّمير. انظر! هاهنا. كيف أتلفت معطفي. وجعلت قميصاً لن ترى له مثيلاً يتسخ على نحو لا أمل معه في إصلاح أمره. لدي قفاز مصنوع من جلد بقرة في مقتبل العمر، ولكنّني لم أستخدمه لرفعها وحملها، لمستها بيدي المجردتين، من الأعشاب إلى العربة، ومن العربة إلى هذا الكوخ الّذي يمكن أن يكون ملكاً لأي شخص. أي شخص على الإطلاق. مددتها على السّرير الخشبي النّقّال في أوّل الأمر لأنّها كانت أثقل وزناً ممّا تبدو، ونسيت في غمرة تعجلي أن أزيح البطانية أولاً لأغطّيها بها، أعتقد أنّني فكّرت في أن الدّم قد يلوث الحشية، ولكن منذا الّذي يستطيع القول ما إذا كانت متسخة بالفعل أم لا؟ لم أرغب في رفعها مرّة أخرى؛ ولذا مضيت إلى الغرفة الأخرى، وجلبت الرّداء الّذي عثرت عليه هناك وأحكمت وضعه حولها على أفضل نحو استطعته. وقد بدت عند ذاك أكثر عرياً من ذي قبل. ولكن لم يكن هناك شيء آخر يمكنني القيام به.

إنّه يكذب، ذلك المرائي؛ فقد كان بمقدوره أن يفتح حقيبته الكبيرة الضّخمة، وأن يخرج إحدى الملاءتين المطرّزتين تطريز يدوياً، أو حتّى رداء جلوسه، ويغطّي الفتاة. إنّه شاب، في شرخ الشّباب، ويحسب أنّ قصّته رائعة، وأنّها إذا ما رويت بالشّكل الصّحيح فسوف تؤثر في نفس أبيه وتجعله يعجب بمبادرته وشرف

نفسه. ولكنّني أعرف جلية الأمر، إنّه يرغب في التّفاخر بشأن هذا اللّقاء، شأن نبيل رحالة يتفاخر بهدوء أعصابه فيما هو ينتزع النّصل من قلب الوحش ويعيد الحياة بتنفّسه إلى الخياشيم النّارية، غير أنّ هذا الوحش الّذي لا قشور له ولا لهب في تنفّسه أكثر خطورة؛ ذلك أنّه ليس إلاَّ فتاة مدماة الوجه، تتحرك أحشاؤها، تتوهج عنياها وشفتاها فتكسر فؤادك.

إنّني أتساءل: لماذا لم يمسح الدّم عن وجهها، ربّما لأنّها أكثر وحشية على نحو ما هي عليه. ويبدو إنقاذها أكثر تجلياً. ولو أنّها نهضت وخمشته لأرضاه ذلك بصورة أكبر وتطابق مع تحذير ترو بيل من الرّجل الّذي أنقذ حية مجلجلة، وربّاها، وغذاها، ليكتشف أن آخر معلومة سيلم بها وهو مازال على ظهر الأرض تتعلق بطبيعة الحيّة المجلجلة الّتي لا سبيل إلى أن تتبدل. أوه. ولكنّه شاب، شاب، ويتألّم؛ ولذا فإنّني أغتفر له خداعه لنفسه وإيماءاته الزّائفة المتعاظمة، وعندما أرقبه وهو يرتشف مشروب قصب السّكر المخمر بأسرع ممّا ينبغي، بعد أن عثر عليه، وهو يستشعر القلق على معطفه، دون أن يكترث بالفتاة، فإنّني لا أحسّ بكراهية له على الإطلاق. لديه مسدّس في حقيبته الضّخمة وصندوق سيجار فضّي، ولكنّه صبي في نهاية المطاف، ويجلس إلى المائدة على المقعد الوحيد، مفكّراً في تبديل ملابسه، ذلك أنّ الملابس الّتي يرتديها، والّتي ماتزال مبتلّة عند خطوط اتصال القماش وعند الأكمام، متسخة بالعرق والدّم والتّراب. هل يجلب المقعد الهزار من الفناء الأمامي؟ أيمضي ويتفقّد الجواد؟ إنّه يفكّر في ذلك، في خطوته التالية، وعند ذلك يتناهى إليه الوقع الوئيد المكتوم لحدوات جواد. يلقي نظرة

twitter @baghdad_library

عجلى على الفتاة للتيقن من حالة الرّداء ومن أنّه والدّم لم يمسا، يفتح الباب، ويحدّق في الفناء، يلوح فتى أسود مقبلاً نحوه راكباً بغلاً، ومقبلاً بموازاة السّور.

كان حرياً به أن يقول: «عم صباحاً!» على الرّغم من أنّ الوقت لم يكن ذلك. ولكنّه حدّث نفسه بأنّ الرّجل المترنِّح على الدّرج هو من البيض وينبغي عدم محادثته إلاَّ بإذن منه. قال لنفسه إنّ الرّجل مخمور كذلك، لأنّ ملابسه كانت ملابس سيد ينام في فناء داره بعد حفلة كبرى، وليس في فراش زوجته، وينهض عندما تقبل كلابه لتلعق وجهه. حدّث نفسه بأنّ هذا الرّجل الأبيض، هذا السّيد المخمور، يبحث عن السّيّد هنري، وينتظره، ويحتاج إلى الديّكة الرّوميّة البريّة الآن، الآن، اللّعنة على ذلك، أو جلود الحيوانات غير المدبوغة، أو أياً كان ما وعده به السّيّد هنري أو ما هو مدين له به أو ما باعه إيّاه.

ـ مرحباً!

قالها السّيّد المخمور. وإذا كان الفتى الأسود قد شكّ للحظة في أنّه أبيض فإنّ الابتسامة المجرّدة من روح الابتسام الّتي تزامنت مع التحية قد أقنعته.

ـ سيدي!

ـ أتقيم في الجوار؟

ـ كلاّ، يا سيدي!

ـ كلاًّ؟ من أين أنت إذن؟

ـ من خارج فينيا.

ـ هل الأمر كذلك؟

ـ إلى أين تمضي؟

الأمر أفضل عندما يطرحون الأسئلة معظم الوقت. أمّا إذا قالوا شيئاً مباشراً فإنّه يكون شيئاً لا يرغب أحد في سماعه. تشبّث الفتى بخيش غرارته، وقال:

ـ أتفقد الماشية. السّيّد هنري يقول إنّني لابدّ أنّ أتفقدها.

أترى ذلك. لقد انحسرت الابتسامة.

ـ هنري؟

تساءل الرّجل، وقد اكتسب وجهه لوناً آخر الآن، حيث تدفق إليه المزيد من الدّم.

ـ أقلت هنري؟

ـ أجل، يا سيدي!

ـ أين هو؟ أهو قريب من هنا؟

ـ لست أدري، يا سيّدي، فهو قد مضى!

ـ أين يقيم؟ في أي دار؟

حدّث الفتى نفسه قائلاً إنّه لا يعرف السّيّد هنري لكنّه يبحث عنه.

ـ هذه هنا هي الواحدة.

ـ ماذا؟

ـ هذا المكان هنا داره.

ـ هذا؟ أهذه داره؟ أيقيم هنا؟

انحسر الدّم عن وجهه، وأظهر عينيه على نحو أفضل.

ـ أجل، يا سيدي. عندما يكون في داره. لكنّه ليس فيها الآن.

تجهم جولدن جراي. كان قد حسب أنّه سيعرف الدّار في التوّ،

twitter @baghdad_library

دون أن يبلغه أحد بذلك، وأدهشه أنّه لم يعرفها. تلفت حوله ليتطلع إليها.

ـ أواثق أنت؟ أواثق أنت من أنّه يقيم هنا؟ هنري ليز تروي؟

ـ أجل، يا سيدي!

ـ متى يعود؟

ـ حان موعد عودته.

مرّر جولدن جراي إبهامه على شفته السّفلى، ورفع عينيه عن وجه الفتى، وحدّق عبر الحقول الّتي كانت ماتزال على تشقّقها تحت جنح الرّيح.

ـ فيم قلت إنّك جئت إلى هنا؟

ـ أتفقّد ماشيته.

ـ أي ماشية؟ ليس هنا شيء إلاّ جوادي.

ـ هناك وراء الدّار.

قالها الفتى، وأشار بعينيه وبيده، مضيفاً:

ـ إنّها تنطلق بين الحين والآخر. والسّيّد هنري يقول إنّ عليّ التّأكّد من عودتها إذا مضت بعيداً.

لم يسمع جولدن جراي نغمة الاعتزاز في صوت الصّبي «يقول السّيّد هنري إنّ عليّ. .» لأنّ الفزع اشتدّ به إلى حدّ الضّحك.

تلك هي الدّار، إذن، المكان الّذي قصد المجيء إليه، وفي أي لحظة سيصل أكثر الرّجال سواداً أيضاً.

ـ ليكن، إذن. امض لشأنك، إذن!

استحثّ الفتى بغله، بلا طائل، فيما يبدو، لأنّه اضطرّ إلى لطم جنبيه بكعبيه القريبين من لون القشدة قبل أن يذعن البغل لأمره.

رفع جولدن جراي يده، وقال:

ـ مهلاً. عندما تنتهي من مهمتك عد إلى هنا. أريدك أن تعاونني في شيء ما. أسمعت؟

ـ أجل، يا سيدي، سأعود!

مضى جولدن جراي إلى الغرفة الثّانية ليبدّل ملابسه، واختار هذه المرّة شيئاً رسمياً، متأنقاً. كان ذلك هو الوقت المناسب للقيام بهذا، لاختيار قميص بديع للغاية، ولفرد السّروال الأزرق القاتم الّذي يناسبه تماماً. الوقت المناسب، والوقت الوحيد؛ ذلك أنّه على امتداد الزّمن الّذي عرفه فيه أي شخص في فينيا كان يرتدي الملابس الّتي ارتداها في تلك اللّحظة. وعندما أخرجها وضعها بعناية على السّرير النّقّال. القميص الأصفر والسّروال ذو الأزرار المصنوعة من العظم في موضع السّحاب والصّدارة ذات اللّون الحليبي، وبدت الملابس المرتبة، وهي موضوعة على الفراش وكأنّها رجل أجوف طويت إحدى ذراعيه تحته. اقتعد الحشية الخشنة قرب أطراف السّروال، وعندما تكوّنت بقع قاتمة على الملابس، أدرك أنه يبكي.

حدّث نفسه قائلاً: الآن فحسب، الآن وقد عرفت أنّ لي أباً، أستشعر غيابه. المكان الّذي كان ينبغي أن يكون فيه، ولم يكن. ظننت، في السّابق، أنّ الجميع لهم ذراع واحدة، مثلي، أمّا الآن فإنّني أحسّ بالجراحة، صوت تحطّم العظام عندما تقطع، اللّحم الّذي تقطّع شرائحه والعروق الّتي تبتر، فينقطع تدفّق الدّم ويختلّ

twitter @baghdad_library

نظام الأعصاب، تتدلّى، وتضطرب، وتغنّي أنشودة الألم، توقظني بصوت ذاتها، تنقر عندما أُغفي بعمق بالغ حتّى لتشنق أحلامي مبعدة إياها. ليس أمامها من شيء إلاَّ أن تمضي من حيث لا وجود له إلى حيث يوجد عادة، وقد يكون مايزال موجوداً هناك. دع التدلّي والاضطراب يريان ما هو مفقود، دع الألم يغني للتراب الّذي يدوس عليه في المكان الّذي يوجد فيه عادة وربّما مايزال موجوداً به. لن أشفى، ولن أعثر على الذّراع الّتي بترت مني، وإنّما سأجدّد الألم، وأزيده مضاء، لكي نعرف معاً لماذا وجد.

لا، لست غاضباً؛ فلست بحاجة إلى الذّراع، ولكنّني يقيناً بحاجة إلى أن أعرف ما الّذي كان يمكن أن يكون عليه الشّعور بوجودها. إنّها شبح يتعين عليّ أن أراه، وأن يمسك بي، كائناً ما كان الصّدع الّذي يقبع فيه، والغصن الّذي يكمن تحته. أو ربّما كان يهيم في أماكن مفتوحة، جرداء، تنيرها شمس نفطيّة. هذا الجزء منّي الّذي لا يعرفني، لم يمسسني قطّ ولم يتأرجح عند جنبي. هذه اليد الضّائعة الّتي لم تساعدني قطّ فوق مرقى سياج أو حاجز، أو ترشدني بعيداً عن المخاطر، أو تجتذبني من خندق تعثّرت فسقطت فيه. لم تتحسّس شعري، لم تغذّني بطعام، لم تقبض على الطّرف البعيد للحمل لتجعل من الأيسر عليَّ حمله. هذه الذّراع الّتي لم تمتدّ قطّ، لم تبرز من جسدي، لتمنحني التّوازن فيما كنت أسير على قضبان أو كتل خشبيّة رفيعة، دائريّة أو زلقة بالخطر. عندما أعثر عليها أتراها ستلوح لي؟ تومئ، تشير لي ألا هيّا أقبل؟! أم هل ستعرف من أو ماذا أكون؟ لا يهمّ. لسوف أعثر عليها ليستطيع العضو المبتور تذكّر مكان البتر، الشّريحة الّتي شهدت تشوهه. وعندئذٍ قد لا تصبح

الـذّراع شبحـاً، وإنّمـا ستتخـذ شكلهـا وتتلبـس بعضلهـا وعظمهـا. وسيتدفق دمها من الغناء المرتفع الصّوت الّذي عثر على الغرض من أنشودته. آمين!

من الّذي سيأخذ شلوي؟ يغسل عنه العار كأنّما بالصّابون؟ يغسله بغسالة الصّابون إلى أن يسقط عنه القذر عند قدمي لأخطو بعيداً عنه؟ هل يقوم هو بذلك؟ هل يحرّرني مثل بطاقة رهن لا تساوي الكثير في السّوق لكنّها لا تقدّر بثمن في مجال استعادة القيمة الحقيقيّة؟ فيم اكتراثي بأي لون يعلو بشرته أو باتصاله بأمّي؟ عندما أراه، أو ما بقي منه سأحدّثه بكلّ شيء عن شلوي المفقود وأصغي لبكائه خجلاً. وسأتبادل معه، عندئذٍ، سأدعه يأخذ شلوي، وآخذ شلوه، ولسوف نتحرّر معاً، الذّراع المشتبكة، والكلّ.

أصابه الأمر بالدّوار عندما سمع بمن يكون أبوه وبما هو عليه. جعله ذلك يتفكّك وينداح إلى الضّياع. كان قد تلمّس ثمّ مزّق بعضاً من ملابس أمّه وجلس وسط العشب، ناظراً إلى الأشياء المتناثرة في المرجة ومتأمّلاً الأشياء المتناثرة في ذهنه. تراقصت الأضواء الصّغيرة المتحركة كالدّيدان أمام عينيه. وبدا أن لأنفاس اليأس رائحة كريهة. وكانت ترو بيل هي الّتي عاونته للنهوض من العشب وغسلت بالصّابون شعره الملبد، وحدّثته بما يتعين عليه القيام به.

قالت:

ـ امض قدماً! سأبلغك بكيفيّة العثور عليه، أو على ما بقي منه. وليس مهماً ما إذا كنت ستعثر عليه أم لا، وإنّما الذّهاب هو المهم.

twitter @baghdad_library

وهكذا جمع ما قالت إنّه ينبغي أن يجمعه، وحزم كلّ شيء، وانطلق في طريقه. ساوره، خلال الرّحلة، قلق ممض بشأن مظهره، وأي درع ينبغي أن يتدرع بها. لم يكن هناك شيء إلاَّ حقيبته وإطباق فكّه. ولكنّه كان مستعداً، مستعداً لملاقاة الرّجل الأسود المتوحّش الّذي أزعجه، وألحق الأذى بذراعه.

وبدلاً من ذلك التقى، صادف، فتاة سوداء وحشية، صدمت رأسها بجذع شجرة، وهي ترقد الآن في الغرفة الأخرى، بينما فتىً أسود يستجمع الماشية في الخارج. ظنّ أنّها ستكون رمحه ودرعه. أمّا الآن فإنّه يتعين عليه أن يكون رمحاً ودرعاً لنفسه. أن ينظر إلى عيني الغزال بإطلالة فجريّة نابعة من ذاته. إنّه بحاجة للشجاعة من أجل القيام بذلك، ولكنّه يتمتع بها، لديه الشّجاعة للقيام بما تقوم به زهرة دوقة مارلبورو طوال الوقت، أن تتخلّى عن كونها برعماً معبوداً يضمّ في أكمامه مستقبله، وتجرؤ على التّفتح، أن تدع طبقات بتلاتها تتسطّح، وتظهر للعيان عنقود مركز سداتها الميت.

ما الّذي دار بخاطري؟ كيف كان يمكن أن أتصوّره على هذا النّحو من البؤس البالغ. لم ألحظ الوجع الّذي لم يرتبط بلون بشرته أو بالدّم الّذي يسري في العروق تحتها، وإنّما بشيء آخر يتوق إلى الأصالة، إلى الحقّ في أن يوجد في هذا المكان، بلا جهد ودون حاجة إلى اكتساب وجه زائف، تهليلة خياليّة من المرح، وضع المتحدّث. لقد كنت مهملاً وغبياً، وإنّي لأنتفض غيظاً حيال اكتشافي (مرّة أخرى) مدى كوني ممن لا سبيل إلى الاعتماد عليهم. حتّى جواد جولدن جراي فهم الأمر وحمله ومضى به قدماً بمجرّد لمسة أو لمستين من السّوط. مضى في ثبات عبر وديان تخلو من أثر الطّرق

وعبر الغدران الّتي لا تعلوها جسور أو توجد بها مراكب للعبور. عين محدّقة فوق الطّريق مباشرة دون أن تشتّتها الكائنات الصّغيرة الّتي اندفعت نحو حوافره، دافعاً بصدره العريض إلى الأمام، ومنظماً خطوه ليتشبّث بقواه وليستجمع منها المزيد. لم يدر إلى أين يمضي، ولم يعرف شيئاً عن الطّريق، ولكن عرف يقيناً طبيعة عمله. قال لحوافره: عليك بالوصول إلى هناك، إذا كان بمقدورنا أن نصل إلى هناك!

الآن يتعيّن عليّ تأمّل هذا الأمر بعناية، حتّى وإن كان قدري الوقوع في هوة سوء فهم آخر. يتعيّن عليّ القيام بالأمر، وألاَّ يصيبني الانهيار. إنّ عدم كرهه ليس بالأمر الكافي والشّعور بالودّ والحبّ نفسه ليس بالأمر المجدي. يتعين عليَّ تغيير الأمور. يتعيّن عليّ أن أكون ظلاً يتمنّى له الخير، مثل ابتسامات الموتى المتبقيّة من حيواتهم. أريد أن أحلم حلماً جميلاً له، وآخر عنه. أرقد إلى جانبه، وثمّة تجعيدة في الملاءة، وأتأمّل ألمه، وفي غمرة القيام بذلك أخفّفه، وأقلّل منه. أريد أن أكون اللّغة الّتي تتمنّى له الخير، والّتي تتلفّظ باسمه، وتوقظه عندما تحتاج عيناه إلى من يفتحهما. أريده أن يقف إلى جوار بئر بعيداً تماماً عن الأشجار، بحيث لا تسقط الأغصان والأوراق إلى الماء العميق، وبينما يقف هناك في ضوء بديع، وأطراف أصابعه على الحافة الحجريّة، لا تستقرّ نظرته على شيء واحد، وذهنه غارق في الحزن، أو جاف وهشّ باليأس النّابع من معرفة أقلّ ممّا ينبغي والشّعور بأكثر ممّا ينبغي (هشّاً جدّاً، وجافّاً للغاية بحيث يتعرّض لخطر العكس، أي عدم الشّعور بشيء، ومعرفة كلّ شيء). هناك، إذن، ودون أن يتوافر شيء، إلاَّ

twitter @baghdad_library

البلل أو الهشاشة، ودون أن ينظر إلى البئر، ودون أن يعي برائحتها الطّحلبانيّة الكريهة أو بالحياة الدّقيقة الّتي تهوم عند حافتها، إلاَّ الوقوف هناك بجوارها، ومن الأسفل فيها، حيث لا يصل الضّوء، وتتقلقل مجموعة من الابتسامات المتبقية، وينهض من الظلام حبّ قصير خيِّر، وليس ثمّة ما يراه أو يسمعه، وليس هناك ما يدعوه إلى البقاء لكنه يبقى. من أجل السّلامة أولاً ثمّ من أجل الصّحبة، ثمّ من أجل ذاته، بنوع من القوّة الواثقة والممكنة والجهمة الّتي تندفع مسرعة كحدّ الموسى ثمّ تختفي. ولكنه الآن يستشعرها، وقد تجيء مرّة أخرى. لا شكّ في أن الكثير من الأشياء ستجيء مرّة أخرى، سيأتي الشّك، وقد تبدو الأشياء غائمة بين حين وآخر، ولكن ما إن يلتمع حد الموسى، حتّى يتذكّرها، وإذا تذكّرها فإنّ بمقدوره أن يستحضرها، أي أنّها تحت أمره.

* * *

كان الفتى في الثّالثة عشرة من عمره، وقد رأى ما يكفي من النّاس ينهارون فوق المحراث أو يتجمّدون بعد الولادة، وما يكفي من الأطفال الغرقى لكي يعرف الفارق بين مَنْ يتردّد وجيبهم وبين الموتى. وقد اعتقد أنّ ما رآه ممدّداً على الفراش النّقّال تحت الرّداء الأخضر الملتمع تدبّ فيه الحياة. لم يرفع الفتى عينيه عن وجه الفتاة قط (إلاَّ عندما قال جولدن جراي: «عثرت على ذلك الرّداء هناك وغطّيتها به») ألقى نظرة عجلى باتجاه الغرفة الثّانية، ومجدّداً على الرّجل الّذي اعتقد أنّه أبيض. رفع الفتى كم الرّداء، وتلمّس الجرح القطعي في جبين الفتاة، كان وجهها ملتهباً كالنّار. وكان الدّم جافاً كالجلد.

ـ ماء.

قالها وغادر الكوخ.

شرع جولدن جراي في الانطلاق وراءه، ولكنّه توقف في الرّواق، عاجزاً عن التّقدم أو التّقهقر. عاد الفتى بدلو من ماء البئر وغرارة من الخيش فارغة. غرف الماء بقدح، وأسقط قطرات منه في فمها، لم تبلع ريقها، ولم تتحرّك.

ـ كم استمرّ إغماؤها؟

قال جولدن جراي:

ـ أقل من ساعة.

انحنى الفتى لينظّف وجهها، رافعاً على مهل كتلاً بكاملها من الدّم من خدّها، وأنفها، وإحدى عينيها، ثمّ من العين الأخرى. راح جولدن جراي يرقبه، وحدّث نفسه بأنّه مستعدّ لانفتاح هاتين العينين الغزلانيتين.

twitter @baghdad_library

كان بمقدور شيء على تلك الشّاكلة أن يلحق الضّرر بك. وبعد ثلاثة عشر عاماً من اللّحظة الّتي استجمع فيها جولدن جراي صلابته لينظر إلى تلك الفتاة، كان الضّرر الّذي يمكن أن تلحقه به نابضاً بالحياة. كانت الحوامل هن الأكثر حساسيّة، ولكن الأجداد كانوا كذلك، وأي موضع توحم أمكن أن يكون ميسماً للمولود الجديد: البطيخ، الأرانب، الحبل، والمرأة الوحشيّة هي الأسوأ من كلّ شيء، بل أسوأ من جلد بدّلته حيّة. وهكذا فإنّ التّحذيرات التي تلقتها النّسوة كانت جزءاً من مجموعة أشياء يتعين الحذر منها، حتّى لا يجيء الوليد إلى هنا توّاقاً أو مؤثراً ما توحّمت الأمّ عليه. ومنذا الّذي كان يظنّ أنّ الكهول بحاجة إلى التّحذير بدورهم وإلى أن يقال لهم ويتمّ تحذيرهم من رؤيتها أو شمّ رائحتها أو حتّى سماعها؟

قالوا إنّها تقطن في الجوار، في موضع غير بعيد في الغابات، أو حتّى في قاع النّهر، ولكن في أحد المواضع في حقل القصب ذاك ـ عند حافته حسبما قال البعض، أو ربّما تتجوّل فيه. في الجوار. وقطع أعواد القصب يمكن أن يتحوّل إلى عمل شديد التّوتر في بعض الأحيان عندما يستشعر بعض الشّبان أنّها هناك مباشرة، تختبئ، وربّما تتطلع إليهم. وضربة واحدة بالنّصل القاطع يمكن أن تطيح برأسها إذا ما غدت وقحة واقتربت أكثر من اللازم، وستكون تلك غلطتها. وعند ذلك يقطعون العيدان على نحو سيّئ، عندها تطير السّوق عالياً لتلطم الوجه، أو ينزلق المنجل ويجرح أحد المشاركين

في القطع على مقربة من حامل المنجل. وكان يمكن مجرّد التّفكير فيها، سواء أكانت في الجوار أم لم تكن، أن يقلب عمل صباح بكامله رأساً على عقب.

وجرت العادة على اعتبار الأجداد، الّذين تجاوزوا بكثير مرحلة قطع الأعواد، ولكنهم مازالوا قادرين بما يكفي لكي يعهد إليهم بحزم العيدان أو بتغذيه الرّواقيد بما تحتاجه ـ اعتبارهم في أمان. واستمرّ ذلك إلى أن تلقّى الرّجل الّذي يدعوه الأجداد باسم هانترز هانتر تربيتة بالأصابع على كتفه، وهي تربيتة لا يمكن أن تصدر عن أحد سواها. عندما انتفض الرّجل واقفاً رأى عيدان القصب تتذبذب في موضعها، ولكنه لم يسمع وقع قرقعة واحدة. ولأنّه كان أكثر تعوداً على حياة الغابة منه على الحياة المألوفة، فقد كان يعرف متى تكون العينان اللّتان ترقبانه عاليتين وسط شجرة أو وراء هضبة صغيرة مستديرة، أو كما في هذه الحالة عند مستوى الأرض. وبمقدورك أن تدرك على أي نحو كان مرتبكاً: فتربيتة الأصابع على كتفه، والعينان عند قدمه. وأوّل ما خطر بباله كان المرأة الّتي أطلق بنفسه عليها اسماً قبل ثلاثة عشر عاماً، لأنّه بينما كان يرعاها كانت تلك هي الكلمة الّتي وردت على ذهنه: وايلد. كان على يقين في البداية من أنّه يرعى طفلة صغيرة رقيقة، ولكنها تعرضت لإساءة المعاملة. ولكن عندما عضّته قال: إنّها متوحِّشة ـ أو «وايلد» ـ راح يفكّر في أنّ بعض الأمور على تلك الشّاكلة، ولا جدوى من وراء المزيد من سبر غورها.

رغم ذلك فقد تذكّر ضحكتها، وكم كانت مسالمة في الأيام القليلة الأولى الّتي أعقبت العضّة، وهكذا فإنّ لمسة أصابعها لم تخفه،

twitter @baghdad_library

ولكنها أحزنته. واشتدّ به الحزن حتّى إنَّه لم يذكر أمر رؤيته لها لرفاقه من العاملين في الحقل، وهم كهول مثله لم يعد بمقدورهم العمل طوال النّهار في قطع العيدان. ودون أن يتلقّوا تحذيراً فإنّهم لم يكونوا على استعداد للشعور بالدّم وهو يتدفّق في عروقهم عندما لمحوها، أو لمدى ارتجاف سيقانهم لدى سماعهم لتلك الضّحكة الّتي تندّ عن صبية في مقتبل العمر، أصابت الوحمات أطفال النّساء الحوامل أو لم تصبها. لكن الأجداد الّذين لم يتلقّوا تحذيراً لانت رؤوسهم، وخرجوا من الدّار المخصّصة لإعداد القصب السّائل، وتركوا أسرّتهم في الهزيع الأخير من اللّيل، وبلّلوا أنفسهم، ونسوا أسماء الكبار من أبنائهم والموضع الّذي وضعوا فيه مشحذة موساهم.

عندما عرفها الرّجل الّذي يدعونه هانترز هانتر ـ وقام على رعايتها ـ كانت شديدة الحساسيّة، ولو أنّه تولّى أمرها بشكل مناسب فلربّما ظلّت في الدّار، ورعت وليدها، وتعلّمت كيف ترتدي الملابس وتخاطب النّاس. وبين الحين والآخر، عندما يفكّر فيها، كان يجد نفسه مقتنعاً بأنّها قد لقيت حتفها. وعندما لم يبد لها أثر ولم يسمع لها صوت طوال شهور، تنهد، وهو يعيش بخياله مجدّداً ذلك الوقت الّذي كانت داره فيه مليئة بالافتقار إلى الأمومة، وكانت الرّافضة الرّئيسية للاضطلاع بمهام الأمّ هي وايلد. استخدم أبناء المنطقة قصّتها لتحذير الأطفال والنّسوة الحوامل، وأحزنه أن يعلم بأنّها بدلاً من أن تخلد إلى الرّاحة والاستقرار كانت ماتزال جائعة، على الرّغم من أنّه لم يكن بمقدوره أن يحدّد على وجه الدّقّة ما الّذي كانت جائعة له، ما لم يكن إلى شعر في لون اسم أحد الشّبان. وكانت

رؤيتهما معاً بمثابة صدمة تحلّ به بصورة منتظمة: شعر الشّاب الأشقر الطّويل كذيل كلب جنباً إلى جنب مع شلّتها من الصّوف الأسود.

لم يحدث أحداً بالأمر، ولكن النّبأ انتشر على أي حال، فوايلد لم تكن قصّة فتاة درجت على الجنون منذ وقت طويل ويودّ قاطعو أعواد القصب أن يتخيّلوا عنقها تحت نصل منجلهم، ولا قصّة وقف سريع ومبكر للأطفال المتصلبي الرّؤوس. كانت ماتزال هناك في البعيد، مخلوقة من لحم ودم. رأى أحدهم الرّجل الّذي يدعونه بهانترز هانتر وهو يثب من موضعه ويمسك بكتفه، وعندما التفت حوله ليحدّق في حقل القصب غمغم بصوت عال بما يكفي لسماع أحدهم له: «وايلد. اللّعنة عليّ إن لم تكن وايلد!». اكتفت النّسوة الحوامل بالتنهد حيال النّبأ، وواصلن تنظيف الأفنية التّرابيّة ورشّها بالماء، وشحذ الشّبان أنصالهم إلى أن أصدرت حافاتها هسيساً في الهواء، ولكنّ الكهول راحت الأحلام تتراءى لهم، وتذكّروها عندما أقبلت، وكيف كانت تبدو، ولماذا مكثت وذلك الفتى الغريب الّذي اعتزت به أيما اعتزاز.

لم ير الكثيرون الفتى. ولم يكن أولهم هانترز هانتر الّذي كان بعيداً يبحث عن قدر كاف من الثّعالب يصلح لبيعه. كان أوّل من رآه هو أونورين باتي. كان يقوم على رعاية دار السّيّد هنري خلال غيابه. وذات يوم توقّف غير بعيد عن الدّار، ربّما لقطع القليل من الأعشاب، وليتبيَّن ما إذا كانت الخنازير والدّجاجات مازالت على قيد الحياة. واستمرّ المطر يهطل طَوال الصّباح، وجعلت شآبيبه أقواس قزح تنتشر خلال الأصيل في كل مكان. وفي وقت لاحق

twitter @baghdad_library

حدّث أمّه بأنّ الكوخ بأسره كانت تلفّه أقواس قزح، وعندما خرج الرّجل من الباب وتطلّع أونور إلى شعره الأشقر المبلّل وبشرته الحليبيّة، ظنّ أنّ شبحاً قد سيطر على المكان، ثمّ أدرك أنّه ينظر إلى رجل أبيض، ولم يصدّق ما يخالف ذلك قطّ، على الرّغم من أنّه شاهد وجه السّيّد هنري عندما أبلغه الرّجل بأنّه ابنه.

عندما عاد هنري ليز توري، الرّجل الّذي كان خبيراً بالغابات إلى حدّ أنّه أصبح صياداً للصيّاد (ولدى محادثته أو الحديث عنه كانوا يطلقون عليه هانترز هانتر)، إلى الدّار ورأى العربة والجواد الجميل المربوط في مربطه، انزعج في التوّ. فما من أحد من معارفه يقود عربة كتلك، وما من جواد في الرّيف تقصّ لُبْدته وتمشّط على ذلك النّحو، ثمّ شاهد البغل الّذي يركبه ابن باتي، وهدأ قليلاً. وقف بباب بيته، وعانى الكثير في فهم ما كان يراه أمامه. كان أونوربن باتي جاثياً إلى جوار السّرير النّقّال الّذي رقدت عليه امرأة حامل، ورجل ذهبي الشّعر يقف شامخاً كالبرج فوقهما معاً. لم يحدث أن زار بيته رجل أبيض من قبل قطّ، وابتلع هانترز هانتر ريقه، وذهبت سدى كلّ الآلام الّتي تحمّلها.

عندما التفت الرّجل الأشقر لينظر إليه اتسعت العينان الرّماديتان، ثمّ أغمضتا، ثمّ صعدتا من حذاء هانترز إلى ركبيته، إلى الصّدر، إلى الرّأس، كانت نظرة الرّجل الفاحصة شبيهة بلسان. وفي الوقت الّذي أصبحت فيه العينان الرّماديتان على مستوى واحد مع عينيه، اضطرّ هانترز لمجاهدة نفسه لمنعها من الشّعور بأنّه وقع في فخ، في داره. وحتّى الأنين الّذي تصاعد من السّرير النّقّال لم يقطع استمراريّة نظرة الغريب المحدّقة. كان كلّ ما يتعلق به شاباً، باستثناء لون عينيه.

نقل أونور نظره من أحدهما إلى الآخر:

ـ سعيد بعودتك، يا سيّد هنري!

ـ من هذان؟

ـ جاءا معاً إلى هنا قبلي.

ـ من هذان؟

ـ لا أستطيع القول، يا سيدي، المرأة في حالة سيئة، لكنّها تستعيد وعيها الآن.

لم يكن بحوزة الرّجل الذّهبي الشّعر مسدّس يمكن أن يراه هانتر، وحذاؤه الرّقيق الجلد لم يقدّر له قطّ الانطلاق في طرق الرّيف. ومن شأن ملابسه أن تجعل الواعظ يتنهد، وعرف هانتر من اليدين اللّتين تشبهان أيدي النّساء أنّ الغريب لم يسبق له قطّ أن استجمع قبضة لها من القوّة ما تحطّم به بطيخة. مضى إلى المائدة ووضع حقيبته عليها. وبحركة واحدة ألقى كومة من الحطب المستخدم في الطّهي في الرّكن، ولكنه أبقى بندقيته في يده، وقبعته على رأسه. وتتبعت العينان الرّماديتان كلّ سكنة من سكناته.

ـ ممّا يمكنني قوله إنّ المرأة سقطت سقطة سيئة. وهذا السيّد حملها إلى هنا. نظّفت الدّم على أحسن ما استطعت.

لاحظ هانتر الرّداء الأخضر الّذي يغطّي المرأة وبقع الدّم السّوداء على الكمّ.

ـ أعدت الدّجاج ومعظم الخنازير، ما عدا بوبا. هو صغير، لكنه يكبر، يا سيد هنري. كبير وفظيع.

كانت زجاجة المشروب على المائدة وقد أزيح الغطاء عنها، وإلى

twitter @baghdad_library

جوارها قدح من الصّفيح. تفحّص هانتر محتوياتها، ووضع الغطاء عليها، متسائلاً من أي البلاد قدم هذا الغريب الّذي لا يعرف إلاَّ هذا القدر القليل عن أصول الضّيافة. فرجال الغابات، من البيض أو السّود، وكلّ الرّيفيين أحرار في دخول الكوخ المسطّح السّقف، الكوخ الّذي يحتفظ فيه الصّياد بأدوات صيده، وأن يأخذوا ما يحتاجونه، ويتركوا ما يستطيعون، فقد كانت مثل هذه الأكواخ بمثابة محطّات على الطّريق، ويمكن أن يحتاج أي شخص أو أن يحتاج الجميع إلى مأوى، ولكن ما من أحد، ما من أحد يحتسي مشروب رجل في داره ما لم تربطهما معرفة وثيقة.

ـ هل يعرف أحدنا الآخر؟

حدّث هانتر نفسه بأنّ كلمة «يا سيدي» الّتي أسقطها كانت مدويّة مثل الطّلقة. ولكنّ الرّجل لم يسمعها لأنّه كانت لديه طلقته الخاصّة الّتي تدوي في سمعه.

ـ لا، يا أبي، لا يعرف أحدنا الآخر.

لم يستطع القول بأنّ ذلك ليس ممكناً، وأنّه بحاجة إلى قابلة أو صورة مما يعلّق في العنق لإقناعه، ولكنّ الصّدمة كانت ثقيلة في كلّ الأحوال.

ـ لم أعرف قطّ أنّك على قيد الوجود.

كان هذا هو ما قاله بالفعل، ولكن ما كان يودّ الرّجل الأشقر قوله، وما كان يعتزم قوله في معرض الرّد، كان لابدّ أن ينتظر، لأنّ المرأة صرخت عندئذٍ، ورفعت نفسها على مرفقيها لتنظر إلى ما بين ركبتيها المرفوعتين.

بدا رجل المدينة كما لو كان مغشياً عليه، ولكنّ أونور وهانتر لم يشاهدا فحسب آلام المخاض المألوفة الّتي يعتمد عليها في الولادة والّتي يراها من يعيشون في المزارع، وإنّما جذبوا وأخرجوا المواليد من كلّ أنواع القنوات. ولم يكن هذا الوليد من النّوع اليسير الخروج، فقد تشبّث بجدران ذلك الكهف المزبد، ومن النّاحية العمليّة لم تمدّ الأمّ يد العون، وعندما خرج الوليد في نهاية المطاف، بدت المشكلة واضحة في التوّ، فالمرأة لن تمسك بالوليد أو تنظر إليه. وبعث هانتر بالفتى إلى داره.

ـ قل لأمّك أن تصحب إحدى النّساء وتجيء إلى هنا، تجيء إلى هنا وتأخذ الوليد، وإلاَّ فلن يحيا إلى الغد.

ـ نعم، يا سيدي!

ـ واجلب مشروب القصب المخمر، إذا كان هناك بعضه!

ـ نعم، يا سيدي!

عندئذٍ انحنى هانتر ليتطلَّع إلى الأمّ، الّتي لم يند عنها شيء منذ تلك الصّرخة. غمر العرق محياها، وراحت تتنفّس بصعوبة، ولعقت قطرات منه لتبعدها عن شفتها العليا، انحنى مقترباً أكثر، تحت القذر، وفي صور خطوط على بشرتها السّوداء كالفحم، كانت هناك آثار لأشياء سيئة، كسائل التّبغ، وعرق شديد الملوحة، وحسّ الحرفيّ بالتلاعب. عندما التفت ليعدّل من وضع البطانيّة فوقها، رفعت رأسها وغرست أسنانها في وجنته. ارتدّ مجفلاً ومسّ وجهه المخدوش بخفّة، وضحك ضحكة مريرة «وحشيّة. إه؟». التفت ليلقي نظرة على الفتى ـ الرّجل الشّاحب الّذي ناداه بأبي.

ـ أين التقطت المرأة الوحشيّة؟

twitter @baghdad_library

ـ في الغابات، حيث تكبر النّساء الوحشيات.

ـ ومن عساها تكون؟

هزّ الرّجل رأسه:

ـ لقد أفزعتها. وارتطم رأسها بكتلة صخريّة. ولم يكن بوسعي الاكتفاء بتركها هنالك.

ـ أحسب أنّ ذلك لم يكن بوسعك. من الّذي بعث بك إليّ؟

ـ ترو بيل.

ابتسم هانتر:

ـ آه ه ه ه. أين هي؟ لم أسمع قطّ بالموضع الّذي مضت إليه.

ـ أو مضت مع؟

ـ مضت مع ابنة الكولونيل. الكولونيل وردزورث جراي. الكلّ يعرف ذلك. ومضتا مسرعتين كذلك.

ـ خمّن السّبب!

ـ لست مضطرّ إلى التّخمين الآن. لم أعرف أنّك على قيد الوجود قطّ.

ـ هل فكّرت فيها؟ هل تساءلت أين هي؟

ـ ترو بيل؟

ـ لا فيرا. فيرا لويز.

ـ أوه، يا رجل! كيف سأبدو إذا ما رحت أتساءل إلى أين مضت فتاة بيضاء؟

ـ أمّي!

ـ لنفترض أنّني تساءلت، إه؟ ماذا عساها تكون الخطوة التالية؟ أتوجّه قدماً إلى الكولونيل؟ أقول انظر هنا، يا كولونيل جراي، كنت

أتساءل إلى أين مضت ابنتك. لم نتريّض بالجياد منذ بعض الوقت. سأقول لك ما يتعيّن أن تقوم به. أبلغها بأنّني في انتظارها وبأن تحضر، لسوف تعرف المكان الّذي نلتقي فيه، وقل لها أن ترتدي ذلك الرّداء الأخضر، الرّداء الّذي يجعل من المتعذّر تبينها وسط العشب.

مرّر هانتر يده على فكه، وأضاف:

ـ لم تقل لي أين هي ومن أين قدمت.

ـ بلتيمور. اسمي جولدن جراي.

ـ لا أستطيع القول إنّه لا يلائمك.

ـ هل يناسبك لو أنّه كان جولدن ليز توري؟

ـ ليس في هذه الأنحاء.

دسّ هانتر يده تحت بطانية الوليد ليتبين ما إذا كان قلبه مازال يخفق.

ـ الوليد ضعيف. لابدّ من أن ينال بعض الرّعاية قريباً.

ـ كم هذا مؤثّر.

ـ انظر! ماذا تريد؟ أعني الآن، ماذا تريد الآن؟ هل تريد البقاء هنا؟ مرحباً بك. هل تريد تقريعي؟ ألق ذلك خارج ذهنك، فلن أقبل كلمة لا تعجبني. لقد دخلت إلى هنا وشربت خمري، وعبثت بأشيائي وتحسب أنّ بمقدورك التّحقيق معي لا لشيء إلاَّ لأنّك ناديتني بيا أبي؟ وإذا كانت قد قالت لك إنّي أبوك فإنّها تكون قد أبلغتك بأكثر ممّا أبلغتني. تماسك! ليس الابن ما تقوله امرأة، وإنّما الابن هو ما يقوم رجل بفعله. تريد أن تتصرّف كأنّك ابني، إذن عليك بذلك، وإلاَّ فلتغادر هذه الدّار بحقّ الشّيطان!

twitter @baghdad_library

ـ لم أجئ إلى هنا لأخطب ودكّ وأنال موافقتك.

ـ أعرف ما جئت من أجله. جئت لترى مدى عمق سوادي. حسبت أنّك أبيض. ألم تحسب ذلك؟ ربّما تركتْك تعتقد ذلك، علقتِ الآمال على أنّك ستعتقد ذلك. وأقسم أنّني أظنّ ذلك أيضاً.

ـ لقد قامت بحمايتي. فلو أنّها أعلنت أنّني زنجي لكان يمكن أن أكون عبداً!

ـ لديهم زنوج أحرار. كان لديهم على الدّوام زنوج أحرار، وكان من الممكن أن تكون واحداً منهم.

ـ لست أريد أن أكون زنجياً حرّاً، وإنّما أريد أن أكون رجلاً حرّاً.

ـ ألسنا نرغب جميعاً في ذلك. انظر! فلتكن ما تريد، أبيض أو أسود. اختر! ولكن إذا اخترت أن تكون أسود فإنّ عليك أن تسلك سلوك السّود، بمعنى أن تستنهض رجولتك، سريعاً، ولا تردّ عليّ بردّ وقح من فتى أبيض.

كان جولدن جراي متزناً الآن، وقدّر لاتزانه أن يطيح برأس الرّجل. في الغد.

لابدّ أنّ الفتاة هي الّتي جعلته يغيّر رأيه.

بمقدور الفتيات أن يفعلن ذلك. يمضين بالرّجل بعيداً عن الموت أو يدفعنه نحوه مباشرة. يخرجنك من الرّقاد وتستيقظ على الأرض تحت شجرة لن تحدّد مكانها مرّة أخرى قطّ لأنّك ضللت الطّريق. أو إذا عثرت عليها فلن تكون على حالها، ربّما تشقّقت من الدّاخل، اخترقتها حياة زاحفة، تعيّن عليها أن تجد طريقها بدورها، وزحفت ولطمت وقضمت وحفرت إلى أن ينقر الشيء بأسره فيغدو خاوياً من

خلال الخدمات الّتي قدّمها للآخرين، أو ربّما اجتثوها قبل أن تتهالك متهاوية على نفسها، وحوّلوها إلى كتل خشبيّة للحرق في مدفأة كبيرة يحدّق الأطفال فيها.

قد يستطيع فيكتوري أن يتذكّر. كان أكثر من أخ أثير لدى جو، كان أقرب أصدقائه، وقد اصطاداوعملا في معظم أرجاء مقاطعة فيسبر. وحتّى خريطة العمدة ليس بمقدورها أن توضح شجرة الجوز الّتي سقط جو من عليها، ولكن فيكتوري سيتذكّرها. ربّما مازالت قائمة هناك في فناء دار أحد الأشخاص، ولكن حقول القطن والجيران الملونين حولها قد اجتثت وديست بالأقدام.

أسبوع من الشّائعات، ويومان من حزم الأمتعة، ويكون تسعمائة زنجي قد غادروا فينيا تشجعهم على ذلك البنادق وسياط القنب، وانطلقوا إلى خارج المدينة تقلّهم العربات، أو سيراً على أقدامهم إلى حيث لا يدري أحد (أو يكترث). بإخطار مسبق لا يتجاوز يومين؟ كيف يمكنك أن تخطّط إلى أين تمضي، وإذا كنت تعرف مكاناً تعتقد أنّك ستلقى التّرحيب فيه فأين النّقود الّتي تصل بها إليه؟

تحلّقوا حول المستودع، وخيّموا في الحقول عند حافة الطّريق جماعات إلى أن تمّ إبعادهم لكونهم المحنة الّتي حلّت بساحتهم، ولأنّهم يعكسون كالماء الرّاكد الغمّ الّذي استشعروه يقيناً، ولتذكيرهم للآخرين بالأجور الّتي تدفعها الخطيئة للعاملين في رحابها.

حقل القصب الّذي اختبأت فيه وايلد، أو راحت ترقب، أو ضحكت عالياً، أو قبعت محترقة طوال شهور. رائحة السّكر العالقة في الدّخان، تثقله. راح يتساءل: هل يقدّر لها أن تعرف؟ هل ستدرك

twitter @baghdad_library

أنّ النّار ليست ضوءاً ولا زهوراً تتحرّك نحوها ولا شعراً ذهبياً يتطاير؟ وأنّك إن حاولت تقبيلها فسوف تطيح بأنفاسك؟

القبور الصّغيرة ذات الصّلبان المصنوعة يدوياً وفي بعض الأحيان شاهد حجري يتوسّل من أجل الذّكرى بحروف كبيرة مكتوبة بعناية، لم تتح لها الفرصة قطّ.

رفض هانتر الرّحيل، وعلى أيّة حال فوجوده في الغابات أكثر من مكوثه في الكوخ، وبدا أنّه يتطلّع لقضاء أيّامه الأخيرة في الأماكن الّتي يشعر فيها بأقصى قدر من الارتياح، وهكذا فإنّه لم يحمل معدّاته إلى عربة، أو يمضي سيراً على الطّريق إلى بير، ومنها إلى كروسلاند، فجوشين، ثمّ إلى بالستاين، بحثاً عن مكان للعمل، على نحو ما فعل جو وفيكتوري. مزرعة تمنح فتياناً سوداً في الثّالثة عشرة من العمر موضعاً للرقاد ولقمة تردّ الجوع مقابل قطع الأشجار. أو منشرة بها مبنى مزود بسُرُر للعمّال. انطلق جو وفيكتوري على الطّريق مع الآخرين لبعض الوقت، ثم ابتعدا موغلين. عرفا أنّها قد تركا كروسلاند بعيداً وراءهما عندما مرّا بشجرة الجوز حيث اعتادا الرّقاد في اللّيالي الّتي يصيدان فيها بعيداً عن الدّار. ويمكن أن يلتمسا الهواء البارد هناك عالياً وسط أغصانها، وعندما تطلعا إلى الوراء على الطّريق كان مايزال بمقدورهما أن يلمحا الدّخان وهو يتصاعد ممّا بقي من الحقول ومن قصب فينيا. عثرا على عمل لا يستغرق إنجازه وقتاً طويلاً في منشرة للخشب في بير، ثمّ انتزاع جذور الأشجار طَوال أصيل في كروسلاند، وأخيراً عمل متواصل في جوشين، ثمّ ذات ربيع تفجّر الثّلث الجنوبي من المقاطعة بلوزات قطن بيضاء منتفخة، وترك جو فيكتوري الّذي كان يساعد الحدّاد في جوشين، ومضى إلى

جمع المحصول الوفير خارج بالستاين، على بعد خمسة عشر ميلاً. ولكن أولاً، أولاً، كان عليه أن يعرف ما إذا كانت المرأة الّتي اعتقد أنّها أمّه ماتزال هناك، أم اختلط عليها النّار والشّعر وفقدت أنفاسها فيها.

قام، إجمالاً، بثلاث رحلات، مضى خلالها وحيداً للعثور عليها. وكان قد عاش في فينيا في بداية الأمر مع الخوف منها، ثمّ مع الجانب الطّريف منها، وأخيراً استحوذت عليه، وأعقب ذلك رفضه لها. لم يقل أحد لجو إنّها أمّه، ليس بشكل مباشر، وإنّما تطلّع هانترز هانتر ذات مساء في عينيه، وقال:

ـ لديها أسباب، حتّى إذا كانت مجنونة. فالمجانين لديهم أسباب.

كانوا يغتسلون، بعد تناول جانب ممّا صادوا. واعتقد جو في وقت لاحق أنّ ما تناولوه كان دجاجة بريّة، لكنّه كان يمكن أن يكون من ذوات الفراء. لسوف يتذكّر فيكتور الأمر، فقد كان يمسح عصا الشيء بوريقات أشجار، بينما جو يسوي النّار بالأرض.

ـ لقد علّمتكما معاً ألاّ تقتلا شيئاً رقيقاً أو أنثوياً ما وسعكما. ولم أحسب أنّ عليّ تعليمكما ذلك فيما يتعلّق بالبشر. الآن، تعلّما هذا: إنّها ليست طريدة. يتعيّن أن تعرفا الفرق.

كان فيكتوري وجو يمزحان، ويتكهنان بما يتعيَّن القيام به للقيام بقتل وايلد إذا ما لقياها صدفة، لو أنّ أثرها الّذي رآه ثلاثتهما في بعض الأحيان قد أفضى بهم إلى مخبأها. وعند ذلك قال هانتر ما قاله عن أنّ للمجانين أسبابهم، ثمّ تطلع إلى جو مباشرة (لا إلى فيكتوري). وجعلت النّار الخفيضة اللهب نظرته تتوهج:

twitter @baghdad_library

ـ تلك المرأة، كما تعلمان، هي أم «أحدهم» وعليه أن يلزم الحذر.

تبادل فيكتور وجو النّظرات، ولكن لحم جو هو الّذي حلّت به البرودة، وزوره هو الّذي حاول أن يبتلع ريقه وأخفق في ذلك.

منذ ذلك الوقت فصاعداً، تصارع مع فكرة كون المرأة الوحشيّة أمّه. في بعض الأحيان كان ذلك يشعره بالعار إلى حدّ الانخراط في البكاء. وفي أحيان أخرى كان حنقه يفسد عليه تصويبه، فيطلق النّار كيفما اتفق، أو يصيب الّطرائد في مواضع سيئة غير كافية لإسقاطها أرضاً، وقضى الكثير من وقته في إنكار الأمر، مقنعاً نفسه بأنّه أساء فهم كلمات هانترز، وأساء في المقام الأوّل فهم نظرته. ورغم ذلك فقد شغلت وايلد على الدّوام ذهنه، وهو لن يرحل إلى بالتساين دون أن يحاول مرّة أخرى العثور عليها.

لم تكن في القصب على الدّوام، ولا في الجانب الخلفي من الغابات المطلّة على مزرعة رجل أبيض. وقد شاهد وهانتر وفكتوري آثاراً من آثارها في تلك الغابات: أقراص العسل المخرّبة، كسر ومخلفات أطعمة مسروقة، وفي مرّات عديدة العلامة الّتي اعتمد عليها هانتر أكثر من غيرها، أي طيور السّمانى المفردة، تلك الطّيور الّتي تجمع بين اللّونين الأزرق والأسود مع لمسة من اللّون الأحمر على جناحيها. قال هانتر إنّ في السّمنة المفردة شيئاً تحبه وايلد، ورؤية أربعة أو خمسة طيور منها كانت تعني على الدّوام أنّ وايلد قريبة. قال هانتر إنّه قد حادثها هناك مرتين، ولكنّ جو عرف أنّ تلك الغابات لم تكن الموضع الأثير لديها. وفي المرّة الأولى الّتي بحث

فيها عنها كان بحثاً ينقصه العزم بعد ساعتين من الصّيد الموفّق للأسماك. عبر النّهر، وراء الموضع الّذي تكثر فيه أسماك ذئب البحر والسّلمون المرقط، ولكن قبل أن يندفع النّهر تحت الأرض متجهاً إلى المنشرة، تنعطف الضّفّة حول منحدر. وفي أعلى المنحدر على ارتفاع خمسة عشر قدماً من النّهر كان هناك تكوين صخري يحمي من يعتصم به، وقد سدّ مدخله بحواجز من الخبّازى العتيقة. وذات مرّة بعد صيد عشر سلمونات مرقطة باستخدام الشّصّ في ساعة الفجر الأولى مرّ جو بذلك المكان وسمع ماخاله أوّل الأمر مزيجاً من الماء الجاري والرّيح الّتي تتخلل الأشجار العالية. والموسيقى الّتي تعزفها الدّنيا، والمألوفة لدى الصّيادين والرّعاة، يسمعها جوابو الغابات أيضاً، وهي تنوّم الحيوانات الثدييّة مغناطيسيّاً، فترفع ذكور الوعول رؤوسها، وتتجمّد السّناجب في مواضعها، ويبتسم البارعون في اجتياز الغابات والصّيد فيها ويغمضون أعينهم.

حسب جو أنّ ذلك هو ما يتناهى إليه، وأصاخ السّمع مسروراً، إلى أن بدا أنّ كلمة أو كلمتين تزلقان إلى الصّوت. ولمّا كان يعرف أنّ الموسيقى الّتي تعزفها الدّنيا مجردة من الكلمات فقد وقف ساكناً مثل صخرة، ومسح بناظريه ما حوله. امتدّ خيط شصّ فضّيّ عبر الضّفّة الأخرى، والشّمس تخترق آخر ما بقي من زرقة اللّيل الملكيّة. إلى أعلى وباتجاه اليسار بدت الخبّازى كثيفة وبريّة وعتيقة. كانت براعمها مطبقة تنتظر النّهار. لقد صدرت نبذة الأغنية عن حلق امرأة، وارتقى جو طريقه صاعداً المنحنى دافعاً ما أمامه بيديه وقدميه، وعبر الحاجز، كرمة متشابكة من العنب المسكي والفرجينيا المتسلقة والخبّازى الّتي حال لونها إلى لون الصّدأ بفعل القدم. وعثر على

twitter @baghdad_library

الفتحة في التّكوين الصّخري، ولكنّه لم يستطع ولوجها من تلك الزّاوية، لسوف يتعيَّن عليه أن يتسلَّق أعلاها ثمّ ينزلق هابطاً إلى مدخلها. كان الضّوء محدوداً للغاية حتّى إنَّه استطاع بعناء رؤية ساقيه، لكنه شاهد آثاراً كافية لكي يعرف أنّها هناك.

هتف:

ـ هل هناك أحد؟

توقفت الأغنية، وحلّ محلها صوت تقصّف، كالّذي ينجم عن تكسّر الأغصان.

ـ مرحباً! أنت هناك!

لم يتحرَّك شيء في موضعه، ولم يستطع إقناع نفسه أنّ الرّائحة الّتي لفته لم تكن خليطاً من العسل والخراء. وعندئذٍ غادر المكان، وقد داهمه الغثيان، واستبدّ به كثير من الخوف.

كانت المرّة الثانية الّتي بحث فيها عنها عقب الإجلاء. فبعد أن رأى الدّخان، وتذوّق بلسانه الهواء المثقل بالسّكر، قام بتأخير رحلته إلى بالستاين، لكي يتمكَّن من سلوك طريق دائري عائداً نحو فينيا. سار عند طرف الأرض المحترقة والحقول ذات السّوق السّوداء، مشيحاً بناظريه عن الأكواخ الّتي غدت الآن مجرّد حجارة تشعّ حرارة حيث كانت المغاطس يوماً، وتوجّه نحو النّهر والبقعة الّتي تكثر فيها أسماك السّلمون المرقطة حتّى لكأنّها الذّباب. وعندما وصل إلى الموضع الّذي ينعطف النّهر عنده عدل البندقية المشدودة إلى كتفه وهبط بها إلى مستوى وركيه.

مضى على مهل، متنفساً برقّة عير فمه، إلى الصّخور الّتي تحول

دونها الخضرة النّامية بضراوة تحت الشّمس. لم يكن هناك أثر لها، لا شيء ممّا يمكن أن يتعرفه، أفلح في التّسلق إلى ما فوق الفتحة، ولكن عندما انزلق، ودخل الموضع الصّخري لم ير شيئاً يمكن لامرأة أن تستخدمه، وكانت آثار السّكنى البشريّة باردة. هل انطلقت بعيداً، هربت؟ أم غلبها الدّخان، النّار، الفزع، العجز؟ انتظر جو هنالك، إلى أن أصابه الإصغاء بالدّوار، فأغفى ساعة أو يزيد. وعندما استيقظ كان النّهار قد أوغل في مسيرته، والخبّازى في عرض كفّه. رفع نفسه خارجاً إلى المنحدر، وفيما هو ينعطف ليمضي مبتعداً انطلقت أربع سمنات مغرّدة من الغصون السّفلى لشجرة سنديان بيضاء. لاحت هائلة، ومنعزلة، ونمت في تربة غير محتملة، والتوت في جذورها على نفسها. سقط جو، في التّو، جاثماً على يديه وركبتيه هامساً: «أنت؟ ما عليك إلاَّ أن تقوليها، قولي أي شيء!». كان شخص ما قربه يتنفّس، التفت حوله، وفحص البقعة الّتي خرج منها لتوّه. بدت كلّ حركة أو انتقالة وريقة كأنّها هي. «إذن، فأعطيني إشارة. ليس عليك أن تقولي شيئاً، دعيني أرى يدك، أبرزيها من مكان ما وسأمضي لشأني، أعدك بذلك. إشارة». راح يتوسّل ويرجوها أن تمدّ يدها إلى أن ازداد النّور انحساراً «أنت أمّي؟» نعم. لا كلاهما. أي منهما. ولكن ليس هذا اللاّشيء.

وإذ راح يهمس لسوق الخبّازى ويصغي لصوت التّنفس، رأى نفسه فجأة مرتهناً في التّراب، ليس لامرأة مجنونة فحسب، بل لامرأة قذرة تصادف أنّها أمّه المحجوبة الّتي عرفها هانتر ذات يوم، والّتي جعلت من ابنها يتيماً، مؤثرة ذلك على رعايته أو احتضانه أو البقاء في الدّار معه. امرأة أفزعت الأطفال، وجعلت الرّجال يشحذون نصالهم،

twitter @baghdad_library

وتترك لها العرائس الطّعام خارج الدّور (الأمر سيّان، وإلاّ فإنّها ستسرقه) تاركة آثاراً لذاتها القذرة الّتي حطّمها التّشرّد في البرّيّة على امتداد المقاطعة. ألحقت به العار أمام الجميع، إلاّ فيكتوري الّذي لم يضحك ولم يرمقه بنظرة جانبيّة ساحرة عندما أبلغه جو بما يعتقد أن هانتر قد قصده بتلك الكلمات، وخاصة بتلك النّظرة. كانت إجابة فيكتوري هي:

ـ لابدّ أنّها شديدة المراس، إذ تعيش في البريّة على ذلك النّحو، طوال العام، لابدّ أنّها شديدة المراس.

ربّما كان الأمر كذلك، ولكن في ذلك الوقت على وجه التّحديد أحسّ جو بأنّه أحمق منتسل الرأس، أكثر جنوناً منها، ومثلها في الوحشية، وهو ينزلق إلى الطّين ويدوس على الجذور السّوداء، ويجرّ قدميه عبر امتدادات من التّراب، زاحفاً مع النّمل الأبيض. لقد أحبّ الغابات لأنّ هانتر قد علّمه كيف يحبّها. ولكنها الآن امتلأت بها، امرأة خرقاء أكثر جنوناً من أن تستجدي من أجل العيش، وأشدّ عتهاً من أن تقوم بما تفعله أحطّ خنزيرة، وهو أن ترعى صغارها. وقد اعتقد الأطفال الصّغار أنّها ساحرة، ولكنهم كانوا على خطأ؛ فقد كانت هذه المخلوقة تفتقر إلى الذّكاء الّذي يمكن أن يجعل منها ساحرة، كانت عاجزة، لا تقع عليها العيون، ومعتوهة على نحو مدمّر، موجودة في كلّ مكان، وفي لا مكان.

هناك فتية ولدوا لبغايا ولا يستطيعون التّغلب على ذلك الوضع، وثمّة فتية تتعثر أمهاتهم في طرقات المدينة عندما يوصد الملهى الرّخيص أبوابه، وأمهات يلقين بأطفالهن بعيداً، أو يقايضنهم بأوراق

النّقد المطوية. وكان حرياً به أن يختار أيا منهن مؤثراً إياها على هذا الجنون الشّرس، الصّامت، المتربص. ولم تثر الاطلاقة الّتي وجهها إلى أغصان شجرة السّنديان البيضاء انزعاج أحد؛ ذلك أنّ الرّصاصات كانت في جيبه، وقرقع الزّناد بلا ضرر. وانطلق صارخاً ومنزلقاً وساقطاً يسابق الرّيح على المنحدر وسار بحذاء ضفة النّهر مبتعداً عن المكان.

twitter @baghdad_library

منذ ذلك الحين غدا عمله استحواذياً. وفي طريقه إلى بالستاين قبل كلّ عمل عرض عليه أو سمع به. قام بقطع الأشجار وعيدان القصب وحراثة الأرض حتّى العجز عن رفع ذراعيه، وبإزالة الرّيش عن الدجاج وجمع القطن وحمل الخشب والحبوب وصخور المحاجر والماشية. ظنّ البعض أنّه جائع للمال، ولكن آخرين ضمنوا أنّه لا يحبّ القعود ولا أن يظنّ به الكسل. وفي بعض الأحيان كان يواصل العمل وقتاً طويلاً إلى ساعة متأخرة، بحيث لا يعود قطّ إلى الفراش الّذي يؤمّه في المهجع، وعندئذٍ فإنّه ينام في العراء، وفي بعض الأحيان ينال ما يكفي من الحظّ ليجعله قرب شجرة الجوز، فيتأرجح في الغطاء الّذي يحتفظون به هناك إلى أن تمسّ الحاجة إليه. وبعد بالستاين عقب جمع القطن ووضعه في بالات، والحديث بشأن بيعه تزوج جو، وعمل بدأب أكبر.

هل مكث هانتر قرب فينيا بعد الحريق؟ هل انتقل عائداً لى وردزورث؟ هل أعدّ لنفسه موضعاً صغيراً في دواخل المقاطعة حسبما قال إنّه سيفعل ويجعل الدّنيا تمضي من حوله على طريقته الخاصة؟ في العام ١٩٢٦، وبعيداً عن كلّ تلك الأماكن، حدّث جو نفسه بأنّ هانتر ربّما كان قد انتقل إلى وردزورث، ولو أنّه كان

بمقدوره أن يسأل فيكتوري لتذكّر هذا الأخير على وجه الدّقّة (بافتراض أنّه على قيد الحياة، ولم يلدغه السّجن) لأنّ فيكتوري كان يتذكّر كلّ شيء وبوسعه إبقاء الأمور واضحة في ذهنه، مثل كم عدد المرّات الّتي استخدمت فيها إناث الطّواويس أعشاشاً معينة، ومثل الموضع الّذي تبلغ فيه السّجادة الحنائيّة المؤلفة من إبر الصّنوبر عمق عظم قصبة السّاق، ومثل ما إذا كانت شجرة بعينها ـ الشّجرة الّتي تنمو جذورها متسلقة جذعها ـ في مرحلة الأزهار قبل يومين أو أسبوع ومتى كان ذلك على وجه الدّقّة.

يتساءل جو عن هذا كلّه في يوم جليدي من أيام كانون الثاني (يناير). وهو بعيد عن فرجينيا، بل وأكثر بعداً عن جنّة عدن. وفيما هو يرتدي معطفه ويعتمر قلنسوته فإنّ بوسعه عملياً أن يشعر بفيكتوري إلى جواره عندما ينطلق مسلماً ليعثر على دوركاس. لا يخطر له ببال أن يؤذيها، أو على نحو ما حذر هانتر، أن يقتل شيئاً رقيقاً. إنّها أنثى، وهي ليست طريدة تصاد؛ ولذا فإنّه لا يفكّر في ذلك قطّ. ورغم ذلك فإنّه يطاردها لاصطيادها، وخلال الصّيد فإنّ المسدّس رفيق طبيعي، مثل فيكتوري.

يمضي مطارداً خلسة في أرجاء المدينة، وهي لا تعترض ذلك ولا تتدخل فيه. إنّه اليوم الأول من العام، ومعظم النّاس مرهقون بتأثّر البارحة. غير أنّ الملونين مايزالون يحتفلون بتجمع نهاري، بوليمة يمكن أن تمتدّ حتّى اللّيل. الشّوارع زلقة، والمدينة تبدو محدودة السّكان مثل بلدة صغيرة.

ـ أريد رؤيتها فحسب. حدّثوها بأنّني أعرف أنّها لم تعنِ ما قالته.

twitter @baghdad_library

إنّها في مقتبل العمر، ومن في مقتبل العمر يستبدّ بهم الطّيش، يتمردون لمجرد التّمرد. مثلما حدث لي في تلك المرّة الّتي أفرغت خلالها بندقية في أوراق الشّجر. ومثلما حدث لي عندما قلت: «ليكن، يا فيوليت، سأتزوجك» لا لشيء إلاَّ لأنّني لم أستطع تبيّن ما إذا كانت امرأة وحشيّة قد أبرزت يدها أم لا

الشّوارع الّتي يسير فيها زلقة ومعتمة. وفي جيب معطفه يقبع المسدّس من طراز ٤٥ الّذي رهن بندقيته مقابله. وكان قد ضحك عندما وضع قبضته عليه، مسدّس يشبه وليداً بديناً سيكون صوته عالياً كصوت مدفع. ما من شيء معقد فيه، وسيكون عليك أن تحارب نفسك إذا أردت أن تخطئ الهدف، ولكنّه لن يخطئه، لأنّه لن يصوب، ليس على تلك البشرة الّتي لم تلق حقّها من العناية، أبداً، أبداً لا تؤذ الصّغار، البيض في العشّ، أنثى الظّبي، الأفراخ، الأسماك الصّغيرة.

تهبّ ريح قارسة البرد من مدخل نفق، فتطير قلنسوته، يعدو ليستردها من القناة الجانبية الّتي اكتسحتها الرّيح إليها، لا يلمح الحلقة الدّائريّة الورقيّة المنتزعة من سيجار من طراز «وايت أول» الّتي التصقت بأعلى قلنسوته. ما إن يستقلّ القطار حتّى يتعرق بغزارة فينزع عنه معطفه. ترتطم الحقيبة الورقيّة بالأرضيّة، فيطلّ جو على أصابع الرّاكب الّذي مدّ يده والتقط الحقيبة وأعادها إليه. يومئ جو شاكراً، ويعيدها مجدداً إلى جيب معطفه. تهزّ زنجيّة رأسها حياله. حيال الحقيبة الورقيّة؟ محتوياتها؟ لا، وإنّما حيال وجهه الّذي ينسال العرق عليه، تمدّ له منديلاً نظيفاً ليجفّفه به، يرفض، يرتدي معطفه مجدّداً ويتحرك إلى الباب ليحدّق في سرعة القطار والظّلام.

يتوقف القطار فجأة، فيدفع بالرّكاب إلى الأمام في مواضعهم، وكأنّه تذكّر لتوّه أنّ هذا المكان هو الّذي يحتاج جو إلى التّرجل فيه إذا ما أراد العثور عليها.

تترجل ثلاث فتيات من القطار إحداهن وراء الأخرى، وتلطم أحذيتهن الدّرج الجليدي. يحييهنّ ثلاثة رجال كانوا في انتظارهنّ، وينطلقون معاً أزواجاً مبتعدين. البرد قارس. للفتيات شفاه حمراء وسيقانهنّ تهمس كل ساق للأخرى من خلال الجوارب الحريريّة. تتوهج الشّفاه الحمراء والحرير بالقوّة، قوّة سيمنحنها لقاء الحقّ في التّغلب عليهن في ولوجهن. يحبّ الرّجال الماضون إلى جوارهن ذلك،لأنَّهم في نهاية المطاف سيصلون إلى الأعماق، سينتشرون، يصلون إلى ما وراء تلك القوّة، يمسكون بها، ويبقونها ساكنة.

في المرّة الثّالثة الّتي حاول جو فيها العثور عليها (كان قد تزوَّج في ذلك الحين) بحث في جانب التّل عن الشّجرة، الشّجرة الّتي تنمو جذورها إلى الخلف، كأنَّها بعد أن مضت طائعة إلى الأرض ألفتها قاحلة فتراجعت إلى الجذع باحثة عمّا تحتاج إليه. ومضت جذورها تتسلق عالياً مترعة بالتحدّي ومفارقة للمنطق، نحو الأوراق، الضّياء، الرّيح. وفيما دون هذه الشّجرة كان هناك النّهر الّذي يسمّيه البيض «تريجن» حيث يتسابق السّمك في الوصول إلى خيط الشّصّ، والسّباحة وسطها يمكن أن تكون مليئة بالاضطراب أو بالهدوء. ولكن للوصول إلى هناك فإنّك تخاطر بالتّعرض للخيانة من قبل الأرض الّتي تخطو عليها، فالمنحدرات والتّلال الخفيضة الّتي تنحدر برفق نحو النّهر تبدو مرحبة فحسب، أمّا تحت عرائش الكروم

twitter @baghdad_library

والنّخيل الممتدّ كالسّجاد والعنب البري والخبّازى والحماض الخشبي فإنّ الأرض مُنْفِذة للماء كالمنخل. ومن شأن خطوة أن تفضي إلى ابتلاع قدمك أو ذاتك بأسرها.

«ما الّذي تريده مع ديك في مقتبل عمره؟ يضرب على الرّس في أحد الأركان، مطلاً على الدجاجات لينتقي منهن. ليس لديهم شيء لا يتوافر عندي على نحو أفضل، إضافة إلى أنّني أعرف كيف أعامل المرأة. ولم يحدث أن أسأت معاملة امرأة قطّ، ولن أفعل ذلك أبداً. لن أجعل امرأة تحيا في كهف كالكلبة أبداً. أمّا الدّيكة الشّابة فتفعل ذلك. وقد اعتادت قول ذلك أيضاً. كيف أنّ الشّبان ليس بمقدورهم التّفكير في أحد إلاّ في أنفسهم، كيف أنّه في الملعب أو خلال رقصة فإنّ كلّ ما يفكّر فيه أولئك الفتية هو أنفسهم. وعندما أعثر عليها فإنّني أعرف ـ وأراهن بحياتي على ذلك ـ أنّ واحداً منهم لن يخترقها، لن تختلط ملابسه بملابسها، لا، ليست هي، ليس دوركاس. ستكون بمفردها. عنيدة، بل متوحشة، ولكنّها بمفردها».

* * *

فيما وراء الشّجرة، خلف الخبّازى، كان هناك جلمود. ووراءه فتحة أخفيت على نحو بالغ السّوء بحيث لا يمكن إلاّ أن تكون من عمل انسان. ما من ثعلبة أو انثى ظبي في غمار الولادة يمكن أن تكون على هذا النّحو من الاتساخ والقذارة. هل كانت تختفي هناك؟ أكانت على هذا القدر من ضآلة الجرم؟ أقعى ليلقي نظرة عن قرب بحثاً عن علامة دالة عليها، فما وجد شيئاً. أخيراً دفع برأسه في الدّاخل. ظلام دامس. وما من رائحة لفضلات أو فراء. وإنّما هناك،

بالمقابل رائحة منزلية ـ زيت، رماد ـ قادت خطاه. مضى يزحف، منسلاً في فراغ خفيض بحيث يمسّ السّقف شعره. وعندما أوشك على التّراجع للخروج من هناك، أصبح التّراب تحت يديه حجراً، وصدم ضوء عينيه بقوّة حتّى إنَّه تراجع مجفلاً. لقد اجتاز مسافة قامات قليلة من الظّلام، وها هو يطلّ خارج الجانب الجنوبي من وجه الصّخرة. وِجار طبيعي يفضي إلى لا مكان. يفضي بزاوية عبر منحنى من المنحدر إلى آخر. نهر تريجن يتألق تحته. وإذ عجز عن الالتفات للعودة إلى الدّاخل فقد اجتذب نفسه إلى الخارج ليعود إلى الدّخول برأسه. وإذ عاد من الهواء الطّلق فقد غدت الرائحة المنزليّة أشدّ كثافة على الفور. فاحت رائحة زيت الطّهي بقوّة تحت سنا الشّمس الباهر كضربة خنجر، ثمّ شاهد الصّدع، فمضى إليه على مؤخّرته إلى أن أوقفت الأرضيّة انزلاقه. كان ذلك شبيهاً بالسّقوط إلى الشّمس، تبعه ضوء الظّهيره كأنّه الحمم المصهورة إلى غرفة حجريّة طهي فيها أحدهم مستخدماً زيت الطّعام.

«لا يتعين عليها الإيضاح. لا يتعين عليها التّفوه بكلمة واحدة، فأنا أعرف جليّة الأمر. لربّما تعتقد أنّ الأمر مرده إلى الغيرة، لكنّني رجل معتدل، وليس قوامه أنّني لا أشعر بالأحاسيس، فقد خضت بعض الأوقات العصبيّة، وتجاوزتها أيضاً، ولي مشاعري تماماً كأي شخص آخر.

ستكون بمفردها.

ستلتفت نحوي.

twitter @baghdad_library

ستمدّ ذراعها، وتمضي نحوي في حذاء قبيح، ولكن وجهها صاف، وأنا فخور بها، تعذّبها جدائلها المشدودة في إحكام بالغ؛ ولذا فإنّها تقوم بفكّها فيما هي تدنو مني. إنّها سعيدة للغاية بعثوري عليها، متوفرة ولدنة، وتريدني أن أفعلها، تطلب مني ذلك، مني أنا، ولا أحد سواي».

غمره شعور بالسّلام، في البداية، وبنوع من الترقّب، كأنّما كان ثمّة شيء ينتظر، شعور كذلك الّذي يسبق طعام العشاء، عندما ينتظر شخص تناول الطّعام. وعلى الرّغم من أنّه مكان خاصّ، فتحته موصدة في وجه العامة، إلاّ أنّك ما إنْ تلجه حتّى تستطيع القيام بما يحلو لك، تقطع انسياب الأمور، تعبث بالأشياء كيفما اتفق، تمسّ وتتحرك، تغيّره جميعه على نحو لم يُرَدْ له قطّ. لقد تغيّر لون الجدران الحجريّة من اللّون الذّهبي إلى زرقة خيشوم السّمك وقت رحيله. كان قد رأى ما هنالك. رداء أخضر. مقعد هزّاز بلا ذراع. حلقة من الأحجار للطهي، جرار، سلال، قدور، دمية، مغزل، أقراط، صورة، حزمة من العيدان، مجموعة من الفراشي، صندوق سيجار فضي. كذلك. كذلك، سروال رجالي له أزرار من العظم، قميص حريري مطوي بعناية، حليبي، نصل لونه ومواضع اتصال النّسيج فيه. فهناك كان كلّ من الخيط والنّسيج أصفر جديداً ومتألقاً.

ولكن أين هي؟

ها هي. لا وجود لأخوين راقصين في هذا المكان، ولا فتيات لاهثات الأنفاس، ينتظرن إحلال المصباح الأزرق محل المصباح الأبيض. هذا حفل للكبار، وما يجري فيه إنّما يجري تحت ضوء ساطع. المشروب المهرب ليس بالسّرّ، والأسرار ليست محظورة. ادفع دولاراً أو دولارين لدى الدّخول، فإذا ما تقوله أكثر لماحية وطرافة ممّا سيكون إذا ما قلته في مطبخك. حضور بديهتك يفيض مندفعاً كأنّه اندفاع الحباب حتّى حافة الكأس. والضّحك مثل أجراس مجلجلة، لا تحتاج إلى يد تجتذب الحبل، وإنّما تواصل الدّوي إلى أن تضعفك، وبمقدورها شرب الجنّ المأمون الجانب، إذا راق لك ذلك، أو تكتفي بالجعة، ولكنك لا تحتاج إلى أي منهما، لأنّ لمسة على الرّكبة، بمحض الصّدفة أو عن عمد تنبّه الدّم كحفنة ممّا يعطي قبل البروبوربون، أو أصبعين تقرصان حلمتك. ترتفع روحك إلى السّقف حيث تطفو قليلاً متطلعة إلى أسفل في سرور. نحو العري المتكسي. إنّك تعرف أنّ شيئاً خبيثاً يدور في غرفة موصدة الباب، ولكن هاهنا ما يكفي للبَهر والمخاتلة، إذ يتشبَّث رفقاء الرّقص أحدهم بالآخر، أو يتبادلان الأماكن حين يستحثّهما صوت يكسر الفؤاد.

دوركاس مغتبطة، راضية. تضمّها ذراعان، وبمقدورها أن تسند خدّها على كتفها، بينما يتصالب رسغاها وراء عنقه، أمر طيّب أنّهما ليسا بحاجة إلى فراغ كبير للرقص فيه؛ لأنّه ليس هناك فراغ، فالقاعة مليئة، والرّجال يئنّون معربين عن غبطتهم، وتدندن النّسوة

twitter @baghdad_library

في غمرة توقعهن لما هو آت. تنحني الموسيقى، تتهاوى إلى ركبتيها لتحتضنهم جميعاً، تشجّعهم جميعاً على أن يعيشوا حياتهم قليلاً. لم لا تفعلون ذلك؟ مادام ذلك هو ما كنتم تتوقون إليه.

لا يهمس رفيق دوركاس في الرّقص في أذنها، ووعوده جلية بالفعل في الذّقن الّذي يدسّه في شعرها، وأطراف الأصابع الّتي تمكث في موضعها، تتطاول بقامتها لتحيط عنقه، ينحني ليساعدها في القيام بذلك. يتطابقان في كلّ شيء يعلو الخصر ويمتدّ تحته: العضل، الوتر، عظم المفاصل، وتعاون النّخاع. وإذا تردّد الرّاقصون، وساورتهم لحظة شكّ، فإنّ الموسيقى ستحلّ أي مسألة وتردّها إلى عناصرها المكوّنة.

دوركاس سعيدة، أكثر سعادة ممّا كانت عليه في أي وقت. ما من خيوط بيضاء تنمو في شارب رفيقها في الرّقص، إنّه في شرخ الشّباب ومتفجّر بالحيويّة، عيناه تشبهان عيني الصّقر، لا يعرف التّعب إليه سبيلاً، وقاس قليلاً. لم يقدّم لها هدية أبداً أو حتّى يفكّر في ذلك. وفي بعض الأحيان يكون في المكان الّذي حدّده، وفي بعض الأحيان يخلف وعده. النّساء الأخريات يردنه ـ بشدّة ـ وقد كان متشدّداً في اختياره. وما يردنه والجائزة الّتي يمنحها هي ذاته المتألقة. ما الّذي يمكن أن يكون جورب حريري بالمقارنة به؟ لا وجه للمقارنة. دوركاس محظوظة. وهي تعرف ذلك، سعيدة بقدر ما كانت في أي وقت عرفت فيه السّعادة.

* * *

«إنّه آت بحثاً عني. أعرف ذلك؛ لأنّني أعلم كيف تسطّحت عيناه

عندما قلت له ألاَّ يجيء للبحث عني. وكيف دارتا، عقب ذلك، في موضعهما. لم أقل ذلك بشكل ودّي، على الرّغم من أنّني قصدت ذلك، بل تدرّبت أمام مرآة على طرح النّقاط الّتي أردتها، واحدة إثر الأخرى: الاعتصام بالسريّة، وزوجته، وكلّ شيء. لم أقل أي شيء قطّ عن عمرينا أو عن أكتون. لا شيء عن أكتون، ولكنه دخل في جدال معي؛ ولذا قلت دعني وشأني، ما عليك إلاَّ أن تدعني وشأني. ابتعد عني. وإذا أحضرت لي زجاجة ماء كولونيا أخرى فسوف أشربها وأموت، إن لم تدعني وشأني.

قال: ليس بمقدورك أن تموتي بفعل ماء الكولونيا.

قلت: تعرف ما أعنيه.

قال: تريدين أن أهجر زوجتي؟

قلت: لا، أريدك أن تهجرني. لا أريدك أن تلجني. لا أريدك بجواري. أكره هذه الغرفة، ولا أريد أن أكون هنا، ولا تجئ للبحث عني!

قال: لماذا؟

قلت: لأنّ، لأنّ، لأنّ.

قال: لأنّ ماذا؟

قلت: لأنّك تجعلني أحسّ بالاشمئزاز.

ـ اشمئزاز؟ أنا أجعلك تحسّين بالاشمئزاز؟

ـ الاشمئزا من نفسي، ومنك.

لم أقصد ذلك الجزء. عن كوني مشمئزة. فهو لم يجعلني أحسّ بذلك. أقصد لم يجعلني أحسّ بالاشمئزاز. وما أردت أن

twitter @baghdad_library

يعرفه هو أنّني أتيحت لي هذه الفرصة ليكون لي أكتون، وقد أردت اقتناصها، وأردت أن تتحدث صديقاتها عنها، عن الأماكن الّتي مضينا إليها وما فعلناه، عن الأمور، عن الأشياء. ما جدوى الأسرار إذا لم يكن بمقدورك أن تحادث أحداً عنها؟ لقد لمَّحت نوعاً ما لجو في حديثي مع فيليسيا، فضحكت، قبل أن تحدّق فيّ، ثمّ تجهمت.

لم أستطع قول كلّ ذلك له، لأنّني تدرَّبت على النّقاط الأخرى، وأصابني الارتباك.

لكنه آت للبحث عني. أعرف ذلك. كان يبحث عنّي في كلّ مكان. قد يعثر عليّ غداً. وربّما اللّيلة. يفضي به الطّريق إلى هنا، يفضي به الطّريق بأسره إلى هنا.

عندما ترجَّلنا من الحافلة، أنا وأكتون وفيليسيا، حسبت أنّه هناك في الرّواق بجوار متجر الحلوى، لكنه لم يكن هناك. لم يصل بعد. أحسب أنّني أراه في كلّ مكان. أعرف أنّه يبحث، والآن أعرف أنّه آت.

لم يكترث حتّى بمظهري، فقد كان بمقدوري القيام بأي شيء، وأن أكون على أيّة هيئة، ويدخل ذلك السّرور على نفسه، جعلني شيء ما في هذا الوضع أجن. لست أدري.

الآن يحدّثني أكتون بالأمر، عندما لا يحب الطّريقة الّتي أصفّف بها شعري، وعندئذٍ أصفّفه على النّحو الّذي يحبّه. ولا أضع العوينات عندما يكون معي. وقد غيّرت ضحكتي من أجله إلى ضحكة يؤثرها. أعتقد أنّه يؤثرها. وأعرف أنّه لم يؤثرها من قبل. الآن أعبث بطعامي. كان جو يحبّ أن ألتهمه كلّه، وأطلب المزيد.

أمّا أكتون فيرمقني بنظرة صارمة عندما أطلب أطباقاً ثانية. إنّه يقلق بشأني على هذه الشّاكلة. أمّا جو فلم يفعل ذلك قطّ. فهو لم يكن يكترث بنوعيتي كامرأة. وكان عليه أن يفعل ذلك، فأنا أهتم بهذا الأمر، وقد أردت أن تكون لي شخصيّة، ومع أكتون أكتسبها. لديّ مظهري الخاصّ الآن. وما يفعله حاجبان رفيعان كالقلم الرّصاص لوجهي يحلّق إلى آفاق الأحلام. وكلّ أساوري تستقرّ تحت المرفق مباشرة. وفي بعض الأحيان أعقد جواربي تحت ركبتيّ، لا فوقهما. ثلاثة أشرطة تعلو مشط قدمي، ولديّ في الدّار أحذية ذات جلد قطع بحيث يبدو كالمخرمات.

إنّه آت للبحث عني. ربّما اللّيلة، ربّما هنا.

ولئن جاء فسوف يلقي نظرة ويفحص مدى تلاصقي وأكتون خلال الرّقص، كيف أريح رأسي على ذراعي متشبثة به. وطرف تنورتي يتدلّى إلى الوراء ويمسّ ربلتيّ فيما نرقص مندفعين إلى الأمام وإلى الوراء ثمّ إلى جانب فالآخر. تتماس الأجزاء الأماميّة منا بأسرها. ونحن من الالتصاق بحيث أنّه ما من شيء يمكن أن يمرّ بيننا. ترغب فتيات كثيرات هنا في فعل ذلك معه. وبمقدوري رؤيتهن عندما أفتح عينيّ لأنظر إلى ما وراء عنقه. أحكّ ظفر إبهامي فوق مؤخّرة عنقه؛ لتعرف الفتيات أنّني أعرف أنّهن يردنه. وهو لا يحبّ ذلك، ويدير رأسه ليجعلني أتوقّف عن لمس عنقه بتلك الطّريقة فأتوقّف.

ما كان جو ليكترث، بمقدوري أن أحكّ أي موضع منه، وقد تركني أرسم بأصبع الشّفاه صوراً في مواضع لم تتح له رؤيتها إلاّ بعد جلب مرآة».

twitter @baghdad_library

أي شيء يحدث بعد انفضاض ذلك الحفل لا قيمة له. فكلّ شيء له أهمية يدور الآن. الأمر يشبه الحرب. الكلّ متأنّق، ومتألّق وهو مكتفٍ بالتفكير في دماء الآخرين. كأنّما الدّفق الأحمر المندفع من عروق ليست بعروقهم هو أداة تجميل للوجه رخصت بمقتضى براءة اختراع نظر لوهجها. تضفي تألقاً، وتبدو بديعة. وفي وقت لاحق ستدور ثرثرة قليلة واستعادة لما جرى، ورغم ذلك لن يكون هناك ما يشبه الحدث نفسه، والنّبض الّذي يضخّ القلب. في الحرب أو في الحفل، يبدو كلّ شخص مراوغاً، مخاتلاً، وتحدّد الأهداف، ويتمّ تغييرها، يعاد عقد التّحالفات، يتمّ القضاء على الرّفاق والخصوم، وينتصر المتحالفون الجدد. أصابت احتمالات الضّربة القاضية دوركاس بضربة قاضية لأنّه هاهنا ـ مع الكبار وكما في الحرب ـ يلعب النّاس للأبد.

إنّه آت للبحث عني، وعندما يجيء، سيدرك أنّني لم أعد امرأته. إنّني امرأة أكتون، وهو من أريد إسعاده. إنّه يتوقع ذلك. مع جو أسعد نفسي؛ لأنّه يشجعني على ذلك، مع جو كنت أدير صولجان العالم، والسّلطة في يدي.

* * *

أوه، القاعة ـ الموسيقى ـ النّاس يميلون في الأروقة. ظلال لا تبين تبادل أصحابها قبلة وراء ستائر. أصابع عابثة تتلمس وتداعب. ذلك هو المكان الّذي تتفجّر فيه الأشياء. هذه هي السّوق الّتي تعدّ فيها الإشارة كلّ شيء: لعقة لسان خاطفة، أظفر إبهام يخدش الخدين المنفصلين لخوخة أرجوانيّة. وكلّ حبيب مهجور ينتعل حذاء

مبتلاً مفكوك الرّباط ويرتدي سترة مزرّرة حتّى أعلاها تحت معطفه هو غريب هنا، فليس هذا بالمكان المناسب للكهول، إنّه مكان لقصّة الحبّ الموشاة بالخيال.

«لقد وصل. أوه. انظر! إنّه يبكي. يا إلهي! أتراني أتهاوى؟ لِمَ أتهاوى؟ أكتون يمسك بي ليبقيني واقفة، ولكنني أتهاوى على أي حال. تتلفت الرّؤوس. تتبيَّن الموضع الّذي أتهاوى فيه. حلّ الظّلام، والآن يسود الضّياء. إنّني ممدة على فراش. أحدهم يمسح العرق عن جبيني، لكنني أشعر بالبرد، برد شديد. أرى أفواهاً تتحرك، إنّهم جميعاً يقولون شيئاً لي. ليس بمقدوري سماعه. بعيداً هنالك، عند قدمي الفراش، أرى أكتون. الدّم يعلو سترته، ويعكف على مسحه بمنديل أبيض. الآن تنزع امرأة المعطف عن كتفيه. الدّم يثير ضيقه. إنّه دمي، فيما أحسب، وقد نفذ من سترته إلى قميصه. المضيفة تصيح. لقد أطيح بحفلها. يبدو أكتون غاضباً، تعيد المرأة السّترة، وهي ليست نظيفة على نحو ما كانت من قبل وعلى ما يجب أن تكون عليه.

بمقدوري سماعهم الآن.

من؟ من الّذي فعل هذا؟

إنّني متعبة. يغلبني النّعاس. ينبغي أن أظلّ مستيقظة. ينبغي أن أكون في غاية التّيقظ لأنّ شيئاً مهماً يحدث.

من الّذي فعل هذا يا فتاة؟! من الّذي فعل بك هذا؟

يريدون منى التّفوه باسمه، أن أنطقه علناً في نهاية المطاف.

نزع أكتون قميصه. النّاس يسدّون الرّواق، البعض يتطاول وراءهم

twitter @baghdad_library

ليرى ما يجري على نحو أفضل. غاب صوت الحاكي. شخص كانوا ينتظرونه يعزف على البيانو. امرأة تغنّي أيضاً. الموسيقى خافتة، ولكنّني أعرف الكلمات عن ظهر قلب.

تنحني فيليسيا مقتربة. يدها الّتي تمسك بيدي مطبقة بإحكام يفوق ما ينبغي. أحاول أن أقول لها أن تدنو أكثر. عيناها أكبر من غطاء المصباح في السّقف. تسألني عمّا إذا كان هو من فعل ذلك.

يحتاجون إلى أن أقول اسمه ليتمكنوا من مطاردته، ينزعوا صندوق عيناته، بما في داخله من منتجات روشيل وبرنادين وفاي. إنّني أعرف اسمه، لكن أمّي لن تشي به. تراقص العالم من عصا تحت رأسي. فيليسيا. هناك في تلك الغرفة ذات النّافذة الّتي تحمل إشارة الجليد.

تضع فيليسيا أذنها على شفتي. وأصرخ به لها. أحسب أنّني أصرخ به. أحسب أنّني أفعل ذلك.

النّاس يرحلون.

الآن بدت واضحة. إنّني أرى المائدة من خلال الرّواق. عليها طبق خشبي، بني، مسطح، خفيض، كأنّه صفحة، مليء حتّى التّساقط بثمار البرتقال. أريد أن أغفو. ولكنه جلي الآن، بالغ الجلاء الطّبق القاتم، كومة ثمار البرتقال. ثمار برتقال فقط. متأنقة. أصغ! لست أدري من هي تلك المرأة الّتي تغنّي، ولكنني أحفظ الكلمات عن ظهر قلب.

القريب من القلب. ذلك هو ما كان يوصف به الطّقس. الطّقس القريب من القلب. أجمل يوم في العام. وذلك هو الوقت الّذي بدأ الأمر فيه. في يوم بالغ النّقاء والبعد عن التّقلب حتّى إنَّ الأشجار اختالت متباهية بجمالها. انتصبت وسط كتلة من الاسمنت، خائفة على حياتها، وراحت تختال متباهية بجمالها، أمر سخيف. نعم. ولكنه كان ذلك النّوع من الأيام. كان بمقدوري أن أرى شارع لينوكس يترامى موسعاً نفسه، والرّجال يخرجون من حوانيتهم ليتأملوه، ليقفوا وقد وضعوا أيديهم تحت ميدعاتهم أو دسوها في جيوبهم الخلفيّة، ويكتفون بالتّطلع حولهم إلى شارع يترامى موسعاً نفسه ليتسع للنهار. توقّف قدامى المحاربين المعوقون وقد جمعوا في ملابسهم بين الزّي العسكري والزّي المدني مناصفة، متطلعين، وقد علتهم الكآبة، إلى العاملين. لقد مضوا إلى عربة «فاذر ديفاين»، وبعد أن تناولوا طعامهم لفّوا السّجائر واستقرّوا على حافة الرّصيف وكأنّها كانت «دنكان فايف». والنّسوة اللاّتي يسرن محدثات صوتاً منّغماً بأحذيتهنّ على الرّصيف كن في بعض الأحيان يدهسن صدوع الرّصيف، لأنهن كن ينظرن إلى الأشجار ليرين من أين ينهل ذلك الضّوء النّقي، النّاعم، وإن كان ثابتاً. كانت دمدمة الإم والام، بعيدة، نائية والپاكارد كذلك. وحتّى سيارات الفورد العالية هدأت، ولم يشعر أحد بالرّغبة في إطلاق نفيره، أو الاطلال من جانب السّائق لمحاولة إحراج شخص يقضي وقتاً أطول ممّا ينبغي لعبور الشّارع،

twitter @baghdad_library

فقد داعبتهم حلاوة اليوم وجعلتهم يصيحون: «أعطيك كلّ ما لديّ! هلمّي معي إلى الدّار!» موجهين صيحتهم إلى امرأة تدوس فوق الصّدوع بكعبين أسودين ملتمعين.

غيّر الشّبان على الأسطح اللّحن الّذي يعزفونه، بصقوا، وعبثوا بالجزء الّذي ينفخ فيه من الآلة الموسيقيّة لبعض الوقت، وعندما أعادوه إلى موضعه في إحكام ونفخوا أشداقهم، بدا الأمر تماماً كضياء ذلك النّهار النّقي والثّابت سواء بسواء. وكان حرياً بك أن تظنّ أنّه تمّ اغتفار كلّ شيء من الطّريقة الّتي راحوا يعزفون بها. واجهت آلات الكلارنيت المتاعب لأنّ الآلات النّحاسيّة انطلقت على نحو حار للغاية، ليس على نحو خفيض مثلما يحبّون أن تؤدّى، وإنّما على نحو مرتفع وحادّ، مثل فتاة صغيرة تغني إلى جوار خور، مزجية الوقت، وكاحلاها في الماء البارد. ربّما لم يقدّر للشبان الّذين راحوا يعزفون على آلات النّفخ النّحاسيّة أن يروا مثل هذه الفتاة أبداً، أو مثل هذا الخور، ولكنهم قلّدوها في ذلك اليوم. على الأسطح. بعضهم على سطح الدّار رقم ٢٥٤ حيث لا يوجد حاجز يكفل الحماية، وآخر من سطح الدّار رقم ١٣١ الّتي يعلوها خزان للماء في لون التّفاح الأخضر، وأحدهم على الدّار المجاورة مباشرة، وتحمل رقم ١٣٣ ويُحتفظ فيها بعلب لحم الخنزير المضاف إليه الطّماطم، وحشية للنوم ليلاً، بحثاً عن النّسيم البارد وكوسيلة لتجنب البعوض الّذي يعجز عن التّحليق إلى ذلك الارتفاع، أو الّذي لا يرغب في ترك لحم الرّقبة الرّقيق قرب مصابيح الشّارع. وهكذا فإنّه من شارع لينوكس إلى سانت نيكولاس وعبر الشّارع المائة والخامس والثّلاثين، لكسنجتون، ومن كونفنت إلى الشّارع الثّامن كان

بمقدوري سماع الرّجال وهم يستلون قلوب أشجار القيقب السّكريّة بالعزف مستلينها من أشجار عمرها أربعمائة عام، وتاركينها تنطلق هابطة الجذع، ومهدرينها لأنّهم ليس لديهم دلو للإمساك به فيه ولم يريدوا ذلك أيضاً. وكلّ ما أرادوه هو أن يدعوه ينطلق في ذلك اليوم، على مهل إذا أراد، أو مسرعاً، ولكنه حرّ في الانطلاق متحدراً في الأشجار، وتواقاً لتسليم نفسه.

على ذلك النّحو بدا الشّبان العاكفون على العزف على آلات النّفخ النّحاسيّة في ذلك اليوم، واثقين من أنفسهم، واثقين من أنّهم مقدسون، واقفين هناك على الأسطح، مواجهين بعضهم بعضاً في البداية، ولكن عندما بدا جلياً أنّهم قد تغلبوا على آلات الكلارنيت، أداروا ظهورهم لها، ورفعوا تلك الأبواق عالياً، وانداحوا في الضّياء على القدر نفسه من النّقاء والثّبات سواء بسواء.

لم يكن باليوم الّذي تحطّم فيه حياة تناثرت بالفعل مثل زجاج نافذة رخيص. ولكن فيوليت، طيّب، يتعين عليك أن تعرفها. ظنت أن كلّ ما عليها القيام به هو احتساء أقداح الملت المليئة بعقار دكتور ديز نيرف وفليش بيلدر، والتهام لحم الخنزير وعندئذٍ ستكتسب من الوزن ما يملأ مؤخرة ثوبها. كانت ترتدي عادة معطفاً في الأيام الدّافئة كهذا اليوم، لمنع الرّجال الجالسين على الرّصيف من هزّ رؤوسهم إشفاقاً عندما تمرّ بهم. ولكن في هذا اليوم، هذا اليوم اللّطيف، الجميل، لم تكترث بمؤخرتها المفقودة، لأنّها خرجت من الباب ووقفت في المدخل المسقوف، وقد لفّت يديها على مرفقيها وتدلّى جوربها عند كاحليها. كانت تصغي للموسيقى الّتي تتخلل

twitter @baghdad_library

نوبات نشيج جو، الّتي غدت أكثر هدوءاً الآن، ربّما لأنّها أعادت صورة دوركاس إلى أليس مانفريد. ولكنّ الفراغ الّذي وجد، حيث كانت الصّورة، كان فراغاً حقيقيّاً. ربّما كان ذلك هو السّبب في أنّها خلال وقوفها في المدخل المسقوف، دون أن تكترث بعجيزتها، اعتقدت في يسر أنّ الّذي كان يرقى الدّرج نحوها كان دوركاس أخرى حقيقيّة كالحياة، بكلّ ما فيها بما في ذلك جدائلها الأربع.

كانت تحمل حاكياً من طراز «أوكيه» تحت ذراعها، ونصف رطل من لحم اليخنة ملفوفاً في ورق أحمر وردي مما يستخدمه الجزارون في يدها، على الرّغم من أنّ الشّمس كانت أكثر اتّقاداً من أن يمضي المرء تحتها على مهل حاملاً اللّحم. ولئن لم تسرع فإنّه سيتحول ـ سيطهو نفسه، قبل أن تستطيع الوصول به إلى الموقد.

فتاة كسول. ذراعاها مليئتان، ولكن ليس في رأسها الكثير. إنّها تثير أعصابي.

تجعلني أتساءل عمّا إذا كان هذا الطّقس البديع سيدوم أكثر من يوم. وقد أثار قلقي بالفعل الرّماد المتساقط من الزّرقة النّائية على هذه الشّوارع. وثمّة طبقة متسخة تتجمع على قواعد النّوافذ، تكسو زجاجها. إنّها الآن تثير قلقي، وتجعلني أشكّ في نفسي لمجرد النّظر إليها وهي تمشي الهوينى عبر خيوط الضّوء على ذلك النّحو. إنّها ترقى الدّرج الآن متجهة إلى فيوليت.

«أقام أمّي وأبي بدورهما في توكسيدو. ولم أرهما قطّ على وجه التّقريب، فقد عشت مع جدتي الّتي قالت: «فيليسيا، إنّهما لا يقطنان توكسيدو، وإنّما يعملان هناك، ويعيشان معنا». مجرّد كلمات:

يعيشان، يعملان، لسوف أراهما مرّة كلّ ثلاثة أسابيع لمدّة يومين ونصف اليوم، وطوال يوم عيد الميلاد، وطوال يوم عيد الفصح. لقد أحصيتها. اثنان وأربعون يوماً، إذا حسبت أنصاف الأيام ـ وهو ما لا أفعله لأنّ معظمها كان يضيع في حزم الحقائب والوصول إلى القطار ـ بالإضافة إلى إجازتين، وهذا يجعل الحاصل أربعة وأربعين يوماً، ولكنها في حقيقة الأمر أربعة وثلاثون يوماً؛ لأنّ أنصاف الأيام لا ينبغي أن تحسب.

عندما يجيئان إلى الدّار، يقبلانني، ويعطيانني أشياء، مثل خاتمي الأوبال، ولكن ما كانا يريدان القيام به حقاً كان الخروج للرقص في مكان ما (بالنّسبة لأمّي) أو الرّقاد (بالنّسبة لأبي). وكانا يمضيان إلى الكنيسة يوم الأحد، ولكنّ أمّي ماتزال حزينة على ذلك لأنّ كلّ الأمور الّتي ينبغي أن تقوم بها في الكنيسة ـ وجبات العشاء، الاجتماعات، إصلاح القبو لحفلات مدرسة الأحد وحفلات الاستقبال بعد الجنازات ـ قد اضطرت للاعتذار عن عدم القيام بها بسبب عملها في توكسيدو. وهكذا فقد أرادت أكثر من أي آخر تلقّي النّميمة من عضوات جمعية «سيركل إيه» على ما كان يحدث، وأرادت أن ترقص قليلاً وأن تزايد عليهن.

كان أبي يفضّل البقاء مرتدياً رداء الحمام، وتتم خدمته، على سبيل التّغيير في حياته، بينما هو يقرأ حزماً من الصّحف كنت وجدتي ندخرها له، وهي صحف: أمستردام، إيج، كرايزس، ميسنجر، وركر. كان يحمل معه بعضها في طريق عودته إلى توكسيدو، لأنّه لم يستطيع الحصول عليها هناك. وكان يحب أن

twitter @baghdad_library

تطوى بشكل سليم إذا كانت صحفاً، وألاَّ يكون هناك طعام أو بصمات على المجلات، ولذا لم أكن أقرأها كثيراً، أمّا جدتي فتقرأها، وهي حريصة أشدّ الحرص حتّى لا تتجعد أو تتسخ، فما من شيء يثير حفيظته أكثر من أن يفتح جريدة طويت بشكل سيّئ، ويروح يئن ويشكو بينما هو يقرأ، ويضحك بين الفينة والأخرى، ولكنه لا يتخلى عنها قطّ على الرّغم من أنّ كل تلك القراءة تؤدّي إلى اعتكار دمه كما كانت جدتي تقول. أمّا الجانب الطيب بالنّسبة له فهو قراءة كلّ شيء والمناقشة حول ما قرأ ـ مع أمّي وجدتي والأصدقاء الّذين يلعبون الورق معهم.

وقد حدّثت نفسي يوماً بأنّني إذا قرأت الصّحف الّتي احتفظنا له بها فسوف يكون بمقدوري مناقشته، ولكنّني اخترت اختياراً خاطئاً، فقد قرأت عن رجال الشّرطة الّذين ألقي القبض عليهم لقيامهم بقتل بعض الزّنوج، وقلت إنّني سعيدة لإلقاء القبض عليهم وأنّ الأوان حان لمثل هذا الإجراء.

تطلّع إليّ، وصاح: لقد شقّ الموضوع طريقه إلى الصّحيفة لأنّه كان خبراً، يا فتاة، كان خبراً.

لم أدر كيف أردّ عليه، وشرعت في البكاء، ولذا قالت جدتي: امض، يا بني إلى مكان ما، واجلس هناك! وقالت أمّي: والتر، اقفل فمك حول كلّ ذلك بالنّسبة لها.

أوضحت لي ما عناه: إنّه بالنسبة لحوادث القتل اليوميّة الّتي يتعرض لها الزّنوج على يد الشرطة، لا يلقى القبض فيها على أحد على الإطلاق. وبعد ذلك اصطحبتني لتسوّق بعض الأشياء الّتي أرادها من

تعمل لديهم في توكسيدو، ولم أسألها عن السرّ في أنّها تقوم بالتّسوق لهم في أيام إجازتها، لأنّها عندئذٍ ما كانت لتصحبني إلى متجر تيفاني في الشّارع السّابع والثّلاثين حيث يسود هدوء أكثر عمقاً من ذلك الّذي يسود عندما يدعو القسّ إلى التزام الصّمت لمدّة دقيقة حداداً على أحدهم. فعندما يحدث ذلك يمكنني سماع صوت احتكاك الأقدام بالأرض وصوت النّاس وهم يتمخطون. ولكنّ أحداً لا يتمخط في متجر تيفاني، وتكتم السّجادة أي وقع للأقدام من أي نوع، مثل توكسيدو.

منذ سنوات، عندما كنت صغيرة، وقبل التحاقي بالمدرسة، كان أبواي يصحبانني إلى هناك، وكان عليَّ التزام الهدوء طوال الوقت. وقد صحباني مرتين ومكثت الأسابيع الثّلاثة بكاملها. ومع ذلك فقد توقّف هذا. وتحدّث أبي وأمّي عن ترك عملهما، ولكنّهما لم ينفّذا ذلك. ودفعا جدّتي لأمّي إلى الانتقال للدار ورعايتي.

أربعة وثلاثون يوماً. إنّني في السّابعة عشرة من عمري الآن، ويصل الإجمالي إلى ستمائة يوم، أي أقل من عامين من إجمالي سبعة عشر عاماً. قالت دوركاس إنّني محظوظة، فهما على الأقلّ موجودان، في مكان ما، وإذا مرضت فإنَّ بمقدوري أن أتصل بهما واستقلّ القطار وأحضر لرؤيتهما. وكان والداها كلاهما قد لقيا حتفهما على نحو بالغ السّوء، ورأتهما بعد موتهما، وقبل أن يُعدّهما العاملون في الجنازة. ولديها صورة لهما وهما جالسان تحت شجرة نخيل مطلية الجذع. كانت أمّها تقف ويدها على كتف أبيها الّذي كان جالساً وممسكاً بكتاب. لاحا لي حزينين، لكن دوركاس لم تستطع تجاوز كم كانا كلاهما مهندمين.

twitter @baghdad_library

كانت تتحدّث على الدّوام عمن كان مرتب الهندام ومن لم يكن كذلك، من كانت رائحة فمه كريهة، ومن كان يرتدي ملابس أنيقة، ومن يستطيع الرّقص، ومن كان مريب المظهر.

تشكّكت جدتي في كوننا صديقتين حقاً. ولم تقل ما السّرّ في ذلك، ولكنّني عرفت بشكل من الأشكال. لم تكن لي صديقات كثيرات. كانت البنات في المدرسة، خلافاً للأولاد، يتجمعن في مجموعات بحسب اللّون. وقد كرهت ذلك، كما كرهته دوركاس. وهكذافقد كنا، أنا وهي، مختلفتين بتلك الطّريقة. وعندما كان شخص سليط اللسان يهتف «أنت، أيتها الذّبابة، أين مخيض اللّبن؟» أو «أنت، يا غريبة الأطوار، أين شبيهاتك؟» كنا نخرج لهم لسانينا ونضع أصابعنا في أنفينا لنخرسهم. ولكن إذا لم يجد ذلك نفعاً بادرنا بالهجوم. وقد أتلف بعض هذه المشاجرات ملابسي ونظارات دوركاس، ولكن كان الشّجار في فريق واحد مع دوركاس في مواجهة أولئك الفتيات شيئاً يخلف في النّفس شعوراً طيباً. ولم يقدّر لها أن تعرف الخوف قطّ، وأمضينا معاً خير الأوقات، في كلّ مدرسة ذهبنا إليها، وفي كلّ يوم درسنا فيه.

لكنها توقفت. الأوقات الحلوة، لمدّة شهرين، عندما شرعت في لقاء ذلك العجوز. وقد علمت بالأمر منذ البداية، ولكنها لم تعرف بأنّني أعلم به. وقد تركتها تعتقد أنّ الأمر سرّ، لأنّها أرادته أن يكون سراً. ظننت في البداية أنّها تشعر بالخجل من الأمر، أو بالخجل من العجوز، وأنّها تورطت فيه من أجل الهدايا فحسب، لكنها كانت تحبّ الأسرار، التّخطيط، والتآمر على كيفية خداع السّيدة مانفريد. ارتداء ملابس داخلية مغوية للرجال في داري والخروج بها. إخفاء

الأشياء. لقد أحبّت الأسرار على الدّوام، ولم تكن تشعر بالخجل منه كذلك.

إنّه عجوز. عجوز حقاً. في الخمسين من عمره. ولكنه توافق مع تصورها للمظهر المهندم، لسوف أسلّم له بذلك. كان ينبغي لدوركاس أن تكون أجمل ممّا هي عليه. ولكنها لم توفق فحسب، كانت تحظى بكلّ مقومات الجمال أيضاً، الشّعر الطّويل المتموج، نصفه جيّد والنّصف الآخر سيّئ، بشرة فاتحة، لم تستخدم مبيّض البشرة قطّ، قوام بديع. ولكنها لم توفق، ولو أنّك تأملت كلّ شيء لأعجبت بذلك الشيء، الشّعر، اللّون، القوام. غير أنّها جميعها لم تتلاءم معاً. كان الفتية يتطلعون إليها، يصفّرون، ويهتفون بما ابتدعته قرائحهم، عندما نسير معاً في الشّارع. وفي المدرسة كان كلّ فئات الفتية يرغبون في محادثتها، ثمّ كانوا يتوقفون، ولا يفضي الأمر إلى شيء. لا يمكن أن يكون ذلك راجعاً إلى شخصيتها، لأنّها كانت متحدثة لبقة، تحبّ النّكتة والمداعبة، وما من شيء متصلب في مظهرها. لست أدري قوام الأمر، ما لم يكن متمثلاً في الطّريقة الّتي تردهم بها. أعني أنّ الأمر بدا وكأنّها أرادت طوال الوقت أن يأتوا شيئاً منكراً. سرقة الأشياء، أو العودة إلى المتجر وصفع البائعة البيضاء الّتي رفضت أن تقدّم لها ما تريده أو لعن شخص كان قد وبّخها. كان كلّ شيء بالنّسبة لها شبيهاً بفيلم، وكانت هي البطلة الممددة على شريط السّكك الحديديّة، أو الّتي احتجزت في خيمة شبّت فيها النّار.

أحسب أنّ ذلك هو ما جعلها تحبّ ذلك العجوز كثيراً في البداية. السّريّة وكونه متزوجاً، لابدّ أنّه قام بشيء خطير عندما قابلته لأوّل

twitter @baghdad_library

مرّة، وإلاّ لما مضت متسلّلة معه خفيّة. على أيّة حال ظنّت أنّها تتسلّل خفية. ولكن اثنتين من مصفّفات الشّعر لمحتاها في ذلك الملهى اللّيلي، مكسيكو، معه، وقد أمضيت ساعتين هنالك في صالونهما أصغي لما لديهما لطرحه عنها وعنه وكلّ فئات النّاس الّذين يغادرون الصّالون، واستخفهما الطّرب للحديث عن دوركاس وعنه في المقام الأوّل لأنّهما لم تحبّا زوجته؛ فقد كانت تنافسهما في عملهما، ولذا لم يكن لديهما خير تذكرانها به، باستثناء القول إنّه في ضوء جنونها فإنّها كانت تصفّف الشّعر جيداً، ولو لم تكن مجنونة لحصلت على ترخيص رسمي للعمل، بدلاً من انتزاع الزّبونات خلسة.

إنّهما مخطئتان، فقد ذهبت إليها بحثاً عن خاتمي، ولم يكن هناك ما يشير إلى جنونها على الإطلاق.

أعرف أنّ أمّي قد سرقت ذلك الخاتم. قالت إنّ سيدتها منحتها إياه، ولكنني أتذكّره في متجر تيفاني في ذلك اليوم. خاتم فضي ذو حجر أسود ناعم يسمّى بالأوبال. مضت البائعة لجلب اللّفافة الّتي جاءت أمّي لجلبها، واطلعت البائعة على رقعة كتبتها سيدتها ليعطوا لها اللّفافة (بل لو أظهرتها عند الباب لسمحوا لها بالدّخول) وبينما مضت البائعة لطيتها رحنا نتطلع إلى صحفة الخواتم ذات الأرضيّة القطيفيّة. التقطنا بعض الخواتم وحاولنا تجربتها على أصابعنا. ولكنّ رجلاً يرتدي حلّة أنيقة أقبل وهزّ رأسه، هزّة خفيفة للغاية. قالت أمّي: «إنّني أنتظر لفافة مرسلة إلى السيدة نكلسون».

عندئذٍ ابتسم الرّجل وقال: «بالطّبع، إنّها مجرّد سياسة، نتبعها،

فعلينا التزام الحرص». وعندما غادرنا المتجر قالت أمّي: «الحرص ممّ؟ ما الّذي لديه ليحرص عليه؟ إنّهم يقدّمون الصّحفة ليتمكن النّاس من النّظر إلى الأشياء. أليس كذلك؟ إذن فعلام يحرص؟».

تجهمت، وقالت وعادت إلى ما قالته مجدداً، وانتظرنا وقتاً طويلاً لنستقلّ سيارة أجرة إلى الدّار، وتحدّت أبي أن يطرح شيئاً في معرض الاحتجاج على ذلك. وفي الصّباح التالي حزمت أمتعتها واستعدّت لتستقلّ القطار عائدة إلى محطّة توكسيدو. نادتني، وأعطتني الخاتم الّذي قالت إنّها تلقّته من سيّدتها. ربّما كانوا يصنعون الكثير من هذه النّوعية من الخواتم، ولكنني أعرف أنّ أمّي قد اختلسته من الصّحفة القطيفيّة، على الرّغم من إرادتها، فيما أحسب، ولكنها أعطتني إياه، وأنا أحبّه، ولم أقرضه لدوركاس، إلاّ أنّها توسلت للحصول عليه قليلاً بإلحاف شديد للغاية، ولأنّ فضته تتماشى مع الأساور الفضيّة الّتي تزين بها مرفقها.

أرادت أن تترك أثراً طيباً في نفس أكتون، وهي مهمّة عسيرة، لأنّه درج على انتقاد كلّ شيء. لم يقدّم لها الهدايا قطّ على نحو ما كان العجوز يفعل. وأنا أعرف أنّها حصلت على هدايا منه، لأنّ السّيدة مانفريد من شأنها أن تلقى حتفها قبل أن تشتري لدوركاس ملابس داخلية زلقة أو جوارب حريريّة، وهي أشياء لم تكن تستطيع أن ترتديها في الدّار أو تمضي بها إلى الكنيسة.

بعد أن توثقت الصّلة بين دوركاس وأكتون كانت إحدانا تقابل الأخرى على نحو ما كنا في السّابق، ولكنها كانت مختلفة، كانت تفعل لأكتون ما قام به العجوز لها، فتقدّم له هدايا صغيرة ابتاعتها

twitter @baghdad_library

بالمال الّذي حصلت عليه من العجوز ومن السّيدة مانفريد. ولم يعتد أحد رؤيتها وهي تبحث عن العمل، ولكنها عملت بجدّ لتدبير النّقود الّتي تقدّم بها هدايا لأكتون، أشياء لم يحبّها على أية حال لأنّها رخيصة، ولم يضع ذلك الدّبوس القبيح قطّ أو المنديل الحريري كذلك بسبب اللّون. أظنّ أنّ العجوز قد علّمها كيف تكون لطيفة، وقد أهدرت ما تعلمته على أكتون، الّذي اعتبر ذلك شيئاً مسلماً به، واعتبرها هي أمراً مسلّماً به، وكذلك حال أي فتاة أحبته.

لست أدري ما إذا كانت قد هجرت العجوز أم استمرّت في لقائه في الوقت الّذي تلاقي فيه أكتون. وتقول جدتي إنّها جلبت الأمر على نفسها. قالت: عش الحياة، وادفع الثّمن!

يتعين عليّ العودة للدار. وإذا ما جلست هنا أكثر ممّا ينبغي فإنّ رجلاً ما سيحسب أنّني أبحث عن وقت ممتع. لا بقاء أكثر من ذلك، كلّ ما أريده، بعد ما حدث لدوركاس، أن أستعيد خاتمي. استعيده وأوضح لأمّي أنّه مازال لديّ، فهي تسألني عنه بين الفينة والأخرى. وهي مريضة ولم تعد تعمل في توكسيدو، أمّا أبي فيعمل في البولمان، وهو أسعد من أي وقت مضى رأيته فيه. وهو مايزال يحتج ويرد معترضاً عندما يقرأ الصّحف والمجلّات، ولكنه يحصل عليها أولاً وبطيتها الحديثة، وحججه لم تعد عالية الصّوت، ويقول: لقد فهمت العالم الآن.

وهو يقصد توكسيدو ومحطّات القطار في بنسلفانيا وأوهايو وأنديانا وألينوي. ويقول: وجميع فئات البيض الموجودة. هناك نوعان. من يتعاطفون معك، ومن لا يتعاطفون. وكلاهما يصلان إلى النّتيجة نفسها، ففيما بينهما لا وجود للاحترام.

إنّه مايزال مجادلاً كالعهد به، لكنه أكثر سعادة، لأنّه إذ يركب القطارات يرى الزّنوج وهم يلعبون البيسبول «بشحمهم ولحمهم. اللّعنة». ويزدهيه فرحاً أنّ البيض يخشون التّنافس مع الزّنوج على قدم المساواة.

جدتي الآن أثقل في حركتها من ذي قبل، وأمّي مريضة، ولذا فإنّني أقوم بمعظم أعمال الطّهي. وتريدني أمّي أن أجد لنفسي رجلاً طيباً أتزوجه. وأريد العثور على وظيفة جيدة أولاً، وأن أدخّر لنفسي مالاً خاصّاً بي، على نحو ما فعلته هي، وعلى نحو ما فعلته السّيدة تريسي، وعلى نحو ما اعتادت السّيدة مانفريد أن تفعله قبل أن تسلم دوركاس نفسها للموت.

توقفت هناك؛ لأتبين ما إذا كان خاتمي عنده، لأنّ أمّي تواصل سؤالي عنه، ولأنّني لم أستطع العثور عليه عندما بحثت في دار السّيدة مانفريد بعد الجنازة. ولكنّني كان لديّ سبب آخر كذلك، فقد قالت مصفّفة الشّعر إنّ العجوز قد انهار تماماً، وأنّه عاكف على البكاء طوال اللّيل والنّهار، وقد ترك عمله، ولم يعد صالحاً لأي شيء. وأحسب أنّه يفقد دوركاس، ويفكّر في أنّه قاتلها. ولكن لابدّ أنّه لم يعرف حقيقتها، وكيف تحبّ أن تدفع النّاس دفعاً، الرّجال، جميعهم باستثناء أكتون، ولكنها كان حرياً بها أن تدفعه كذلك لو أنّها عاشت ما يكفي، أو لو أنّه بقي لها وقت كافٍ لذلك، وذلك لمجرّد لفت الانتباه والإثارة. لقد كنت هناك في الحفل، وتحدّثت معي على فراش موتها.

فكّرت في الأمر على امتداد ثلاثة أشهر، وعندما سمعت بأنّه

twitter @baghdad_library

مايزال على حاله، عاكفاً على البكاء وما إلى ذلك، حسمت رأيي وقرّرت أن أحدّثه بحقيقتها، وعمّا قالته لي. وهكذا توقّفت في طريق عودتي للدار من السّوق عند متجر فلتون للحصول على الأسطوانات الّتي أرادتها أمّي. سرت بجوار المبنى الواقع في شارع لينوكس حيث اعتادت دوركاس لقاءه، وهنالك في المدخل المسقوف كانت تلك المرأة الّتي يطلقون عليها فيولنت بسبب ما يقولون إنّها اقترفته في جنازة دوركاس.

لم أذهب إلى الجنازة، فقد رأيتها تموت كالحمقاء، وكنت أشدّ غضباً من أن أحضر جنازتها، ولم أذهب لإلقاء نظرة الوداع عليها أيضاً؛ فقد كرهتها عقب ذلك، وأي شخص كان لابدّ أن يكرهها. وما أغرب الصّديقة الّتي تكشفت عنها!

كان كلّ ما أردته هو خاتمي، وأن أحدّث العجوز بأنّ بمقدوره التوقّف عن مواصلة ما يقوم به على هذا النّحو. ولم أخش زوجته؛ لأنّ السّيدة مانفريد سمحت لها بأن تزورها، وبدا أنّهما لم تصطدما، وكنت أعرف مدى صرامة السّيدة مانفريد، وكلّ النّاس الّذين قالت إنّها لن تسمح لهم أبداً بدخول بيتها، وأنّ دوركاس لا ينبغي أن تحادثهم أبداً. وتصوّرت أنّه إذا كانت فيولنت مناسبة بحيث تسمح لها بدخول بيتها فإنّها مناسبة كذلك لي بحيث لا أخشى منها شيئاً.

وبمقدوري أن أدرك السّرّ في أنّ السّيّدة مانفريد سمحت لها بزيارتها؛ فهي لا تكذب، أعني السّيدة تريسي. وما من شيء تقوله ينتمي إلى الكذب على نحو ما ينتمي في حالة معظم كبار السّن. وكان أوّل شيء على وجه التّقريب قالته عن دوركاس هو: «كانت قبيحة، في أعماقها وخاطرها».

كانت دوركاس صديقتي، ولكنّني كنت أعرف أنّها على نحو من الأنحاء قد أصابت كبد الحقيقة بهذا القول. فكلّ مكونات الجمال تلك توافرت لدوركاس ولكن الوصفة لم تؤت فعلها. حدّثت نفسي بأنّ السّيدة تريسي كانت تغار فحسب، فهي نفسها قاتمة اللّون للغاية، كماسح الأحذية، حسبما كان حرياً بالفتيات في المدرسة أن يقلن. ولم أتوقّع أن تكون جميلة، ولكنها كانت كذلك بالفعل، ولن تملّ النّظر إلى محياها. إنّها ما يمكن أن تقول عنه جدّتي عظمة معروقة، وتطلق شعرها مشدوداً ومسطّحاً، وممشّطاً إلى الخلف، كأنّه شعر رجل، غير أنّ هذه التّسريحة هي الرّائجة الآن. مقصوص على نحو جميل فوق أذنيها وعند مفرق الشّعر أيضاً. أحسب أنّ زوجها هو الّذي قام بفرق شعرها لها. ومن غيره؟ إنّها لا تضع قدمها في صالون تجميل، أو هكذا تقول مصفّفات الشّعر. وبمقدوري تصوّره وهو يقصّ لها طرف شعرها عند العنق، مدرمات الأظافر، وربّما موسى، ثمّ الذّرور بعد ذلك. إنّه من ذلك النّوع من الرّجال، وبشكل من الأشكال عرفت ما الّذي كانت دوركاس تتحدّث عنه، بينما كانت تنزف ملوثة سرير تلك المرأة في الحفل بأسره.

كانت دوركاس حمقاء، ولكنّني عندما التقيت بالعجوز فهمت جلية الأمر بشكل من الأشكال. فله أسلوبه الّذي يميّزه، وهو أنيق، بالمقارنة مع من في مثل سنّه، أقصد أنّه ليس مترهلاً، ورأسه البديع يرتفع كهامة رجل له مكانته، شأن أبي عندما يعرب عن اعتزازه بأنّه أحد العاملين في قطارات البولمان وقد أتيح له أن يرى الدّنيا ومباريات البيسبول ولا يتجمد في محطّة توكسيدو. ولكن عينيه ليستا باردتين

twitter @baghdad_library

كعيني أبي. يتطلّع إليك السّيّد تريسي، فيبدو ازدواج لوني عينيه، فكلّ عين لها لون مختلف. عين حزينة تدعك تنظر في أعماقها، وأخرى صافية تنظر في أعماقك. وإنّي لأحبّ منظره، عندما يتطلّع إليّ؟ أحسّ، لست أدري، بأنّني مثيرة للاهتمام. يتطلّع إليّ، فيساورني الشّعور بالعمق، كأنّما الأمور الّتي أحسّ بها، وأفكّر فيها هي أمور مهمّة ومختلفة و. تثير الاهتمام.

أعتقد أنّه يحبّ النّساء، ولست أعرف أحداً على هذه الشّاكلة. لست أقصد أنّه يغازلهن، وإنّما أقصد أنّه يحبهن دون ذلك الجانب، وعلى الرّغم من أن قولي هذا من شأنه أن يضايق مصفّفات الشّعر، إلاَّ أنّني أعتقد حقاً أنّه يحبّ زوجته.

عندما مضيت إلى هناك لأوّل مرّة، كان جالساً إلى جوار النّافذة يحدّق إلى أسفل نحو الزّقاق، دون أن يتفوه بكلمة. وفي وقت لاحق، جلبت له السّيّدة تريسي طبقاً مليئاً بطعام ممّا يتناوله كبار السنّ: خضر بالأرز وفي القمّة خبز ذرة. قال: «شكراً، يا عزيزتي، خذي لنفسك نصفه!» كان هناك شيء ملحوظ في الطّريقة الّتي قالها بها، كأنّما يقدّر الطّعام حقّ قدره. عندما يقول أبي شكراً فإنّها لا تعدو أن تكون كلمة، أمّا السيّد تريسي فقد تصرّف كأنّما قصد ما قاله، وعندما يغادر الغرفة، ويمرّ بزوجته فإنّه يمسّها، في بعض الأحيان على رأسها، وفي أحيان أخرى مجرّد تربيته على الكتف.

لقد رأيته يبتسم مرتين حتّى الآن ويضحك عالياً مرّة واحدة، وعندئذٍ ما من أحد يعرف مدى تقدّمة في العمر. وهو يغدو كالطّفل

حين يضحك، ولكنّني زرتهما ثلاث مرّات أو أربع، قبل أن ألمح ابتسامته، وكان ذلك عندما قلت إنّ الحيوانات في حديقة الحيوان كانت أكثر سعادة عندما تركت حرّة؛ لأنّها كانت آمنة من الصّيادين. ولم يعقِّب، وإنّما ابتسم فحسب، وكأنّ ما قلته كان شيئاً جديداً، أو طريفاً حقاً.

وذلك هو السّبب في أنّني ذهبت إليهما ثانية. كانت المرّة الأولى لأتبيَّن ما إذا كان خاتمي عنده، أو ما إذا كان يعرف موضعه، ولأحدّثه بأنّ عليه التّوقف عن مواصلة حزنه على دوركاس، ربّما لأنّها ليست جديرة به. وفي المرّة الثّانية، عندما دعتني السّيدة تريسي لتناول طعام العشاء، كان الذّهاب إلى هناك راجعاً بصورة أكبر إلى الرّغبة في مشاهدة ما هو عليه والإصغاء للسيدة تريسي وهي تتحدّث بطريقتها الخاصّة، وهي طريقة توقعها دائماً في المتاعب.

قالت لي: لقد قلبت حياتي رأساً على عقب. قبل مجيئي إلى الشّمال، كان لي معناي وكذلك الدّنيا. لم يكن لدينا شيء، ولكنّنا لم نخفق.

منذا الّذي سمع بذلك قطّ؟ كانت الإقامة في المدينة أفضل شيء في الدّنيا. ما الّذي تستطيعين القيام به في الريف؟ عندما زرت توكسيدو، خلال طفولتي، شعرت بالضّجر حتّى في ذلك الوقت. كم شجرة تستطيعين النّظر إليها؟ ذلك هو ما قلته لها: «كم شجرة تستطيعين النّظر إليها؟ ولكم من الوقت ولذا ما قيمة هذا كله؟»

قالت إنّ الأمر ليس على تلك الشّاكلة، التّطلع إلى مجموعة من الأشجار. قالت لي إنّ عليّ الذّهاب إلى الشّارع المائة والثّالث

twitter @baghdad_library

والأربعين، والتطلع إلى الشّجرة الكبيرة عند المنعطف، وأنّ أتبين ما إذا كانت رجلاً أو امرأة أو طفلاً.

ضحكت، ولكنّني قبل أن أستطيع موافقة مصفّفات الشّعر على أنّها مجنونة، قالت:

ـ ما جدوى العالم إذا لم يكن بمقدورك أن تشكّليه على نحو ما تريدينه أن يكون؟

ـ على نحو ما أريده أن يكون؟

ـ نعم، على نحو ما تريدينه أن يكون. ألا تريدينه أن يكون شيئاً أكثر ممّا هو عليه؟

ـ ما جدوى ذلك؟ ليس بمقدوري تغييره.

ـ ذلك هو جوهر الأمر، فإنّكِ إذا لم تغيّريه فسوف يغيّرك، وستكون تلك غلطتك، لأنّك تركته يغيّرك. وقد تركته يغيّرني، وقلبت حياتي رأساً على عقب.

ـ كيف قلبتها رأساً على عقب؟

ـ نسيتها.

ـ نسيتها؟

ـ نسيت أنها حياتي. حياتي. وكلّ ما فعلته هو الرّكض جيئة وذهاباً في الشّوارع متمنية أن أكون مخلوقة أخرى.

ـ من؟ من تريدين أن تكونيه؟

ـ ليس من بقدر ما هو ماذا. بيضاء، رشيقة، شابّة من جديد.

ـ والآن لا تريدين ذلك؟

ـ الآن أريد أن أكون المرأة الّتي لم تبق أمّي على وجه الدّنيا بما

يكفي كي تراها. تلك المرأة. المرأة الّتي كان حرياً بها أن تحبّها، والمرأة الّتي درجت على حبّها في الماضي. لقد غذّتني جدتي بالقصص الّتي تدور حول طفل أشقر. كان صبياً، لكنّني في بعض الأحيان أفكّر فيه باعتباره فتاة، باعتباره أخاً، وفي بعض الأحيان باعتباره صديقاً. لقد عاش في ذهني، هادئاً كالخلد. ولكنّني لم أعرف ذلك إلى أن جئت إلى هنا. كلانا. اضطررنا إلى التّخلص منه.

راحت تتحدّث على ذلك النّحو. ولكنّني فهمت ما قصدته. عن وجود ذات أخرى لك في أعماقك لا تشبهك في شيء. كنت قد اعتدت ودوركاس أن نصطنع مشاهد غراميّة، وأن تصفها كلّ منّا للأخرى. كان ذلك طريفاً، وبذيئاً إلى حدّ ما، وثمّة شيء في هذا الأمر أثار ضيقي مع ذلك، ليس الجانب المتعلق بالغرام، ولكن الصّورة الّتي كونتها عن نفسي عندما فعلت ذلك. لا شيء فيها يشبهني. رأيت نفسي مثل شخص كنت قد رأيته في فيلم أو مجلّة. عندئذٍ يمضي الأمر على ما يرام. أمّا إذا تصوّرت نفسي على ما أنا عليه فإنّ الأمر كان يبدو خاطئاً.

ـ كيف تخلصت منها؟

ـ قتلتُها، ثم قتلتُ الأنا الّتي قتلتْها.

ـ ومن الّذي بقي؟

ـ أنا.

لم أنبس بحرف. وشرعت في التّفكير في أنّه ربّما كانت مصفّفات الشّعر على حقّ مرّة أخرى؛ بسبب الطّريقة الّتي نظرت بها إليّ عندما قالت «أنا» وكأنّها أوّل من سمع بهذه الكلمة.

twitter @baghdad_library

عاد السّيد تريسي، عندئذٍ، وقال إنّه سيجلس في الخارج قليلاً. قالت: لا، يا جو، ابق معنا! إنّها لن تعض.

قصدتني بكلماتها الأخيرة، وشيئاً آخر لم أستطع إدراك كنهه. أومأ موافقاً، وجلس بجوار النّافذة قائلاً: لبعض الوقت.

تطلَّعت السّيدة تريسي إليه، لكنّني عرفت أنّها تحادثني عندما قالت:

ـ صديقتك الصّغيرة القبيحة ألحقت الأذى به، وأنت تذكِّرينه بها.

أُرتج عليّ، فلم أملك إلاَّ القول:

ـ إنّني لست مثلها!

لم أقصد قولها بصوتٍ عالٍ على هذا النّحو. التفتا معاً لينظرا إليّ. وهكذا قلتها على الرّغم من أنّني لم أُعِدّ لذلك. أبلغتهما حتّى قبل أن أطلب الخاتم:

ـ لقد أسلمت دوركاس نفسها للموت. اخترقت الرّصاصة كتفها، بهذه الطّريقة.

أشرت إلى كتفي، وأضفت:

ـ لم تكن لتدع أحداً يحرِّكها. قالت إنّها تريد أن تغفو، وستكون على ما يرام. قالت إنّها ستمضي إلى المستشفى في الصّباح. قالت: لا تدعوهم يرسلون في طلب أحد! ظننت أنّها لا ترغب في أن تعرف عمتها، السّيدة مانفريد، بالأمر، أين كانت وما إلى ذلك من أمور. وقالت المرأة الّتي أقامت الحفل إنّه لا بأس بذلك، لأنّها كانت تخشى استدعاء الشّرطة. كانوا جميعاً يخشون ذلك. وقف النّاس هنالك متحلِّقين يتحدَّثون وينتظرون. أراد بعضهم حملها إلى أسفل عبر

الدّرج، ونقلها إلى عربة والانطلاق بها إلى عنبر الحالات الطّارئة. رفضت دوركاس، وقالت إنّها في خير حال، ورجتهم أن يتركوها وحدها وأن يدعوها لتنال قسطاً من الرّاحة. ولكنني لم أدعها، وإنّما استدعيت سيارة إسعاف. أقصد قمت بذلك، لكنها لم تأت حتّى الصّباح بعد أن اتصلت مرتين. قالوا إنّ الجليد هو العائق، ولكن في حقيقة الأمر تأخّروا لأنّ من طلبوا حضورها كانوا ملوّنين. نزفت حتّى الموت، وتسرب دمها عبر ملاءات فراش تلك المرأة إلى الحشية، وبمقدوري القول إنّ تلك المرأة قد ضاقت بذلك ذرعاً. وكان ذلك هو كلّ ما تحدَّثت عنه هي وصديق دوركاس. الدم. وأيّ فوضى أحدث. ذلك هو كلّ ما تحدّثا عنه.

اضطررت للتوقّف لأنّ أنفاسي تقطَّعت، وانخرطت في البكاء.

كرهت البكاء حتّى تناثرت دموعي على ملابسي على ذلك النّحو. لم يوقفاني كذلك. دفع إليَّ السّيد تريسي المنديل الّذي كان في جيبه، وعندما انتهيت من البكاء كان قد ابتلّ إلى حدّ التّشبع.

سألني:

ـ هذه هي المرّة الأولى؟ المرّة الأولى الّتي تبكينها؟

لم أكن قد فكرت في ذلك. لكن ما قاله كان صحيحاً.

قالت السّيدة تريسي.

ـ أوه! خراء!

ثمّ نظرا إليّ، كلاهما، وحسبت أنّهما لن ينطقا بكلمة أخرى، إلى أن قالت السّيدة تريسي:

twitter @baghdad_library

ـ تعالي لتناول طعام العشاء! لم لا تأتين. مساء الجمعة. أتحبين سمك السّلور؟

قلت إنّني سأحضر يقيناً، ولكنّني لن أفعل ذلك. فليذهب الخاتم إلى الجحيم. ولكنّني في يوم الخميس السّابق ليوم الدّعوة فكرت في الطّريقة الّتي نظر بها السّيد تريسي نحوي، والطّريقة الّتي قالت بها زوجته: «أنا».

يا للطريقة الّتي قالتها بها. لم تكن كما لو كانت «أنا» شخصاً شرساً، أو شخصاً استجمعت أطرافه بقصد الاستعراض، ولكن مثل شخص أثير لديها بوسعها الاعتماد عليه. شخص خفي لا تضطرّ إلى الشّعور بالأسف عليه أو تضطرّ إلى القتال من أجله، شخص لن يضطرّ إلى سرقة خاتم انتقاماً من البيض ثم يكذب ويقول إنّه هدية منهم. أردت استعادة الخاتم ليس لأنّ أمّي تسألني عمّا إذا كنت قد عثرت عليه بعد فحسب، وإنّما لأنّه جميل. ولكن على الرّغم من أنّه يخصّني فهو ليس ملكاً لي. إنّني أحبّه، لكن فيه خدعة، ويتعيَّن عليَّ أن أوافق على الخدعة لكي أقول إنّه خاتمي. وذلك يذكّرني بالصّبي الأشقر المخادع الّذي يعيش في ذهن السّيدة تريسي. هدية أخذت من البيض، وأعطيت لي عندما كنت أصغر سنّاً من أن أقول: لا، شكراً.

لقد دفن معها. ذلك هو ما اكتشفته عندما مضيت للعشاء المؤلف من سمك السّلور، فقد رأته السّيدة تريسي في أصبع دوركاس، عندما طعنتها في التّابوت.

أحسست إحساساً غريباً. في معدتي. وكان حلقي أشدّ جفافاً من أن أبتلع ريقي، ولكنني اضطررت لسؤالها رغم ذلك ـ لماذا قلبت

الجنازة رأساً على عقب بتلك الطّريقة. تطلّع إليها السّيد تريسي وكأنّه سبق أن طرح هذا السّؤال.

قالت:

ـ عليك بنسيان هذه السّيدة. قومي بتسجيتها في مكان ما، ونسيان ذلك المكان.

ـ كيف عثرت عليها؟

ـ بحثت عنها.

ـ جلسنا هنالك لبعض الوقت، دون أن يتفوّه أحد بكلمة، ثمّ نهضت السّيدة تريسي لتردّ على طرقة على الباب. سمعت أصواتاً: ها هنا فقط، وهنا، لن يستغرق الأمر إلاَّ دقيقتين.

ـ لست أقوم بعمل يستغرق دقيقتين.

ـ أرجوك، يا فيوليت، ما كنت لأطلب ذلك إلاَّ إذا كان ضرورياً تماماً، وأنت تعلمين ذلك.

أقبلتا إلى غرفة المائدة، السّيدة تريسي امرأة تتوسّل من أجل بضع تجعيدات: ها هنا فقط، وهنا، وربّما يمكنك الهبوط بها إلى هنا، دونما تجعيد، مجرّد الهبوط بها. تعلمين ما أقصده؟

قالت: امضيا قدماً، لن أقضي وقتاً طويلاً. وجّهت قولها ذاك للسّيد تريسي ولي بعد أن قلنا «مساء الخير» للزبونة الّتي بدت في عجلة من أمرها، لكن أحداً لم يقدم أحداً لغيره.

لم يجلس السّيد تريسي إلى جوار النّافذة هذه المرّة، وإنّما اقتعد الأريكة إلى جواري.

ـ فيليسيا، ذلك يعني أنّك سعيدة. هل أنت سعيدة؟

twitter @baghdad_library

ـ لا، بالتأكيد.

ـ لم تكن دوركاس قبيحة ظاهراً وباطناً.

هززت رأسي، وقلت:

ـ لقد استغلَّت النّاس.

ـ إذا أرادوا أن تستغلّهم فحسب.

ـ هل أردتها أن تستغلّك.

ـ لابدّ أنّ الأمر كذلك.

ـ طيّب. لم أرد ذلك. شكراً لله أنّها لا تستطيع الاستغلال أكثر من هذا.

تمنيت لو أنّني لم أنزع سترتي، فثوبي يتمدّد عند الصّدر أياً كان ما أفعله. كان ينظر إلى وجهي لا إلى جسمي، ولذا فلست أدري لم أحسست بالعصبية لوجودي في الغرفة وحدي معه.

ثمّ قال:

ـ إنّك غاضبة حتّى الجنون لأنّها ماتت. وكذلك أنا.

ـ أنت السّبب في موتها.

ـ أعرف. أعرف.

ـ حتّى وإن لم تقتلها مباشرة، حتّى وإن تركت نفسها تنزلق إلى الموت، فإنّك وراء موتها.

ـ إنّني السّبب. طوال ما بقي من عمري، سأكون السّبب. سأقول لك شيئاً. لم يسبق أن رأيت مخلوقة أكثر احتياجاً في حياتي.

ـ دوركاس؟ تقصد أنّك مازلت مرتبطاً بها.

ـ مرتبط؟ طيّب. إذا كنت تقصدين ما إذا كنت قد أحببت ما شعرت به نحوها، فأعتقد أنّني مرتبط بذلك.

ـ ماذا عن السّيدة تريسي؟ ماذا عنها؟

ـ إنّنا عاكفان على هذا الأمر، بمعدل أسرع الآن، منذ مرورك بدارنا وقولك ما قلتِه لنا.

قلت:

ـ كانت دوركاس باردة، وعلى امتداد حياتها حتّى النّهاية كانت عصيّة الدّمع، لم أرها تذرف دمعة قطّ على أي شيء.

قال:

ـ لقد رأيتها. إنّك تعرفين الجانب الصّلب منها. أمّا أنّا فرأيت الجانب اللّين. وكان من حظي أن أرعى هذا الجانب.

ـ دوركاس؟ لينة؟

ـ دوركاس. لينة. الفتاة الّتي عرفتها. وكونها مكسوّة بالحراشيف لا يعني أنّها ليست سمكة تقلى لم يعرفها أحد على ذلك النّحو سواي. لم يحاول أحد أن يحبّها قبلي.

ـ لماذا أطلقت النّار عليها إذا كنت تحبها؟

ـ كنت خائفاً. ولم أكن أعرف كيف أحبّ أحداً.

ـ وهل تعرف الآن؟

ـ لا، هل تعرفين أنت يا فيليسيا؟!

ـ لدي أمور أخرى أشعل بها وقتي.

لم يضحك على ما قلت، لذا قلت:

ـ لم أخبرك بكلّ شيء.

ـ هل هناك المزيد.

ـ أعتقد أنّني ينبغي أن أقول لك. كان ذلك آخر ما قالته. قبل أن. تمضي للرقاد. كان الجميع يصرخون: «من الّذي أطلق النّار

twitter @baghdad_library

عليك، من الّذي فعلها؟» قالت: «دعوني وشأني! سأبلغكم بذلك غداً». لابدّ أنّها حسبت أنّها ستحيا إلى الغد، وجعلتني أحسب ذلك أيضاً، ثمّ رددت اسمي، على الرّغم من أنّني كنت جاثية إلى جانبها مباشرة «فيليسيا! فيليسيا! اقتربي! اقتربي!. وضعت وجهي هنالك مباشرة. كان بمقدوري أن أشتمّ رائحة شراب الفاكهة المخمّر في أنفاسها. كان العرق يسيل منها، وهي تهمس لنفسها، وقد عجزت عن إبقاء عينيها مفتوحتين، ثمّ فتحتهما على اتساعهما وقالت بصوت عال حقّاً: «هناك تفّاحة واحدة» بدا ما قالته قريباً من «تفّاحة». «واحدة فحسب. قولي لجو!».

أترى؟ كنت آخر شيء في ذهنها. كنت هنالك مباشرة، هنالك مباشرة. صديقتها الأثيرة، هكذا حدّثت نفسي، ولكن ليست أثيرة بما يكفي لترغب في المضي إلى جناح الطّوارئ والبقاء على قيد الحياة. أسلمت نفسها للموت من تحت وقد وضعت خاتمي في أصبعها، وكلّ شيء، ولم أخطر حتّى على بالها. كذا. تلك هي الحقيقة، وبها حدّثتك.

كانت تلك هي المرّة الثّانية الّتي رأيته يبتسم فيها، لكنها كانت تشي بالحزن أكثر ممّا تشي بالفرح.

قال: «فيليسيا!». وواصل ترديدها: «فيليسيا! فيليسيا! نطقها بمقطعين، وليس بمقطع واحد، شأن معظم النّاس، بمن فيهم أبي.

أقبلت المرأة ذات الشّعر المجعد مارة بنا في طريقها إلى باب الدّار مثرثرة، قائلة: شكراً جزيلاً، إلى الملتقى يا جو! آسفة للإزعاج. إلى اللّقاء يا عزيزتي، لم ألتقط اسمك. إنّك هبة من

السّماء، يا فيوليت، هبة حقيقيّة من السّماء، إلى اللّقاء!

قلت إنّ عليّ الانصراف بدوري. غطست السّيدة ترسي في مقعد وقد ردّت رأسها إلى الوراء وتدلّت ذراعاها. قالت: النّاس أوغاد. أوغاد تماماً.

قال السّيد تريسي: لا، إنّهم مضحكون.

عندئذٍ ضحك قليلاً؛ ليبرهن على صحّة ما قاله، وضحكت بدورها. وضحكت كذلك، ولكن الضّحكة لم تبد في موضعها تماماً؛ لأنّني لم أحسب أنّ تلك المرأة مضحكة للغاية إلى ذلك الحد.

أدار أحدهم في الدّار المقابلة عبر الزّقاق أسطوانة، وتناهت الموسيقى، عبر النّافذة المفتوحة. حرّك السّيد ترسي رأسه على الإيقاع وطرقت زوجته بأصابعها مسايرة له. خطت خطوة قصيرة أمامه، وابتسم، وشيئاً فشيئاً راحا يرقصان. لاح مشهدهما طريفاً، كما هو شأن كبار السنّ، وضحكت من قلبي، لا بسبب طرافة مشهدهما، وإنّما شيء في المشهد أوحى لي بالشّعور بأنّني لا ينبغي أن أكون هناك، لا ينبغي أن أتطلّع إليهما وهما يقومان بذلك.

قال السّيد تريسي:

ـ هلمي، يا فيليسيا، دعينا نشاهد ما يمكنك القيام به!

قالها وهو يمسك بيد زوجته ماداً إياها.

قالت السّيدة تريسي:

ـ نعم، هلمي، أسرعي، فالأسطوانة توشك على الانتهاء تقريباً!

ـ هززت رأسي معتذرة، لكنني أردت أن أرقص.

twitter @baghdad_library

عندما فرغا من الرّقص، وطلبت سترتي قالت السّيدة تريسي:

ـ عودي في أي وقت، فأنا أريد أن أصفّف لك شعرك على أي حال، مجاناً، أطرافه بحاجة إلى تهذيب.

جلس السّيد تريسي وتمطّى قائلاً:

ـ هذا المكان بحاجة إلى عصافير.

ـ وحاكٍ من طراز فيكتورلا

ـ حذار ممّا تقولين يا فتاة!

ـ إذا حصلتما على حاكٍ، فسوف أجلب بعض الأسطوانات، عندما أحضر لقصّ شعري.

ـ هل سمعت ذلك يا جو؟! ستحضر بعض الأسطوانات.

ـ إذن فخير لي أن أعثر على عمل آخر.

قلب صفحات مجلد كبير، ومسّ مرفقي فيما كنت أمضي نحو الباب:

ـ فيليسيا، اسمك على مسمّى. تذكّري ذلك!

سأصارح أمّي بالحقيقة. إنّني أعلم أنّها تفخر بسرقة ذلك الخاتم الأوبال، وبالجرأة على اتيان شيء من ذلك القبيل انتقاماً من البيض الّذين يظنّون أنّها تسرق حتّى عندما لا تكون كذلك. وأمّي أمينة للغاية إلى حدّ أنّها تدفع الناس للضحك. فقد أعادت زوجاً من القفّازات إلى المتجر عندما أعطوها زوجين من القفارات بدلاً من الزّوج الّذي دفعت ثمنه، وأعطت قاطعي التّذاكر أرباع الدّولارات الّتي عثرت عليها على مقاعد الحافلة، بدا الأمر وكأنّها لا تقطن في مدينة كبيرة. وعندما تفعل أموراً كتلك فإنّ أبي يضع جبينه في كفّه، وينظر إليها

العاملون بالمتاجر وقاطعو التّذاكر كما لو كانت مجنونة على وجه اليقين؛ ولذا فإنّني أعرف كم عنى أخذ الخاتم الكثير لها، وكم كانت فخوراً بكسر قواعدها ولو لمرّة واحدة. ولكنني سأحدّثتها بأنّني أعرف بالأمر، وأنّني أحبّ ما فعلته، لا الخاتم.

إنّني سعيدة لأنّ دوركاس حصلت عليه، فقد كان متناسباً مع سوارها والدّار الّتي أقيم فيها الحفل. كانت الجدران بيضاء مع ستائر فضيّة وفيروزيّة على النّوافذ، وقماش الأثاث فيروزي اللّون كذلك، والسّجاجيد الّتي قامت المضيفة برفعها من الأرضيّة ووضعها في غرفة النّوم الاحتياطيّة بيضاء اللّون. وحدها غرفة مائدتها كانت قاتمة اللّون، وليست مثبتة الأثاث في موضعه كالجزء الأمامي من الدّار، وربّما لم تقم بطلائها بالألوان الأثيرة لديها تاركة طبقاً كبيراً مليئاً ببرتقال أعياد الميلاد يشكّل الزّخرفة الوحيدة. وكانت غرفة نومها الخاصة بيضاء وذهبيّة، ولكن غرفة النّوم الّتي نقلت دوركاس إليها، وهي غرفة احتياطيّة غير بعيدة عن غرفة المائدة القاتمة الألوان، ذات ألوان عادية.

لم يكن لدي مرافق للحفل، فمضيت مع دوركاس وأكتون. كانت دوركاس بحاجة إلى حجة غياب، وقد كنت أنا تلك الحجة. وكنّا قد جددنا لتونا صداقتنا، بعد أن كفّت عن لقاء السّيد تريسي، وانطلقت في كلّ مكان مع «طريدتها»، شخص أرادته فتيات كثيرات أكبر منّا سنّاً وحصلن عليه أيضاً. وقد أحبت دوركاس ذلك الدّور: أنّ الفتيات الأخريات يتقدن غيرة، وأنّه قد آثرها عليهن، وأنّها قد كلّلت بالفوز. وذلك ما قالته: «فزت به. انتصرت». يا إلهي! إنّك لتحسب أنّها كانت تخوض غمار قتال.

twitter @baghdad_library

ما الّذي فازت به بحق الجحيم؟ لقد عاملها معاملة فظّة، ولكنّها لم تعتقد ذلك. وأمضت وقتها في التّفكير في كيفية إبقائه مهتماً بها، وراحت تتآمر معه لما ستفعله لأي فتاة تحاول اقتحام السّاحة. تلك هي الطّريقة الّتي تفكّر بها كلّ الفتيات اللاتي أعرفهن: كيف يصلن ثمّ يتشبثن بفتى، وفي الوقت نفسه تكون هناك صديقات يردن أن يكون ذلك الفتى لك، وعدوات لا يردن ذلك. وأحسب أنّ تلك هي الطّريقة الّتي يتعين عليك التّفكير بها في الأمر ولكن ماذا لو أنّني لا أريد التّفكير بها؟

الجوّ دافئ اللّيلة. وقد لا نرى فصل الرّبيع، وننزلق مباشرة إلى الصّيف. سيطيب ذلك لأمّي، فهي لا تطيق البرد، وأبي، الّذي ينطلق في كلّ مكان باحثاً عن لاعبي البيسبول الملونين «بشحمهم ولحمهم في الملعب» هاتفاً، متقافزاً عندما يعدّد اللّعبات لأصدقائه مجدّداً، سيكون سعيداً بدوره. لا وجود لأيّة براعم على الأشجار بعد، ولكن الجو دافئ بما يكفي لذلك، لسوف تبرز عمّا قريب، وذلك البرعم هنالك يتأوه توقاً لذلك. إنّها ليست شجرة رجوليّة، وإنّما طفوليّة. طيّب، أحسب أنّها يمكن أن تكون نسائيّة!

كان سمك السّلور الّذي أعدّته طيباً، ليس طيّب المذاق على نحو ما اعتادت جدتي أن تعدّه، أو ما درجت أمّي على تقديمه قبل أن يذوي صدرها، فالطّريقة الّتي تعدّه بها السّيدة ترسي تشمل وضع فلفل أكثر ممّا ينبغي في دقيق ما قبل القلي، وقد شربت الكثير من الماء حتّى لا أجرح شعورها، فخفّف الألم.

الألم. يبدو أنّ لدي نزوعاً إليه، نوعاً من الولع به. ألسنة برق، نهيرات من الرّعد. وإنّني عين العاصفة. تنتابني مشاعر الحداد على الأشجار المقصومة إلى حدّ الانشطار، والدّجاج المتضور جوعاً فوق الأسطح، وأتصوّر ما يمكن القيام به لإنقاذها حيث أنّها لا تستطيع أن تنقذ نفسها بدوني، لأنّ ـ طيّب، إنّها عاصفتي. أليست كذلك. إنّني أحطّم الحيوات لأبرهن على أنّ بمقدوري إصلاح ما فسد من أمرها مجدداً. وعلى الرّغم من أنّ الألم هو ألمها، إلاّ أنّني أشاركها فيه. ألاّ أفعل ذلك؟ بالطّبع. بالطّبع. ما كنت لأجعل الأمر على أيّ نحوٍ يخالف ذلك. ولكنّه نحوٌ مخالف. وإنّني أشعر بعدم الارتياح الآن. أحسّ بالزّيف بعض الشيء. ما الّذي، إنّني أتساءل، ما الّذي سيكون حالي عليه دون قطرات قليلة متألّقة من الدّم لأفكّر فيها؟ دون كلمات مترعة بالوجع تحدّد الهدف ثمّ تخفق في إصابته.

ينبغي عليَّ الخروج من هذا المكان. أتجنب النّافذة، أترك الثّقب الّذي أحدثته في الباب لألج الحيوات، بدلاً من أن تكون لي حياتي الخاصّة. كان عشق المدينة هو الّذي شتّتني، وأوحى إليّ بأفكار ضالّة، وجعلني أعتقد أنّ بمقدوري الحديث بصوتها العالي وجعل ذلك الصّوت يبدو صوتاً إنسانيّاً، لقد أخطأت في فهم النّاس تماماً.

ظننت أنّني أعرفها، ولم يقلقني أنّهم لا يعرفون بأمري حقاً. أمّا الآن فقد تبين لي السّرّ في أنّهم ناقضوني عند كلّ منعطف، فقد كانوا يعرفونني طوال الوقت، راحوا يراقبونني خلسة، وعندما كان

twitter @baghdad_library

يساورني الشّعور بأنّني في أقصى أوضاع التحجُّب والتّكتم والتزام الصّمت والبعد عن إمكانيّة رصدي، كانوا يتهامسون فيما بينهم بشأني. كانوا يعرفون محدوديّة إمكانية الاعتماد عليّ، وعلى أي نحو بائس ومهلهل تغطّي ذاتي، الّتي تدَّعي الإحاطة بكلّ شيء، العجز والقصور، وأنّني عندما كنت أخترع القصص عنهم ـ وقد بدا لي اختراعها محكماً للغاية ـ كنت في قبضة أيديهم تماماً، يتحكمون بي بلا رحمة. حسبت أنّني قد اختبأت بشكل بالغ الاتقان وأنّني أرقبهم عبر النّوافذ، والأبواب وانتهزت كلّ فرصة تتاح لي لاقتفاء أثرهم، لأتقوّل عن حياتهم وأنسرب إليها، وفي غضون هذا كلّه كانوا يراقبونني، بل إنَّهم في بعض الأحيان كانوا يشعرون بالرّثاء لي، ومجرّد التّفكير في إشفاقهم عليّ يجعلني أرغب في الموت.

لقد أسأت فهم الأمر كليّة. كنت على يقين من أنّ أحدهم سيقتل الآخر، وانتظرت وقوع ذلك لأتمكن من وصفه. كنت على يقين تام من أنّ ذلك سيحدث. وأنّ الماضي أسطوانة تمّ العبث بها، ولا خيار أمامها إلاَّ أن تكرّر نفسها عند العطب، وما من قوّة على ظهر الأرض بمقدورها أن ترفع الذّراع الّتي تمسك بالإبرة. كنت على يقين بالغ، وراحوا يرقصون ويدهسون فوقي. كانوا مشغولين، مشغولين بأن يكونوا أصلاء وملكيّين وقابلين للتغيير ـ بأن يكونوا بشراً، بحسب ما أخمن أنّك ستقول، بينما كنت أنا من يمكن التّنبؤ به، مرتبكاً في عزلتي إلى حدّ الصّلف، معتقداً أنّ مجالي، رؤيتي، هو الوحيد الّذي له وجود، والّذي له أهمية. اعترتني استثارة بالغة بينما أصوغ وأشكّل بأصابعي، مددت اليد والبصر بعيداً وأسأت فهم الواضح والجلي. كنت أراقب الشّوارع، مبتهجاً بالبنايات الّتي تضغط الحجر وتنضغط

به، سعيداً للغاية بأن أطلّ إلى الخارج وإلى الدّاخل على الأشياء، نحَّيت ما يجري في قلوب موصدة دوني.

رأيت ثلاثتهم، فيليسيا وجو وفيوليت، وبدوا لي كصورة على صقال مرآة لدوركاس وجو وفيوليت. اعتقدت أنّني أرى كلّ شيء ذي أهمية يأتونه، وبناء على ما رأيته كان بمقدوري أن أتصوّر ما لم أره: كم كانوا غرائبيّين ومنقادين لمشاعرهم، كأنّهم أطفال خطرون. لم يخطر ببالي قطّ أنّ خواطر أخرى تساورهم، وأنّهم يحسّون بمشاعر أخرى، يضعون حياتهم معاً بطرق لم أحلم بها قطّ. مثل جو. ولست واثقاً حتّى هذه اللّحظة ما الّذي انسكبت من أجله دموعه حقاً، لكنّني أعرف أنّها كانت لما هو أكثر من دوركاس. وبينما كان ينطلق عدواً في الشّوارع في طقس سيّئ حدّثت نفسي بأنّه يبحث عنها، وليس عن غرفة ذهب وايلد، تلك الدّار في الصّخرة، ذلك المكان الّذي ينفذ إليه سنا الشّمس معظم النّهار، ليست بالشيء الّذي يفخر المرء به، أو يطلع عليه أحداً، أو يريد البقاء فيه. ولكنّني أريد ذلك. أريد أن أكون في مكان أعدّ بالفعل لي، أنيق ومفتوح على مصراعيه معاً، ولا يحتاج رواقه إلى إغلاق قطّ، وشرفة مواربة بحيث يتلقّى المكان النّور ووريقات الخريف المتألقة، دون أن ينسرب المطر إليه، مكان يثق المرء فيه من رؤية سنا البدر والنّجوم، إذا كانت السّماء صافية، كائناً ما كانت الظّروف. وفي الأسفل، هناك تماماً، يمكن الاعتماد على نهر يقال له نهر تريجن.

أحبّ أن أعتكف في الهدأة الّتي خلّفتها المرأة الّتي أقامت هناك، وأخافت الجميع، محتجبة عن العيون لأنّها أوسع معرفة بالمكان من أن يراها أحد. وفي نهاية المطاف، منذا الّذي سيراها هي المرأة

twitter @baghdad_library

المنطلقة الّتي تقطن قلب صخرة؟ منذا الّذي كان بمقدوره ذلك دون أن يستبدّ الخوف به؟ من عينيها المتطلعتين اللّتين تردان النظرة بمثلها؟ ما كنت لأكترث. ولم أكترث؟ لقد رأتني، وهي لا تخشاني. إنّها تعانقني، وتتفهمني. وقد ساعدتني، وتأثرت بها، وتحرّرت سراً.

إنّني أعرف الآن.

* * *

انتقلت أليس مانفريد من الشّارع ذي المسارات الثّلاثة عائدة إلى سبرنجفيلد. امرأة تميل إلى الأردية ذات الألوان المتأنقة هناك، وربّما كان نهداها جلد فقمة لين، تقتصد الآن، وربّما تحتاج إلى القليل من الأشياء. ستائر، بطانة جيدة للسترة لتحتمل الشّتاء وهي ترتديها، وربّما الصّحبة المرحة لإنسان يوفّر الأمور الضّروريّة لقضاء اللّيل.

ماتزال فيليسيا تشتري أسطوانات من طراز «أوكيه» من متجر فلتون، وتمضي إلى الدّار على مهل عائدة من حانوت القصاب حتّى إنَّ اللّحم يتغيّر طعمه قبل أن يصل إلى المقلاة. وهي تعتقد أنّها بهذه الطّريقة يمكنها خداعي مرّة أخرى، حيث تتحرك ببطء بالغ حتّى ليبدو من حولها وكأنّهم ينطلقون راكضين. لا يمكنها خداعي، فسرعتها قد تكون وئيدة، ولكن إيقاعها سيكون خبر العام المقبل. وسواء تجمدت القبضات المرفوعة في حضورها أو تفتحت من أجل المصافحة، فإنّها ليست حجة غياب لأحد ولا مطرقة ولا ألعوبة.

عثر جو على عمل في حانة «بيديرت»، وهو عمل ليلي في أجواء

الحانة يتيح له رؤية المدينة وهي تستظلّ بسمائها العصية على التّصديق، والانطلاق مع فيوليت في سنا الأصيل. وفي طريقه إلى الدّار بُعَيْدَ شروق الشّمس، يهبط درج «الإليفيتد». وإذا كانت عربة بيع الحليب مستقرّة إلى جوار الرّصيف فإنّه قد يبتاع ثُمْن جالون من وعاء اليوم الثّاني ليبرد به عشاء خبز الذّرة السّاخن. وعندما يصل إلى البناية السّكنية يلتقط قطع النّفاية اللّيليّة الّتي ربّما تركها سكّان رواق المدخل، ويضعها في الوعاء المعدني الخاص بالنفايات، ويجمع لعب الأطفال ليضعها في أسفل الدّرج. وإذا عثر على دمية يتعرّفها وسط اللّعب، فإنّه يتركها مستقيمة وفي وضع مريح بإزاء كومة اللّعب. ويرقى الدّرج، وقبل أن يصل إلى بابه فإنّه يستطيع أن يشمّ رائحة لحم الخنزير الّذي لا تتخلّى فيوليت عن قليه في دهنه ليضفي نكهته على ما يقلى معه من طعام في المقلاة نفسها، ويهتف بها منادياً، فيما هو يوصد الباب وراءه، فتردّ عليه، ويتتابع صوتاهما: «فاي؟». «جو؟» كأنّما يمكن أن يكون هناك شخص آخر، كأنّما يمكن أن يكون هناك بدلاً من أي منهما جار متقحم أو شبح شاب معيب البشرة، ثمّ يتناولان طعام الإفطار، وفي غالب الأحوال يدلفان إلى الفراش، فهما بسبب عمل جو ـ وعمل فيوليت أيضاً ـ وأمور أخرى كذلك، أقلعا عن النّوم ليلاً، وأحلاّ محلّ ذلك الإهدار للوقت غفوات قصيرة ينالانها عندما يصرّ الجسم عليها، ولم يدهشا حيال حالتهما الصّحية الجيِّدة. غير أنّ باقي اليوم يمضي حسبما يطيب لهما. فبعد قيامها بتصفيف شعر إحدى الزّبونات، على سبيل المثال، يقابلها في متجر العقاقير، لتحتسي قدحها من الملت بالفانيليا، ويشرب شراب الكرز المسكر.

twitter @baghdad_library

ينطلقان في الشّارع المائة والخامس والعشرين ويعبران الجادة السّابعة، وإذا نالهما التّعب فإنّهما يجلسان في أي رواق حسبما يريدان ويتحدثان عن الطّقس وطيش الشّباب مع المرأة المستندة إلى قاعدة نافذة الطّابق الأرضي. أو قد ينطلقان إلى «الكورنر» وينضمان إلى الجمع الّذي يصغي إلى الرّجال ذوي العيون الحادّة الأبصار (وهما يحبّان هؤلاء الرّجال، على الرّغم من أنّ فيوليت تشعر بالقلق من أنّ أحدهم سيدهس الصّندوق الخشبي أو المقعد المكسور الظّهر الّذي يقف عليه، أو أنّ شخصاً وسط الجمع قد يهتف بما يؤذي مشاعر الرّجل. أمّا جو، الّذي يحبّ العيون الحادة الأبصار، فهو يحرص على التّأييد دوماً ويتقدم في اللّحظات المناسبة بكلمات مشجعة).

وفي أوقات متباعدة يستقلّان القطار حتّى الشّارع الثّاني والأربعين، ليستمتعا بما يدعوه جو بدرج الأُسود، أو يسيران على مهل على امتداد الشّارع الثّاني والسّبعين لمراقبة الرّجال وهم يحفرون الأسس لمبنى جديد. وتخيف الحفر العميقة فيوليت، لكنّ جو يفتتن بها، وهما معاً يعتقدان أنّ من العار حفرها.

ومع ذلك فإنّهما يمكثان وقتاً طويلاً في الدّار متأملين الأشياء والأمور، ويحكي أحدهما للآخر تلك القصص الشخصية الصّغيرة الّتي يحبان سماعها مراراً وتكراراً، أو يداعبان العصفور الّذي اشترته فيوليت. وقد اشترته بثمن بخس، لأنّه لم يكن في حالة صحيّة طيبة. ولم يكد يكون له منقار، وكان يحسو الماء، لكنه يأبى تناول الطّعام، ولم يساعد في إنقاذ الموقف مزيج غذاء الطّيور الّذي أعدّته فيوليت. نظر إلى ما وراء وجهها، ولم يحوّل رأسه عندما أحدثت أصواتاً للفت

نظره عبر قضبان القفص الصّغير. ولكن كما قلت طوال كلّ ذلك الوقت فإنّ فيوليت ليست شيئاً إن لم تكن الدّأب بعينه. فقد ضمنت أن لا يشعر العصفور بالعزلة؛ لأنّه كان بالفعل حزيناً عندما اشترته من وسط سرب من الطّيور المماثلة. وهكذا فإنّه إذا لم يكن أي من الطّعام أو الصّحبة أو قفصه مهمّاً بالنّسبة له، فإنّه لم يبق له ما يحبّه أو يحتاجه إلاَّ الموسيقى. وأخذا القفص ذات يوم سبت إلى السّطح حيث كانت الرّيح تهبّ. والموسيقيون ينفخون في آلاتهم، وقمصانهم تترامى في الرّيح وراءهم. ومنذ ذلك الوقت استحال العصفور إلى مصدر سعادة لنفسه ولهما.

ولمّا كان يتعيَّن على جو أن يكون في عمله عند منتصف اللّيل فقد كان وقت ما بعد تناول العشاء أثيراً لديهما. وإذا لم يلعبا لعبة «الشدّة» مع جيستان وستوك وفاي، زوجة ستوك الجديدة، أو يعدا برعاية أطفال أحدهم، أو يدعوا مالفوني لزيارتهما للثرثرة الاجتماعيّة حتّى لا تساورها مشاعر سيئة عن تظاهرها بالولاء وخيانتها لهما معاً، فإنّهما يلعبان البوكر وحدهما إلى أن يحين وقت النّوم تحت اللّحاف الّذي يعتزمان تمزيقه وإعادته إلى مكوّناته الأصلية قريباً والحصول على بطانية جميلة من الصّوف ذات أطراف من الأطلس قد يكون لونها أزرق زروريا، على الرّغم من أنّ في ذلك بعض المخاطرة مع تطاير السّناج وما إلى ذلك. ولكن جو متحيز للون الأزرق، وهو يريد أن يندسّ في الفراش تحت هذا اللّون واحتضانها. يأخذ يدها ويضعها على صدره ومعدته. يريد أن يتخيَّل، فيما هو راقد معها في الظّلام، الأشكال الّتي يتّخذها جسداهما وهما مكسوان باللّون الأزرق. ولا تكترث فيوليت بأيّ لون هو، مادام تحت

twitter @baghdad_library

ذقنيهما يلطف ذلك الرّحب من الأطلس الّذي لا موضع للتشكيك في أصالة حممه المندفعة إلى الأبد.

وإذ يرقد إلى جوارها، ورأسه ملتفت باتجاه النّافذة، فإنّه يرى من خلال الزّجاج الظّلام وهو يتخذ شكل كتف بها خيط رفيع من الدّم. ووئيداً وئيداً يشكّل الظّلام نفسه متحوّلاً إلى عصفور له ريشة من دم على الجناح. وفي غضون ذلك تريح فيوليت يدها على صدره وكأنّه حافة بئر ينيرها سنا الشّمس، وهناك في الأسفل يجمع أحدهم الهدايا (أقلام الرّصاص، بول دورهام، صابون جاب روز) ليوزعها عليهم جميعاً.

كان هناك مساء في العام ١٩٠٦، قبل أن يمضي جو وفيوليت إلى المدينة، عندما تركت فيوليت المحراث ومضت إلى دارهما المفروضة عليهما، ومايزال حرّ النّهار مزعجاً. كانت ترتدي ثوب عمل يغطّي جسمها كلّه وقميصاً ناصلاً بلا أكمام، وخلعتهما على مهل مع غطاء رأسها. كان هنا حوض مطلي بالميناء على المنضد قرب موقد الطّهي، وقد رقّش باللّونين الأبيض والأزرق وتقشّر على امتداد حافته. وتحت مربع من المناشف، وضع هناك لإبعاد الحشرات، كان الحوض مليئاً بالماء السّاكن. زلقت فيوليت يديها وقد رفعت راحتيهما إلى أعلى إلى الماء، وغسلت وجهها. غرفت الماء ونثرته مرات عديدة إلى أن اختلط الماء والعرق، وهدأت حرارة خدّيها وجبنيها، ثمّ غمست المناشف في الماء وراحت تستحم في حرص. أخذت من فوق قاعدة النّافذة قميصاً نسوياً تحتانياً أبيض، تمّ غسله وكيّه في ذلك الصّباح عينه وألقته على رأسها وكتفيها. أخيراً افتعدت

الفراش تفكّ ضفائر شعرها. كانت معظم العقد الّتي ثبّتتها في ذلك الصّباح قد تفككت تحت غطاء رأسها، وكانت الآن كتلاً من الصّوف ابتهجت أصابعها للمسها. جلست هنالك ويدها منغمسة بعمق في لذّة تلمس شعرها المحرمة، ولاحظت أنّها لم تنزع حذاء عملها الثّقيل. وضعت أصبع قدمها اليسرى على كعب اليمنى دفعت الحذاء لتنزعه. بدا الجهد ثقلاً زائداً، والدّهشة النّسبية الّتي استشعرتها عن مدى إرهاقها الشّديد قطعت الّطريق عليها قبعة لينة، عريضة، بالية ومعتمة كالغرفة الّتي تجلس فيها، وهي تهبط عليها من عل. ولم تحسّ فيوليت بكتفها وهي تمسّ الحشية، فهي قبل ذلك ببعض الوقت ولجت رحاب رقاد آمن. رقاد عميق، جدير بالثّقة، وموشّى بريش الأحلام الملوّن. كان الحرّ يمضي في طريقه بلاهوادة، خانقاً، شأن أصوات النّسوة في الدور القريبة تشدو: «امض، امض، بعيداً إلى أرض مصر. !» تردّ إحداهنّ على الأخرى من فناء إلى فناء بالأنشودة أو بتنويع عليها.

كان جو بعيداً في كروسلاند طوال شهرين، وعندما وصل إلى الدّار، ووقف في الرّواق، رأى جسم فيوليت الفتيّ الأسود ممداً على الفراش بلا حراك. بدت له ناحلة وواهنة، وقابلة للاختراق من كلّ موضع باستثناء قدم واحدة، هي القدم اليسرى الّتي بقي فيها الحذاء الرّجالي الّذي انتعلته. ومبتسماً، انتزع قبعته المصنوعة من القشّ، وجلس عند أدنى الفراش. كانت إحدى يديها تمسك بوجهها، والأخرى ترتاح على فخذها. نظر إلى أظافرها الصّلبة مثل بشرتها الّتي تشبه لحاء النّخيل، ولاحظ للمرّة الأولى مدى جمال يديها. كانت الذّراع المنحنية خارجة من القميص النّسائي الأبيض قد زوّدها العمل

twitter @baghdad_library

في الحقول بالعضلات، وبدت ناحلة على نحو فظيع، ولكنّها ناعمة كيد طفل. قام بفكّ أربطة حذاءها وانتزعه من قدمها، ولابدّ أنّ ذلك ساعد شيئاً في حلمها؛ إذ ضحكت عندئذٍ، ضحكة خفيفة سعيدة، لم يسمعها من قبل قطّ، ولكن بدا أنّها تنتمي إليها.

عندما أراهما الآن لا يبدوان لي بلون بنّي قاتم كلون السّبيدج، وإنّما يفقدان حافاتهما منداحين في ضوء أصيل مستقبلي، وقد مسّهما الضّوء في منتصف الطّريق بين ما كان وما ينبغي أن يكون. إنّهما بالنّسبة لي حقيقيان، في بؤرة الصّورة بوضوح ويصدران صوتاً جلياً. وإنّني لأتساءل: هل يعرفان أنّهما صوت الأصابع الّتي تقرقع تحت شجر الدّلب الغربي الّذي يحفّ بجانبي الشّوارع؟ عندما تتوقّف القطارات المدوية في محطّاتها وتكفّ المحركات عن العمل يمكن المستمعين الّذين يصيخون السّمع أن يسمعوا هذا الصّوت. وحتّى عندما لا يكونان هنا، عندما لا تستطيع سماعهما مجمعات سكنية بكاملها في قلب المدينة وهتكارات من الأحياء المكسوة بالخضرة في ساج هاربور، فإنّ صوت القرقعة يكون هناك. في الأحذيّة ذات السّيور الّتي تشبه حرفي «تي» وتنتعلها فتيات لونج أيلاند اللاّتي يظهرن للمرّة الأولى في مناسبة اجتماعيّة، الحافات المتألقة لتنورات قصيرة جريئة تحدث حفيفاً وتنزلق إلى الموسيقى الّتي تسحرهن أكثر من الشّمبانيا. وفي عيون الكهول الّذين يرقبون أولئك الفتيات والشّبان الّذين يراقصونهن يلوح ذلك الصّوت. إنّه في الانحناءة الرّشيقة للرجال الّذين يدسّون أيديهم في جيوب سراويلهم السّوداء. أسنانهم ناصعة، وشعرهم ناعم ومفروق في الوسط وعندما يمسكون بأذرع الفتيات اللّواتي ينتعلن الأحذية ذات السّيور الّتي تشبه حرف تي ويمضون بهن بعيداً

عن الجمع والأضواء البالغة التألق فإنّ صوت القرقعة هو الّذي يجعلهم يتأرجحون منطلقين في قاعة الاستقبال. قرقعة الأصابع القاتمة المترنّمة تدفعهم الرّوزلاند إلى حانة بوني، إلى الجسور الممتدّة بجوار البحر، إلى أماكن حذرهم آباؤهم منها وترتجف الأمهات من التّفكير فيها وجاء التّحذير والرّجفة معاً من الأصابع المترنمة، من القرقعة. والظّل. وإذ يدفع الظّل بعيداً إلى شوارع معينة، تحظر على الآخرين، الأمر الّذي يجعل من الممكن لسكانها أن يتنهدوا ويرقدوا بارتياح، فإنّه يتمطّى ـ هناك فحسب ـ عند حافة الحلم، أو ينزلق إلى منعطفات ضحكة فاترة. إنّه هناك خارجاً في أسوار جنية الرّباط الّتي تحفّ بجانبي الجادة، ينزلق القرف، كأنّما يترب هذا ويهندم ذاك، إنّه يلكز على حجر الرّصيف متصالب الرّسغين، ويخفي ابتسامته تحت قبعة عريضة الحافة. الظّل. الّذي يبثّ الحماية، ويتوافر لطالبيه. أو في بعض الأحيان لا يكون كذلك. في بعض الأحيان يبدو وكأنّه يترصّد بأكثر ممّا يحوّم في رقّة، وتمطّيه ليس تثاؤباً، وإنّما زيادة يتعين التّصدي لها بعصا، قبل أن يقرقع أو يطرق أو يفرقع أصابعه.

بعضهم يعرف ذلك. المحظوظون منهم، وفي كلّ مكان يمضون إليه يبدون كساعة صنعها ساحر بيدين من الحجم نفسه، بحيث لا تستطيع أن تخمّن كم السّاعة الآن ولكنك تستطيع أن تسمع القرقعة والطّرق والفرقعة المترنّمة.

لقد بدأت معتقداً أنّ الحياة إنما كرّست لا لشيء إلاّ ليتاح للعالم سبيل للتفكير في نفسه، لكنّ ذلك لم يصحّ في حالة البشر، لأنّ اللّحم الّذي ارتبط بالبؤس يتشبث به عبر اللّذّة. يتشبث بآبار وبشعر

twitter @baghdad_library

فتى ذهبي، وسوف يتشبث بيد، ربّما نعم، ربّما لا، ما إن يتنفّس النّار العذبة الّتي سببتها فتاة تحترق. ولم أعد أعتقد ذلك. فثمّة شيء مفقود، شيء خبيث، شيء آخر، يتعين عليك أن تخمنه في أعماقك قبل أن تخمنه في الخارج.

شيء جميل أن يهمس الكهول أحدهم للآخر تحت الأغطية، فنشوتهم أقرب إلى زفرة كحفيف الشّجر أكثر ممّا هي سحن بالهاون، والجسم هو الأداة، وليس الجوهر إنّهم، الكهول، يمدُّون أيديهم إلى شيء يقبع بعيداً، بعيداً للغاية، وغائراً، وراء نسيج الخلايا. إنّهم يتذكرون، فيما هم يتهامسون، دمى المهرجان الّتي كسبوها وزوارق بلتيمور الشّراعية الّتي لم يبحروا على متنها قطّ. وهم يتركون ثمار الكمثرى تتدلّى على الغصن، لأنّهم إن قطفوها فإنّهم سيرحلون من هنا، ومن سواهم سيرى ذلك النّضج إذا أبعدوه عن أنفسهم؟ كيف يمكن أيَّ شخص يمرّ قريباً منهم أن يراهم وأن يتصوّر لهم ما سيكون عليه الطّعم الحلو؟ وإذ راحا يتنفَّسان ويغمغمان تحت الأغطية اندفع كلّ منهما وانتظر عند الخطّ الفاصل، في فراش اختاراه معاً واحتفظا به معاً، بغضّ النّظر عن استناد سابق على قاموس صادر في العام ١٩١٦، والحشية المنحنية كراحة واعظ يطلب شاهداً باسم الرّب، ضمّتهما معاً كلّ ليلة، وكتمت صوت همسهما، ذلك العشق العجوز. إنّهما تحت الأغطية، لأنّهما لم يعودا بحاجة إلى النّظر إلى نفسيهما، ليست هناك عين جواد استيلاد، ليست هناك نظرة سنونو لتكشف عنهما الأغطية. إنّهما يتعمقان رحيلاً في الدّاخل أحدهما نحو الآخر، متجهين إلى دمى الكرنفال ومنضمين إليها، ولاحقين بالسّفن البخاريّة الّتي أبحرت من

مرافئ لم يرياها من قبل قطّ. ذلك هو ما تحت همساتهما الّتي تبادلاها تحت الأغطية.

ولكن هناك جانباً آخر، ليس سرياً للغاية، الجانب الّذي يمسّ الأصابع عندما يمرّر أحدهما الطّبق والفنجان إلى الآخر. الجانب الّذي يغلق فتحة صدر ثوبها بحركة فجائيّة فيما هي تنتظر الحافلة، ويزيل الخيط المنتسل من بدلته الزّرقاء المصنوعة من صوف متين، عندما يخرجان من دار السّينما إلى سنا الشّمس.

إنّني أحسدهما على حبهما الجلي للعيان، فأنا لم أعرفه سراً، تبادلته في كتمان، واستبدّ بي الحنين، أوه، استبدّ بي الحنين لإظهاره، ليكون بمقدوري أن أقول بصوت عال ما لا يحتاجان إلى قوله على الإطلاق: إنّني لم أحبّ سواك، سلّمت نفسي لك وحدك بلا تحفظ وليس لأي شخص آخر. وإنّني أريد أن تبادلني حباً بحبّ وأن تظهره لي. إنّني أحبّ النّحو الّذي تضمني به، ومدى القرب الّذي تتيحه لي منك، أحبّ أصابعك وهي تتلمسني وتواصل مسيرتها، تكشف وتقلب، لقد تأملت محياك وقتاً طويلاً مثلما تأملت محياي، وافتقدت عينيك عندما ابتعدت عني. محادثتك والاستماع إليك وأنت تردّ ـ تلك هي هزّة الابتهاج.

ولكنّني لا أستطيع قول ذلك بصوت عال، لا أستطيع أن أقول لأحد إنّني كنت أنتظر ذلك طوال عمري، وأنّ كوني قد وقع عليّ الاختيار لأنتظر هو السّرّ في أنّ بمقدوري الانتظار. ولو أنّني استطعت لقلتها. أقول قم بإبداعي! أعد تشكيلي! أنت حرّ في القيام بذلك. ولي الحريّة في تركك تقوم به، لأنّه انظر، انظر أين يداك. الآن.

twitter @baghdad_library

الحقيقة الأساسيّة التي ينبغي للقارئ تذكّرها لدى مطالعته أيّ عمل من أعمال الروائيّة الأميركيّة من أصل إفريقي توني موريسون هي أنّها تستحقّ القراءة «لأنّها في رواياتها المتميِّزة بقوّة الخيال وشاعريّة المحتوى منحت الحياة لجانب مهمّ من الواقع الأميركي» بأكثر ممّا تستحقّها لأنّها نالت الجائزة الأكثر شهرة في عالم الأدب، جائزة نوبل.

ورواية «جاز» هي العمل الأكثر نضجاً في مجمل إنجازها الروائي. والعنوان لم يأتِ من الفراغ، إذ ربّما كان أجمل ما في إبداع موسيقى الجاز ذلك الانتقال على جناحي الارتجال عبر آفاق سحريّة تشكِّل جسراً بين مشاعر الجمهور والفنّان، وهذا هو ما حاولته موريسون هنا، إلى حدّ إعادة كتابة صفحات طويلة لاستحضار روح ذلك الارتجال الممكن والمستحيل.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library
twitter @baghdad_library